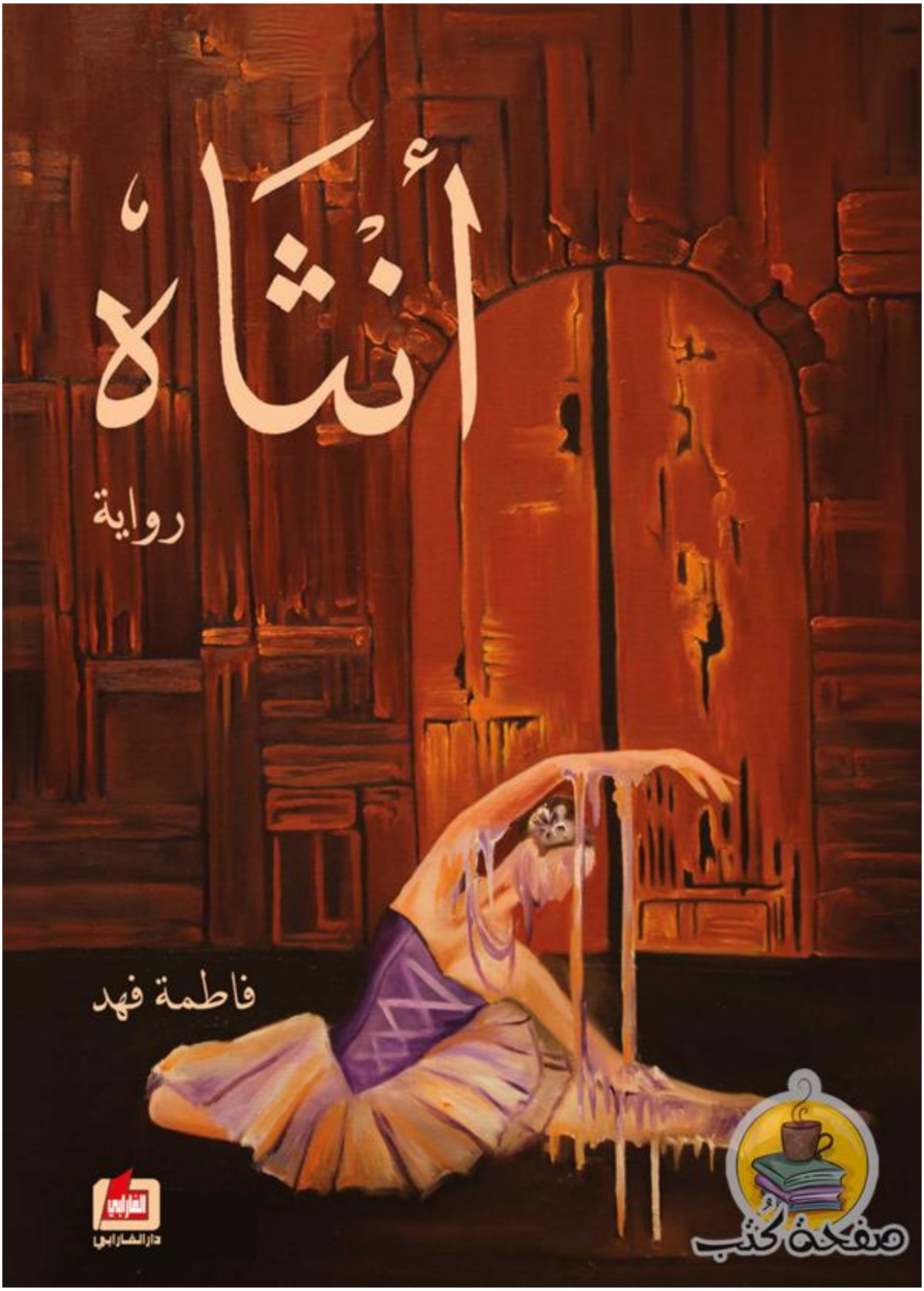


أُنثاه
رواية
فاطمة فهد
الفارابي
دار الفارابي
صفحة كتب

فاطمة فهد العواد

أنثـــاه

روايـــة

دار الفارابي

الكتاب: أنثاه

المؤلف: فاطمة فهد العواد

ffa_5@yahoo.com

لوحة الغلاف: الفنانة التشكيلية ياسمين الدوسري

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: شباط 2013

ISBN: 978-9953-71-966-5

شكر

بعض العطاء يأتيك مصحوباً بفرح وأمل،
إلى أحد الطيبين الذين ساندوني
حتى كانت هذه الرواية.. الكاتب القدير عبد الله سليمان العتيق

«إنّنا نحطّ إهداء للغرباء فقط.. وأما الذين نحبهم فمكانهم ليس في الصفحة البيضاء الأولى، وإنما في صفحات الكتاب..».

فالكاتب لا شيء دون من يلهمه..إنه مدين له بشيء.

من ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي..

ألهذا الحد نحن مُريبو التعايش، غريبون في كل شيء..

فنحن نكتب وغيرنا يتلذذ ولا أحد يفهم ما خلف السطور سوانا..

أَغريبة هي خفايانا!!؟.

الإهداء..

إلى نفسي وروحٍ سكنتني

إلى الأمل بِلا يْأس

وإلى آلاف وآلاف

من بيلسان...

بكامل وقفة..

لا تجالس أنصاف العشاق ولا تصادق أنصاف الأصدقاء، لا تقرأ لأنصاف الموهوبين، لا تعش نصف حياة، لا تمت نصف موت، ولا تختبر نصف حل، لا تقف في منتصف الحقيقة، ولا تحلم نصف حلم، ولا تتعلق بنصف أمل، إذا صمتَّ، فاصمت حتى النهاية.. وإذا تكلمت، فتكلم حتى النهاية.. لا تصمت كي تتكلم ولا تتكلم كي تصمت.. إذا رضيت فعبّر عن رضاك، لا تصطنع نصف رضا، وإذا رفضت فعبّر عن رفضك؛ لأن نصف الرفض قبول.

النصف.. هو حياة لم تعشها، وهو كلمة لم تقلها، وهو ابتسامة أجلتها، وهو حب لم تصل إليه، وهو صداقة لم تعرفها..

النصف.. هو ما يجعلك غريباً، كن أقرب الناس إليك، وهو ما يجعل أقرب الناس إليك غرباء عنك..

النصف.. هو أن تصل وأن لا تصل، أن تعمل وأن لا تعمل، أن تغيب وأن تحضر..

النصف هو أنت، عندما لا تكون أنت.. لأنك لم تعرف من أنت..

النصف هو أن لا تعرف من أنت، ومن تحب ليس نصفك الآخر، هو أنت في مكان آخر في الوقت نفسه..

نصف شربة لن تروي ظمأك، ونصف وجبة لن تشبع جوعك، نصف طريق لن يوصلك إلى أي مكان، ونصف فكرة لن تعطي لك نتيجة..

النصف هو لحظة عجزك وأنت لست بعاجز؛ لأنك لست نصف إنسان.. أنت إنسان..وجدت كي تعيش الحياة.. وليس كي تعيش نصف حياة.

النصف: لجبران خليل جبران

المقدمة

مفترق طرق،

حينما نتأمل الطرق ونعتمي درباً سلكناه، فسواء كنا فيه نوراً يضاهي شدة ظلام أو بعض رماد لفتات احتراق، فإننا نحتاج دوماً إلى وضوح صورة أن نكون أو لا نكون؛ فالتمسك بأوسط الصور قد لا يسمن ولا يغني من جوع، **إما بداية وإما نهاية!**

من خيال واقع..
كانت بيلسان تكتب إلى الكثير والكثير من فياض..
وله تهمس بسر كل تلك الحكاية :

لتعلم يا حبيب أن أصعب ما مضيت به في هذه السطور هو «أنت».

كان ثقيلاً عليّ وجداً، أن أصوغ حُباً لغيرك وإن كان خيالاً، لذا ألزمني الجنون بك بين حين وآخر، فجعلت منك باب أمل لأن أحبه ولو قليلاً، يشبهك رجل روايتي وإن اختلف تماماً عنك..

خذ نفساً عميقاً وابدأ الركض ما بين أسوار كلماتي...

إقرأ بصمت، فلعلك تدرك كيف لك أن تتغلغل في أعماقي، وتطبع صورك في كل زاوية تحتّم على حياتي الوقوف عندها..

إقرأ هذه المرة، وكأنك لا تعرفني...

بيلسان..
8:30 مساءً
15-1-1431هـ
1-1-2010 م

..(1)..

ورقة صفراء!

ومن بعد جفاء سنين قاسيتها بعده أصبحت في يوم أزفر ألذ ذكرياتي، انتشيت بكل ماضٍ يسكن أعماقي، غنيت لفيروز بصوت نحيب كما لو أنني أشرع بنسف كل أوجاعي على طرقات كسوتها ثوب سواد!

سمعتني كما لو كنت صدى يعم أرجاء عالم بأسره لا يضم إلّا أنا، سمعتني أغني بلا شعور أهدهد قلبي على وجع ألم به.

أهــواك بـلا أمـل وعيونك تَبْسُم لي
وورودك تغريني بـشـهـيِّ القُبل
أهـــواك ولــي قلب بغرامك يلتهب
تـدنـيـه فـيـقـتـرب تقصيه فيغترب
في الظلمة يكتئب ويهدهده التعب
فيذوب وينسكب كالدمع في المقل
في السهرة أنتظر ويطول بي السهر

فيسائلني القمر يـا حلوة مـا الخبر
فأجيبه والـقـلـب قـد تيمه الحب
يـا بـدر أنـا السبب أحببت بـلا أمل

وآهٍ يا أنا ما الذي سأعيشه بعد!؟ مُت في الهوى وقلبي رهيف أهلكته بكل عناء، دام نبضي يرتعش في كل خلية تسكنني، آهٍ، لو أنّ القلب يقمع كل حيّ عاش فيه!

وهل يكون؟

وبين ما أنا فيه وحالي المُريب، سمعت أمي تصرخ تنادي عليَّ: بيلسان؛ يا صغيرتي؛ سُفانة اتصلت منذ قليل. قلت لها تعاود الاتصال خلال ساعة ونصف لأنني أنتظر خالتك تتصل من لندن.

هدأت من روعي قليلاً وكأنني أستكشف لتوي كيفية الزفير والشهيق، لم أتكلف في الرد، فقط همست لها: حسناً يا أمي.

وقفت أتأملني، أتحسس ملامحي، لا أدري كيف استنكرت شكلي، فعيناي بريقهما وكأنه سماء يشوبها دخان أسود، اصفرار وجهي بات لي كما الطفل حين ينازع مرضاً ألم به، لكن ذاك من أصابني بكل البؤس ألا يعلم أي حال تركني به؟

سحقاً لكل رجل يظن نفسه سيداً في الحب يجعل من أنثاه كما لو كانت تمثالاً!

تتحمل جنونه، كبرياءه، وغروره، وتكابد بعيش حبه كما لو

أنها تعيش من وعلى أنفاسه. لست أفهم لمَ نضع لهم تصنيفاً كيميائياً خطيراً، فلا حياة قامت وجالت إلّا به، فأي أوكسجين نتنفسه بهم، وأي حياة نعيشها لأجلهم!؟

أظن رئتنا تعاني التهاباً حادّاً، فنحن لا نتنفس سوى سموم تفتك بنا ولا يبقى في أحشائنا سوى خلايا ترسم صورهم في أعيننا وتكتب كل حكايتنا على جبيننا، وبهم نحن مفضوحون!

فالظاهر لم يكن كما المخفي، لا، فهذا الأخير هو أعظم وأعظم، أذكر أنني صغت له رسالة بعد تزامن فراقنا ولا أدري كيف أبكيت الورق، اشتكاني القلم وبعثرني الألم، فكان كل نبض يبكي ويصرخ وكأنه يقول لي: كفى يا بيلسان كفى أرجوك!

في أول يوم شعرت أنه رحل ولم يعد لي حبيب؛ فحكايتي مع رجلي المستحيل انتهت، كتبت في ليل الأربعاء 22/ 12/ 2011م، في أول فصل الشتاء، وكانت المرة الأولى التي أشعر فيها بقسوة شهر ديسمبر كما لو كان يلسعني بشرار برودته، فلا حضن يضمني ولا دفء يحويني، فمن كان أصبح ماضياً، ماضياً لذيذاً!

وفي ورقة صفراء رسخت في أسطرها سيل حبر أسود كتبت فيه لحبيبي فَيّاض: بين نور قمر واختباء قدر، كنت أتغنى بصحبة ألمٍ، عناؤه غيابك، أداعب ليلي بلحظات عشتها معك، أبعثر نفسي بين حواجز البعاد، وأقمع نفسي بين حنايا ذكرياتك، قل لي أي ريح هذه التي لم تنتشلني إليك بعد!؟

بت ثقلاً على أوهامي! ولا أعلم كيف لصدري أن يُطلق تغاريد أنفاس وأنت الأوكسجين الذي أتنفسه، ليتك تعلم أني أختنق بك حُباً، يا سيدي الغالي هوناً عليّ، فأنا لم أعد أفهم نفسي ولا أدري ما الذي يعتري جوفي، كل ما أملك سقته لك هدية، قلبي وروحي وما أملك إلّا قليلاً، تمايلت نحوك كما لو أنني أرقص على حافة الهاوية، أشعلت قناديل قلبي بنيران عشقك حتى بات نزفي ألواناً كلها رمادية، أَلم تفهم بعد أنني أنبض بروح كلها لك!؟

يا رجل حياتي المستحيل، بربك قل لي أي حب أسكنته فؤادي!؟ أي فوضى أهديتها لحياتي!؟ بت أنام على فيض انسكاب عيني علّها بما تفيض تروي ظمأ أحلامي بك، يا هذا أيني، أنا، من حياتك، ألا أملك قليلَ شعور، أي شعور ينتشلك منك إليّ ...

يا عنيد؛ أُنثاك حلق بها كل الجنون بلاك، أتعبها السباق نحو حياة لا أظنها تعانقها، ملّت الاتزان نحو قوة تمقت فيها جوفاً ركيكاً بكل ما يعنيه من ضعف وانكسار، قل لي لو أنني بكيتك سائلة، أَتُرى الحب يهدينا صوراً لها مدى يعكس خيالات لا بد لها أن لا تكون!؟ فبربك كيف لي أن أختبئ من حقيقة ظاهري بك!؟

أيها المجنون، بت لي كأغانٍ من زمن عتيق، أطرب لها ثم أبكي، أبكيك حباً وأغنيك شوقاً، أراقص به نبضاً احتواك وأعزم لحنَ عذاب لا أظنه لغيري طريقاً، كنت أظن أنني بالحب امرأة يهيم بها أميرٌ بين

الرجال، لكنني لم أكن سوى عجوزٍ شابت قهراً وماتت وجعاً، وبرغم هذا فأنا يا حبيب، معك أشعر بتناقض فريد، فبحبك ضعف بقوة متناهية، ألأنني بك أحيا أملاً جديداً..!؟ فيا من يسكن خلايا دمي رفقاً بقلب أحبك إلى حد الهلاك.

***

اعتدت بعد كتابة أي خطاب أعده له أن أنهض وأقف صامدة باتجاه مرآة، وكأنني وضعتها لمثل حالتي هذه؛ كانت تتوسط جداراً أسود اللون لا شيء يضاهيه عتمة، مرآة، أطرافها زُينت بكريستال يضيء بريقاً كما لو كان النور نوره فقط، كنت أتعمد أن أرتدي أجمل ما لدي وأضع أحمر الشفاه الصارخ، وأكتحل مما يجعلني أبدو بعكس ما أظهر عليه حتى أكون وأنتصر على نفسي، تصدقون!

وما ينقصني سوى أن أعد لي طعاماً شهياً وكأنني أحتفل..

لا أدري ما يعنيه فعلي هذا لكنني بحق أشعر بحال جيد وكأنني انتهيت منه!

سفانة اتصلت بي وأنا بحال أحسن، هاتفتها مُبتسمة: أهلاً بالحبيبة، اشتقت إليكِ كيف هو حالك؟

ـ بخير يا حبيبتي، ماذا عنكِ، لا أدري لمَ شعرت بأنكِ لستِ على ما يرام!؟

بيلسان اسمعيني جيداً، بصراحة أخشى أن أخسرك..

وفجأة زادت من علو صوتها قائلة: يا رفيقتي إياك أن أشعر بأنك قد تغيبين عني، أنا أحتاجك أكثر فكفاك جنوناً، صدقيني لا نحتاج إلّا قوة، وما حالي بأفضل يا صديقة، فأنتِ لي من السماء سحابة تمطرني أملاً وتملأني فرحاً.

قاطعتها على الفور، أعرف شعور سفانة وما يدور في خلدها، فهي صديقة طفولة، هي توأم الروح، قلت مجاهدة حشرجة كادت تفضحني: أحبك والله، سفانة لا أحد يفهمني غيرك، مُحال أن أغيب عنك أبداً، لا تخشي فراقي، لن يكون إلا بقدر الموت يا حبيبتي أتفهمين؟ أنتِ لي أخت وأجمل صديقة.

سمعتها تزفر وكأنها تلفظ عناء اعتصر روحها: فواز عاد وأرسل إليّ، ولستُ أدري ماذا أفعل!؟

لم أحتمل فكرة أنني لا أزال أحبه وبقوة! بيلسان أَتظنين ندى فعلت خيراً بي؟

قاطعتها وبشدة قلت : سفانة، وهل ترين أنتِ في فواز أي خطوة تهديك نجاحاً في رسم حياة عائلة وأطفال؟

تعلمين بأن فكرة ارتباطك به من المحال، أنتِ وهو لا تتناسبان أبداً، أبداً.

يا سفانة انسيه.. فواز هذا لا يناسبك، انتهينا ثم بربك ماذا لو...

ـ أجابتني هلعة وكأن الذي سأقوله حدث: سأموت، أقسم بربي أنني سأموت.

فواز الفتى الأسود كما أسميته يا بيلسان ..

اااآه لا أعلم متى سننتهي من غباء محيطنا، ويلي من بؤس مجتمعي، وما به الأسود أَليس إنساناً يملك قلباً؟

فأنا لا أظن أحداً كما فواز، رأيت فيه رجلاً بكل ما تحمله المعاني.

وها أنتِ برجل تشهد له كل العوائل لكنه أيضاً لا يناسبك أبداً.

وأصبحت تعتلي بي صراخاً.. أنتِ أيضاً أكثر مني غباءً، ليس تعلقاً برجل بمثل عمر والدك، لا بل حتى تسعَيْنَ لهدم منزل عائلة لا تملك سوى ظل رجل!

اآآه يا سفانة لقد أصبتِ مني مقتلاً بحق، وماذا أيضاً أخبريني من أنا؟

كنت أصرخ في أعماقي أتحايل على صبري، وشعرت بيديَّ تتقطعان إثر التحامهما بعضهما ببعض.. سكنت الحرارة جسدي حتى كانت في خارجه واشتعلت بي نار في أعماقه.. سفانة تظن بي أنني فرحة لحالي لكنني لا أتعمد إلّا إسقاط صور فواز في داخلها!

تعلم هي أنه مستحيل، لكنها تمضي اختناقاً بلعنة الحب!

الحب.. ترى ماذا يكون!؟

هل هو أغنية بصوت أم كلثوم، أم قصائد من بوح مجنون!؟

أم هي حكاية ممطرة إثر دموع نزفها عاشق كان بالحب ملعوناً!؟

عشاق وسهارى وأرواح غنّت حتى حلّقت بصور كانت كلّها تحت اسم الحب.

حكايتي ليست من أساطير الزمن العتيق أو حتى الجديد.. أظنني فصل بعد زمان اختصني أنا وهو فقط، يناصفني تعايش ظاهر لقشور الحب الكثير لكنني لُب صورة أخشى انطباعها على ورق أصفر، وبحبر داكن، تارة أحمر وتارة أخرى كان وكأنه أسود!

..(2)..

.. الرجال من المريخ والنساء من الزهرة..!!

يُقال أن لا شيء في الحب مستحيل، وها أنا أعيش كل المستحيلات في حياة كنت فيها بحب وكل الحب، قد يكون ليس من السهل أن أضع صور حياتي مقياساً لحالة معينة ولا سيما إن كانت حباً، لكن أيضاً أنا أؤمن بأن تجاربنا هي دليل خبراتنا وأنا عشت حياة بأكملها ليست بالقليلة لو اختيرت في سرد نبض احتوته رواية! كثرت أمنياتي وصحت بآخرها: ليت الأشواق لم تكن يوماً كما الأشواك تغرس في القلب وترمي به إلى الجحيم، فأي قلب هذا أجده ينساق نحو حنين قاتل وشوق جارف لأحباب اتجاههم قد يكون مُعاكساً! ولا يتعبني سوى أنه ينظر إلى الآفاق كما لو أنَّ الحبيب بين السحب وسيل من ندى الأمطار، ولا أدري أنحن فعلاً نتمسك بدرب شاق لا نجد منه إلّا كل عناء!

يُفجعني خبر أن كتاب د.جون غراي [الرجال من المريخ والنساء من الزهرة] بتوقيع في طرف نهايته:

«**الدليل الرائع لفهم الجنس الآخر**».

هو الكتاب الأكثر مبيعاً! إذن ما بنا لا أحد منا يفهم الآخر؟ ولِمَ نراهم لا يفهمون أننا من دونهم نموت! أولَمْ يقل د.جون: «عندما يحب رجل امرأة، فإنه يحتاج دورياً إلى أن ينسحب قبل أن يتمكن من الاقتراب، إنه يشبه الحزام المطاطي المشدود، حيث أنه ينأى بنفسه ثم يعود بنفسه...».

ومتى يا جون متى، حتى تموت، قل لي أتموت حتى يعود ذاك المجنون!؟ أي فعل يمارسه هؤلاء الحمقى، فالمرأة لا تفهم لا ولن تفهم أن يبعد عنها حبيبها، فهي لا ترى فيه إلّا أنه يكرهها! هذه حقيقة أيضاً يغفل عنها جميع الرجال؛ قُل لهم يا د.جون: ميتون نحن بلاهم ميتون! أوليتك تُسعفنا بكتاب: أيها الغافلون إنهن بكم هائماتٌ!؟ آه يا د.جون كنت قد أسهبت في أنه: «عندما تكون متضايقة يشرح لها لماذا هو على حق، ولماذا يجب ألا تكون مُتضايقة».

وقلت: «نشعر بأننا غير محبوبات لأنهم لا يؤيدوننا في مشاعرنا، وبدلاً من ذلك يجعلوننا نشعر بأننا على خطأ وغير مدعومين...»، أصبت لكننا أيضاً نود أن نفهم لِمَ يرون أنفسهم لا يخطئون أبداً، لا ندري، فهل لأنهم ذكور فقط، لن نبالغ لو وصفناهم جميعهم في حالة أخطائهم كما لو كانوا أُسوداً تزأر!وها أنت يا دكتورنا العظيم تُفيدنا علماً بأن حُلفاءك أيضاً هذه المرة.

[الرجال لا يرغبون في أن يُحسنهم أحد].

«أفضل أسلوب لمساعدة الرجل لكي يتحسن هو التخلي عن محاولة تغييره بأي أسلوب».

سأعترف لك يا د.جون أنت وأمثال جنسك (قد يكون أحد منا فعل ما لا يجب أن يُفعل وهذا وارد، وكثيراً)، لكننا أيضاً عندما أحببناهم هِمنا بهم كيفما كانوا وبمثل ما يكونون في مُجمل حالتهم، رجل ثائر، أسد جائع، وطفل عنيد بهيئة رجل مُكابر! صدقني هم لن يحتاجوا أبداً لأن يكونوا مثاليين معنا، حُبنا لهم قد يفوق ظنهم فيما لو تخلوا عن الغطرسة والنرجسية التي في بعضهم!يظنون فينا عكس ما نحمله لهم، ينسون أننا فقط نطلب القليل.. القليل!، فقط بعض اهتمام.. وحبّاً له شأن احترام.

من الممكن أنَّ الإسهاب بالمشاعر التي تسكن أعماقهم تجعلهم في صورة الضعيف! ولا أدري لـِمَ يُصرون على أن تكون مشاعرهم تجاهنا سراً يجب أن لا يُفضح! ومما كنت تقول أيضاً: [مثلما المرأة خائفة من التلقي يكون الرجل خائفاً من العطاء].

نخاف ونخاف ونخاف...بربكم ما الذي نفعله بأنفسنا؟

مستاءة، مما أجده في استكشاف أجناسنا، فنحن مريبون إلى حد أننا مساكين، وجِدَّاً والله، نفتقر إلى كل شيء (الحب، الأمان، العطاء، الصدق...) لكنني أيضاً أكره فينا حالاً جعل منا سبباً في كل ما نحن عليه، فعلاً نحن أول من يُساهم في خلق تعاستنا وبأيدينا، وجعلنا فاشلين بهذا القدر من السوء رغم أننا قد نفهم أن هناك أموراً عديدة تجعل منا أقوياء وأحياناً طغاة متغطرسين لكن دائماً ما يكون منها شأن حرفة تنحت وتصقل منا انكساراً مُريباً، ولهذا نبقى عاجزين عن كل شيء.

أذكر حديثاً جمعني بالقاسم المشترك بيني وبين سفانة «صديقتنا ندى»، وكأني أبث لها شكواي ببعض من الأماني الضائعة من عدمها هنا.

أريد رجلاً بحبه لي أضع حياتي في كفة ميزان هو يقرر ما في كفته الآخرى، أريد حُباً ينتشلني من صور باتت لروحي كئيبة، رجلاً أبيع لأجله الدنيا ومن فيها، وكأن ما من أحدٍ هنا يا ندى.

صديقتي سئمت حباً لا يعني إلّا أنه يقتلني، فقط لو تعلمين أني في كل مرة أشتاق إليه فيها أود لو أنزع قلبي وأتركه له، فما أفادني إلّا بعشق رجل أدماه بوجع لا يرحم.

ـ أجابتني بطريقة الفلاسفة: الحب لن يكون يوماً درع آمان لاختراقات الحنين وثورة عشق دفين، الحُب يورطك ولا يُغنيك عن الوجع الكثير، لذا أيقنت أنَّ الحب لا يحمى الأغبياء...

وما أن انتهت من فلسفتها العظيمة حتى رحت ألاحقها بمرارات لم تكن بحاجة لسماعها مني على الأقل في حالتي تلك.

فهي تريدني أن أسمع بعقلي بعيداً عن هذيان قلبي وتسيده لكارثة هواي لفياض.

لا أدري صدقاً، قد يكون حظي أنني أحببت رجلاً لا يهمه إن متُّ فيه أو بدونه، أو أنّ المهم أن أموت معه على أن يموت مع غيري.

تعرفين يا ندى ربما يظن بأن جرم الغياب قد يُدرب روحي على الفقد بطريقة أو بأخرى من دون أن يحسب حساب لتعلّقي به أكثر بذنب الانتظار الذي اقترفته معه!

رأيتها تحاول الإفصاح دون حدوث أي ضجيج لا أحتمله بأعماقي أكثر مما أنا فيه وعليه..

قالت بهدوء: قد يكون غيابه رحيلاً منذ البداية لكنكِ أنتِ من يُعيده في كل مرة يرحل فيها..

ـ كيف، لمْ أفهم ما تقصدين يا ندى؟

ـ أجابتني بهدوء أكبر: أعني أنّ الإفراط في العطاء منكِ له يجعله في موقف صعب كالرحيل أو ربما يُرعبه فقد العطاء المندفق عليه، أو أنه يخجل البوح بالرفض الصريح ومن غير المعقول أن يردّ بمثل ما أنتِ عليه معه. ثم نادتني وكأنها ترجو الإنصات بعمق: بيلسان، أنتِ هبة لمن يحبه الله.. فمن الصعب جداً لفظ نعمة عظيمة كأنتِ، في عطائكِ له لم يتخلل ذلك أيّة مصالح، كل ذلك كان بدافع الحب، وذاك وحده نادر غير أنه لا يقدر بثمن، حبكِ له تعدى حدود الكرم.

مُسرفة أنتِ في كل شيء معه، ولا أظن بأعظم من انتظاركِ له وهو لا يأتي أبداً.

وأنا أسمعها، شعرت برغبة في البكاء دون توقف ولا أدري لـمَ! حاولت التماسك وهممتُ بالتبرير الذي أنهك حقيقتي معه: اسمعيني يا ندى ربما لأني لا أفهم الانتظار في (كيف، متى وإلى) فلا الذنب ذنبه أو حتى هو ذنبي.. مات أبي ولاأزال أنتظره.

بعد آهات أطلقتها شعرت بها تحرقني قالت: لا أدري حقاً.. قد أبدي برأي لا يُعجبك رغم أني لا أعني فيه فيّاضك ذاك بأم عينه، هو

رأي خاص بمجتمعي الفقير برجالات الحب، وذاك صدقيني قد لا يختلف عن غيره مع كل المحبة لكِ يا مجنونة.

ـ وما هو؟

استدارت نحوي كأنها تبحث عن ردة فعل تقرأها في عيني: اسمعيني جيداً، ما لا يعلمه الكثير بأن الرجولة الحقيقية نادرة، فالذكور يملأون المحيطات، وأي ذكر لا يستطيع الحفاظ على أنثاه هو حتماً ناقص رجولة، فالرجولة تتطلب مقاييس ثقيلة جداً لا يحتملها أي ذكر!

لم تجد مني أي رد فعل، كنت أنصت بذهول، ندى باتت كسفانة تفلسف الأشياء وكأنها تحاول أن تشدني نحوها أكثر، ربَّتت على كتفي سائلة: أتفهمين عليّ أم ماذا؟

ـ لم أناقشها عن شخص فياض، فقد علمت ما تطرقت إليه فأجبت: إذن أنتِ نسيتِ المشكلة الكبرى، وهي بأن معظمهم لا يدرك الفرق بين الذكر والرجل، ففي داخل كل رجل (ذكر) لكن من الصعب جداً أن نجد داخل كل ذكر (رجلاً)، الذكر تُملي عليه رغباته وشهواته كلّ أفعاله، والرجل الشهامة والأصالة تتسيّد حكايته.

سألتني بطريقة وكأنها تُفتش عن إجابة تختم بها الحكاية: إذن أجيبيني يا حبيبتي أهو يدرك مدى حبك إياه؟

أجبتها بهدوء: ربما..

تابعت تُعدد فصولاً كانت ثابته لي معه: لو أنه يعلم ما الذي يزيد أنثاه وجعاً لما كان هذا حالك معه، بيلسان أشعر بأن كل شيء بك له، عالقة أنتِ به حد الثمالة.

لا أدري ما أصابني لحال كنت فيه أهذي: أنا متورطة به جداً، صوته يا ندى لا يزال رنينه في أذني يُشاكس كل خلية تسكنني، برغم أنه منذ البداية لم يكن الرجل الذي أحببت قط، لم يكن يُحبني كأي عاشق مجنون أو حتى أنه يدللني كرجل يُتقن الحب لأنثاه، لم أشعر به كأب يحميني ولم ينهرني كأخ، وأبداً لم يكن كأي صديق وبرغم كل ذلك أحببته يا ندى.. أحببته جداً.

أجيبيني أنتِ يا ندى، أكنتُ غبية حينما وهبته فوق عمري أحلامي حتى أصبحت بعده بلا عمر أمضي به كحال البشر، فلا أحلام أملك ولا حياة أستطيع أن أتقبل أنفاسها بدونه، هو قتلني بلا رحمة.

أتعرفين، أعظم ما في ابتلائي به هو أنني أحبه إلى الحد الذي يُنسيني نفسي.

أوقفتني بحدة:بيلسان، إيّاكِ والعودة إليّه.. إيّاكِ.

تابعت البوح إليها وأنا أسابق غصّة البكاء بين الكلام وانسكاب حرقة الوجع بالدموع: وإن عدت إليه في كل مرة هو يغيب، فأنا لمْ أكن امرأه رخيصة حينما أوشكت البكاء إليّه راجية بقاءه. أنا فقط كنت أماً لصغار أنجبتهم ذات حلم به، فخشيت اليُتم قدرهم وأنا يتيمة وأفهم كيف يُولد طفل بلا أب.

ندى: أخاف شعوري به يضطرني لأن أقسم بأني أنجبته وأنا لاأزال عذراء، فكأن روحه تنفث في رحم قلبي وأنجبته!

ـ بيلسان بربّكِ ما هذا الجنون.. أرفقي بنفسك أرجوك.

أتدرين، أشعر بأنه جعلني من أكثر الناس كذباً على أنفسهم، أوهم نفسي بأنه أحبني ولو قليلاً؛ حتى لا أبكي نفسي وجعاً لا يُمكنني بعده الصفح عنه، ياه يا صديقتي، به كنت أماً ترجو السعادة لصغيرٍ كان لديها كل الحياة، ففي الحب نحن النساء نحبهم رجالاً ونتورط بهم أطفالاً، فالطفولة بالرجل أشبه بالورطة تجعل منا عذراوات وكأنما الحب تجاوز بنا شغاف القلب إلى حدّ الإنجاب!

هذه المرة أوقفتني مُجبرة: كُفي عن الحديث عنه، فأنا أشعر بالأسى على حب أهداكِ كل هذا الوجع، بيلسان ثمة صور في الوفاء تُشكل إهانة وتقلل من شأن الكرامة لإنسانيتنا، فالحياة كريمة لا تقبل الذل، وهو فعل بك ما يكفي، فماذا بعد كل هذا يا بيلسان ماذا؟

أتذكرين حكاية السيد (علوان) حينما تشكل الوجع بنا جميعاً إلى الحد الذي لم نفهم به معنى سقف الكفاية، كحكاية يشوبها الحزن الأسود من رجل يكتب لامرأة تركته خلفها زاهداً بالحياة، مُفرطاً في الاندثار نحو زوايا الموت الضيقة، وأنتِ تذكرينني به، كلاكما يُخيط حروف رواية لأشخاص ربما كانت لا تدرك معنى أن يكتب المرء حُباً بمثل رواية، وكأن الحُبّ خُلق ليكتب دونما أن يُعاش، بيلسان أخشى عليكِ بأن تكوني بشأن جنونكِ هذا عارية تماماً من أي ثوب طُرز بالسعادة.

قاطعتها بأمل تلك الحكاية: علوان في سقف الكفاية كتب متوسداً الوجع لأنثاه حتى عادت، ومن يدري يا ندى ربما يعود مثلما عادت

مها، فأنا والله أكتبه حُباً وشوقاً وكأني على الدوام أنتظره، كتبت إليه رسائل عديدة، وفي المساء ذاته الذي قادني إليّه بحروف أشواق ونبض حب، أنغامه لحن لا يعاد وكأن أحلامي تراقصت على أمل أغناني وبحبه أرواني، وكأنه أجمل سكون له صدى ينعش الروح، كان يدرك بأي أنثى أكون وبأي رجل هو، تعرفين لو أنني لم أحتفظ به في أعماقي ولم أتركه يتجول بين خلاياي لما شرعت بولادة حرف يسكنه هو.

أكتب كثيراً يا ندى، أكتب إليه بشتى حالاتي بين هدوئي وغضبي، وبين صراع عقلي وروحي، بين ثورة ذاكرتي وقليل جداً من نوبات طالها النسيان يوماً ما.

تحدثت وهي تحاول أن توقظني مما غرقت فيه: ربما يظنك نسيتيه، فغيابه يحتمل هذا.

ـ كيف والحنين يقصف أعمارنا بمجرد احتياجها لبعض من كثير نسيان، فلا أدري إن كان يظن بأن النسيان كفيل بأن يمحي الجراح كأن يطعمني بقليل من فرح على طبق ذاكرة يُقدم في العمر في كل مرة نحتاج فيها أن نُخلق من جديد، ربما لو أصابني الخرف، أغضب كثيراً في غيابه حتى أدركت بأن الغضب مذنب أيضاً بالذاكرة، ففي الحقيقة هو يجعلنا نتذكر ما نرغب بنسيانه.. فلا ننسى.

شاركتني حديث النسيان وكأنها تخبرني بآسى: نحن لا نشقى إلّا بذاكرة وضيعة تلتصق بقمم الذاكرة وكأنها تنتقم منّا لذات حاضر أضعناه أو ماضٍ فَرّ من أيدينا.

ـ أتعرفين كنت أدعو الله بأن يهبني منه لطفاً ورحمة تنعش روحاً به ماتت أو ينفث في روحي نسائم نسيان تحلق بي إلى الحياة من جديد، فتباً له، ابتليت بهواه، أنسى الكثير ولا أنساه، مريضة أنا به، فكل خلية في جسدي تذكرني به ولا أنساه.

أمسكت يدي وهي تقول: ياه، أحزن كثيراً لحال النساء يتقوقعن انتظاراً وترقباً لحب انتهى قبل أن يبدأ، تعاطينا مع الحب مُريب لأننا نفرط به، وغالباً ليس هناك من يستحق، فالحب فقير جداً للرجال.

أتساءل متى سأكون أنثى للنسيان بعدما أحلامي به فاقت الواقع بكثير، تعدت الفستان الأبيض بأربعة أطفال، ثلاثة منهم يشبهونه، وواحد فقط يُناصف الشبه فيما بيني وبينه.. أتراه يكون طفلنا الأول؟

لو أنه يعلم ماهية انتظاري إليه تُرى أكان يعود؟ وأنا التي انتظرته كثيراً أزرع أطفالنا أحلاماً وأطوق الأماني به بين مشيب وسلالة أحفاد ولكنني لم أحصد سوى الغياب.

صرخت بي باكية: لو أن الغياب امرأة لوأدته، ولو أنّ الحُبّ رجل لقتلته.

أتعرفين، بت أشعر بأن الغياب رجل فاسق، ذو قلب أجوف، أسود الوجه، والانتظار امرأة عجوز، شاحبة مُصفرة القلب، ذات عينين دامعتين، تكتنز الملح بين جروح عميقة وليتها تموت!

كانت تتحدث بغضب أربكني حتى بكيت.. لكني هذه المرة بكيتك لحاجة وددت بها أن تُخبرني أكنت أملك منك قليل شعور،

على سبيل المثال، حُباً يشبه ود الأصدقاء أو حتى احتراماً يكتنزه بعض من الغرباء، آه يا فيّاض ليتك تُخبرني كيف لي أن أجدك في كل مكان، ما أن تفيض ذاكرتي بك إلّا وكنت مُبعثرة في جميع الأرجاء حتى لو أنني أشرع أبواب كتاب وجدتك فيه، أخبرني بأي شيء أخبر به ندى بأنك أحببتني كثيراً، ولو أنك تشعر كم أحتاج لأن أمضي صوب النسيان حيث لا أعرفني، أرجوك قل لي أين يُباع النسيان لأشتريه بعمر مضى وإياك، دُلني حيث لا ذاكرة تُبكيني ولا حنين يُفزعني، أو حتى صديق يخذلني ولا أنت تتركني، فبربك كيف أمضي حيث لا أعرفني، أمن طريقة لديك؟

اقتربت تضمني بشدة وكأنها تَربت على أوجاعي حتى هدأت.

ثمة حقيقة أدركتها، نحن لا نبكي إلّا حُباً أنهكه سوء أدب في الغياب.

..(3)..

..الشبيه يجذب إليه شبيهه..

بصورة أساسية، ينص قانون الجذب على أن الشبيه يجذب إليه شبيهه!(*)

تباً للجاذبية!

أكره كوني أنجذب نحو شخص وكأنه مغناطيس ألتصق بأطرافه خشيةَ ألا أقع، لكنني كثيراً ما أقع حتى أكون حُطاماً! أذكر أنني كنت في ذاك الوقت في بداية العشرين من عمري، رأيته يسلك طريقه إليّ، واثق الخُطى قائلاً بصوت أذابني، حسبتني أسمعه من ذبذبات تخرج من مذياع مُشكلاً لي صوتاً خرافياً، تملكني صوته حقيقة رغم أنه لم يقل شيئاً مفيداً وقتها:

ـ إذا سمحتِ أخبري والدتك بأنه حان موعد تسديد القسط للإيجار وإلّا..

قاطعته وقتها بجراءة، قلت وأنا أنظر إليه: وإلّا ماذا يا سيد فيّاض،

(*) السّر (the secret).

ستطردنا يا كريم الأصل والذوق؟ تفاجأ بالطبع، فهي المرة الأولى التي تجمعنا معاً من بعد ما كبرت. لمحته يتأملني وكأنه يحفظ أدق تفاصيلي، لكنني تجاهلته ومضيت إلى الداخل منادية أمي تلقاه بقسط الإيجار... كان شكله لافتاً لأنه رجل جذاب، شعره الممزوج بالبياض أضاف إليه هيبة ملائكية، جسم رياضي، وأناقة فائقة، وآه من عطره كأنه مُخدر، ولا أدري هل لأنه يمزج أنفاسه أم لعبق ريحه تأثير خاص فقط! فأنا أشتمُّه بشدة حينما أثمل به في غفوة حلم يجمعني به وصغار تجمعنا، تجاوزت كثيراً كل الأحلام لأنني في حلمي ذاك أنجبت منه ابنتين أسميتهما كما نُحب يارا وسارا... طفلتاي تشبهان أبيهما تماماً، يارا فقط لها عيني نفسها ودائرة وجهي ذاتها لكنها توحي بشكله أيضاً، أما سارا، تقتلني تلك الصغيرة، تأخذ منه كل شيء أنفه، عينيه، وحِدَّة النظرة، شعره ولونه، إلا أنها تبدو لي قصيرة إلى الآن فقد تأخذ القصر مني!

فياض لم يكن رجلاً عادياً قطّ، فهو يُثير فيّ كل الشعور حتى في غيابه، ولا أظن لأي رجل أن يصل مداه في صقل محبوبته، لنحت حبه على جدار قلب من حرير كان ولم يكن إلّا به ينبض!

من أول مرة رأيته فيها شعرت أنه يشبهني وكثيراً، رأيت فيه صورة مني، يهذي بطريقتي العجيبة، يؤمن بالحزن وضرورة تواجده في الحياة، لكنني بت أخاف عليه فهو دائماً ما يختزن همومه وكأنها كنز لا بد بأن لا يُفقد، أشعر به منهكاً، وجِدّاً، لكنه يخفي عني كل حقيقته

وحينها لا يمكن أن يكون إلّا طفلي المدلل، يغمرني الخوف ويفيض كل حناني رغم مسافات تبعدني عنه حينما يقول لي: أنا مُتعب يا بيلسان صدقيني أنا مُتعب بحق وبالأخص عندما أكون مُتحاملة عليه أو في حالة ثوران جعلني هو به يزيد دلالاً يراوغني بدهاء الرجال المعتاد ويجعلني بدلاً من عاشقة غاضبة إلى أم هلعة تبكي طفلها البعيد عنها وكثيراً! فحبيبي بارع في خلق روح الولع والاشتياق إليه ولو من آخر أطرافي كأن يمتص كل أوكسجينٍ ينبض بخلاياي، وكأنه يُحرم أنفاساً أطلقتها لغيره حتى لو كانت لأجل أن أعيش.. أظنه وجب عليّ العيش له فقط! وأنا وهو، أعتقد أننا نمضي بفكرة تجعلني أشفق علينا وكثيراً، فالناس يمضون مختلفين عنا، يضحكون ويبكون ليس لأن اللحظة أرادت ذلك فقط، بل لأنهم يريدون أيضاً! أما نحن فنبكي ونضحك أحياناً لأن الحياة ترُيد منا ذلك.

أنا وفياض نعيش مُسيرين وبأي طريق نقع فيه يصعُب علينا الرحيل... بدأت أراني معه عُقدة لا تنفك ولا تنحل! التحم بنا سحر الحب! رغم أنني متأكدة أن فياضاً لم يحبني قط أو أنه أحبني قليلاً جداً، هو فقط اتبع سر الجاذبية التي جمعتنا معاً من دون أن نتعمد اللقاء! عرفته بطريقة تختلف عن بدايات القصص، وجدته مختلفاً عن كل الرجال، إلّا أنني استوعبت، وأخيراً فياض كان رجلاً ككل الرجال!

يا معشر النساء أُنصتنَ إليَّ بحذر:

هناك في القلب شأن غرفة كلها عتمة إن بدأت اشتعالاً لا تنتهي!

عتمة تطوق بنا إن زار زواياها أي رجل، فلا تأمن إحداكن الحب، فالحب كالبحر، عندما نغرق لا يُمكننا أن ننجو إلّا موتاً، فيا ليتنا بالحب كُنّا رجالاً، ليتنا عندما أحببنا كُنَّا على الأقل بنصف عقل يُملي علينا نوراً ويضيء لنا عندما نتوه بين سراديب العشق المميتة.

أختي نوران قالت لي مرة: بيسو سئمت الروايات لأنها تجعلني أكره الحب أكثر مما أحبه، لأنها أحياناً إما تجعل الحب عظيماً وفي واقعنا عكس ذلك وإما أنها تضعه في عقد لا تنجلي، يكفي أنني أشعر في كل رواية أحاول قراءتها، أنّ الحزن هو سيد كل سطورها وكأن ما من شعور غيره! أكاد أصدق فيما لو كانت الكتب تُباع بتلك الكمية الوافرة من الحزن المبعثر بين الصفحات كنظام يوحد الشعور لدى الشعب بأكمله لكانت آلية الشعور من منبع ركيك السعادة وملتهب بالتعاسة، فالحقيقة أن البشر لا يستهوون إلّا الحزن!

واستدارت نحوي بأكملها وقالت بصوتها الرخيم : بيلسان كُفي عن القراءة والكتابة ولو ليوم، واسترسلت وكأنها تداعبني: «أكاد أرى قلبك يرفرف نحو أحدهم، أَأَنتِ عاشقة؟!» بربك يا أخيّة أخبريني كيف هو الحب؟ «على الأقل أخبريني ما اسمه!».

آآه يا نوران، أتريدينني أخبرك عن سر فياض واسمه ذي المعنى الوافر بالعطاء! فهو كريم مع أجمع الناس إلّا أنا يتباخَل عليّ بكل ما احتاجه منه.

رأيتها تقترب مني أكثر وأكاد أحترق وأنا حيرة من سؤالها، فأنا وحدي لا أملك أي جواب..

كنت دائماً ما أفكر فيما لو كان اسم فياض بغيره، ترى ما الذي يناسبه، فلأنني دائماً ما أنعته بالأسد، همست ذات ليلة إلى سفانة سيكون ابني من فياض (جروان) تماماً كما يجب أن يكون اسم صغير الأسد.

ضحكت كثيراً، وقالت حتى يصح له القول إجباراً: «هذا الشبل من ذاك الأسد».

إذن يا أم جروان.. كيف لأصغر بدوي حينها أن يعترف بأن اسم أمه بيلسان؟

يا سفانة ولِمَ التعقيد؟ الجيل القادم سيتقبل كل شيء جديد، صدقيني، وغداً ترين سيستنكرون اسم حصة وصيتة وغيرها من أمثال تلك الأسماء العتيقة!

أذكر أنها غضبت مني كثيراً لأن اسم أمها كان حصة تظنني أعيبه، قالت لي، وكأنها تود أن تلتهمني وتلفظني خارج الغرفة: اسم أمي جميل كجمال روحها على الأقل، واضح أنها بدوية أصيلة ومن خير القبائل، أظنك نسيتِ أصل أمك يا بيلسان!

لم أنس قط أن أمي فلسطينية الأصل، وكيف لي أن أنسى وأنا في كل فصل دراسي بعد مجلس الأمهات، حشد كبير من الطالبات يلتم حولي: أَأمك عربية يا بيلسان، وكأن العرب فقط هم السعودية!؟

نوران المسكينة أخذت تلوح بيدها وكأنها تتعمد كسر الصورة التي أغرقت فيها: بيسوو نحن هنا إلى أين يا أختي، كل هذا لأنني طلبت أن أعرف اسمه؟

تصنعت الضحك، وجِدَّاً: مجنونة أنتِ يا نور حياتي، أَلم تسمعي شاعر العشاق نزار قباني حينما قال:

لا تسألوني... ما اسمهُ حبيبي
أخشى عليكمْ.. ضوعةَ الطيوبِ
زقُّ العبيرِ.. إنْ حطّمتموهُ
غرقتُمُ بعاطرٍ سكيبِ
والله.. لو بُحتُ بأيِّ حرفٍ
تكدَّسَ الليلكُ في الدروبِ
لا تبحثوا عنهُ هُنا بصدري
تركتُهُ يجري مع الغروبِ
تروَنَهُ في ضحكةِ السواقي
في رفَّةِ الفراشةِ اللعوبِ
في البحرِ، في تنفّسِ المراعي
وفي غناءِ كلِّ عندليبِ
في أدمعِ الشتاءِ حينَ يبكي
وفي عطاءِ الديمةِ السكوبِ
لا تسألوا عن ثغرهِ..

أوقفتني تصفر وتصفق : آوووه يا بيلسان، أيقنت الآن أنكِ عاشقة من رأسك حتى قدميكِ. ضحكتْ، وقلت لها آخر شطر من القصيدة : فلن أبوحَ باسمهِ حبيبي.

..(4)..

قد نحتاج يوماً عيداً ثالثاً!!..

كنت مع أُختيّ وصديقتيّ سفانة وندى نلتم حول طاولة الطعام حيث أعددت وليمة عشاء نجدد فيها عهد الصداقة.

أذكر أن الابتسامة عانت حتى تُفارق شفاهنا وكأن السعادة من حولنا طوق نجاة من أي حزن! كنت أعددت طبق المعكرونة الذي تحبه ندى كثيراً وسلطة الناتشوز التي تتلذذ بها سفانة، لم أتكلف بالأطباق، رتبت الطاولة بالشموع، وتعمدت إنصافها بالورد الجوري الأحمر، وضعت الأواني عند طرف الطاولة لأنني أردت الجميعَ يتلاحم حتى بالحركة، وددت أن نشعر أكثر بأننا واحد، ودودون وبسطاء أكثر رغم جو الطاولة في منتصفها.

وأثناء ما كنا نغذي عصافير بطوننا وكأننا لأول مرة نرى فيها طعاماً برغم أنني لم أكن طباخة ماهرة، لكنني أجيد أصنافاً أحبتها مني صديقتاي ولا أظنني أجيد غيرها.

أُختاي ريمان ونوران كانتا تتشاركان معنا أطراف الحديث وهذه

المرة كنا نتحدث عن الدارج في الحب، إن صح التعبير بين البنت والبنت وبين العكس ومثله!

ـ ريمان كانت تقول منفعلة : بيسو أتصدقين أنني اكتشفت إحدى طالبات فصلي مغرمة بسميرة!

ـ قالت ندى باستنكار: سميرة الخشنة!؟

أجابت نوران ساخرة: نعم سميرة المسترجلة يا ندوووش.

لم أفهم بعد ما الذي يجعل من فتاة تغرم بفتاة!

أي عقل هذا وأي حب يجعلهم في صورة قذارة وحقارة! بغضّ النظر عن الخشونة التي تتمركز في جوف فتاة يفترض فيها أنها ناعمة أو على الأقل تحترم أنوثتها، أنا أتقبل فكرة فتاة تلتحم برجل حتى لو بدون وجه شرع أو عين صواب، لأنها فطرة وغريزة في الجنسين على الأقل سيكون أمراً طبيعياً.

قطعت الحوار متعمدة، لأنه بصراحة أغضبني واستفزّني كثيراً ثم إنني لا أحب من أختيّ الخوض في حديث كهذا: أعتقد أن هذا الحوار مستفز بما يكفي هذا أولاً، ثم إنني معكن هنا لأجل أن نستمتع وليس لنتقرّف مما يحكى أو يفعله الحمقى في كل مكان، ثم يا أختيّ العزيزتين لا سميرة ولا مجنونتها محض اهتمام لدي أنا وصديقتي أليس كذلك؟ وغمزتُ لسفانة حتى تؤيدني بما أن ندى هي المتحمسة معهن!

سفانة ردت مبتسمة: هذا صحيح، لكن أخبروني أي كتاب سنختاره الليلة لأجل أن نختبر عقلياتنا يا حسناوات؟

كانت ندى مستاءة لأنها على حد تعبيرها: يا الله سئمت الفلسفة يا سفاحة الفكر صدقيني (الحياة لا تحتاج أكثر من البساطة، فالفلسفة أحياناً مزعجة).

أختي ريمان كانت تبتسم وهي ترى من ندى كل هذا الضجر سألتها: ما بكِ يا حلوة؟

أجابت ندى وبسرعة: توافقني الرأي لكنها تخشى التأييد المباشر.

ريمان انغمست في الضحك وهي تحاول أن تجيب: لا والله لكنني أرى أنّ التناقض في ثلاثتكن عجيب، سفانة فيلسوفة، وندوش مغامرة ولا تأبه سوى أنها فقط تعيش كيفما يحلو لها كما أنني أشعر بأنها العجب بعينه.

تدخلت نوران متحمسة: وبيلسان حالمة عاشقة رومانسية، أختي تشعرني بأنها وردة بيضاء بعبيرها الفواح في بستان رجل كله خضار، كنت أستمع وأنا أبتسم فقلت بصوت مكتوم: آه يا فياض حتى أختي أحبتك رغم أنها لم تعرفك إلا من انعكاسك في ظاهري.

كانت ندى قد اقتربت مني وهمست: يبدو لي أن سرك بات متعرياً أمام كل البشر، فيا عاشقة زمانك كوني حذرة فأنتِ إلى الآن في وضع حرج، على الأقل حاولي إخفاءه، إكرهيه بالظاهر يا بيلسان، تعلمي كرهه حتى لو كذباً، إكذبي على نفسك، إبغضي حبك له لثوانٍ فقط ما بين أهلك، وحتى أنا لا أود أن أرى حبك هذا الذي يشعرني أنني أمقت فياضاً وكل الرجال بسببك، فأي حب أنتِ تحبينه، فوالله إني

أشعر أنك انتهيتِ به ومعه! صدقيني ما تعيشينه بفياض أرفضه أنا في أن يكون حباً.

الحب الحقيقي يهدينا حياةَ أملٍ وفرحاً لا ينجلي يا بيلسان.

صدمت حقيقة برأي ندى رغم أنني أعرف أنها سئمت حكايتي بجنونها مع فياض لكنني أجبتها باستغراب: أراكِ تجيدين الفلسفة أم أني أنا بفياض ألهمتك كل هذا؟!

همست بغضب: مالت عليك وفياضك ذا البدوي اللي رافع ضغطي!

ضَحكتُ إلى درجة تُلفت الانتباه، قلت بصوت عالٍ من باب التصريف: تقول ندى إنها تود أن نناقش كتاب «قوة عقلك الباطن»، فهي لاتزال تجهل كيف نتغلب على خوف يسكن حنايانا!؟

لم يكن لندى وأختيّ مجال أصلاً للتعقيب من بعدي لأن سفانة تستهوي الكتب التي تخوض بنا إلى عالم كثيراً ما نجهله، تعجبني في خياراتها للكتب، تثريني شخصياً إلّا أنها أحياناً تُصيب ندى كثيراً من الملل حتى لو ارتضت واقتنعت أخيراً.

قالت سفانة: الخوف كارثة، كل شيء ينتهي قبل أن يبتدئ إن تعايشنا مع خوفنا بإتقان وإخلاص لا مثيل له.

وبعد صمت طويل كل واحدة منا جالت بفكر حلّقت به إلى سماء ذات أفق ضيق يختصّ بها فقط، سمعنا سفانة تقول وبصوت مرتفع جداً: قرأت مرة فيه: [إن الحب يُبعد الخوف..]، قيل إن الخوف هو

العدو الأعظم للإنسان، فالخوف هو السبب وراء الفشل والمرض وخلل العلاقات الإنسانية وملايين الناس يخافون من الماضي، المستقبل، الشيخوخة، والجنون والموت.

لكن الخوف ما هو إلّا فكرة في عقلك وهذا يعني أنك تخشى أفكارك.

أنهت سفانة سردها لما حفظته من ذاك الكتاب وتركت لدينا تساؤلات عديدة.

استكملتُ ما قالت سائلة: إذن لو فكرنا بما هو جميل هل لحياتنا خير يا سفانة؟ ها نحن كل يوم نحتضن حلماً جميلاً نغفو ونستيقظ به لكن لا شيء منه يكون، فأي حديث بكتابكِ هذا تريدين أن تقوليه... أخذت أشير بإصبعي إلى عقل يسكن رأسها (هنا عقل ذو منطق صعب التعايش مهما كنا أغبياء، فنحن ندرك أيضاً أن الحياة ليست فكرة وأمنية جميلة فقط، فكلنا نريد، لكن منها ما يكون ومنها لا يمكن أن يكون، حياتنا أقدار كُتبت علينا من رب العباد هو وحده المُتصرف، أتفهمين عليّ الآن؟).

ندى وريمان بصوت واحد: ايه والله أشوف يا فيلسوفة زمانك ردي!

وأكملت ندى مستغربة فيما لو كان الحب يبعد الخوف فعلاً: يا حلوات هناك شيء مهم كيف سيكون أول سطر أفحمتنا به ما دام الأغلب يخاف الحب، يهرب منه، ويمتهن لعبة التناقض لكل شعور

سليم، مثلاً في حين ما هو يُحب لكن يتمنى لو أنه يكره. «بالمناسبة نحن خرافة في واقع صعب نجعل السهل صعباً والعكس بالضبط» ترى ما الذي سنفعله بأنفسنا بعد؟

سفانة لم تكن بالهينة وليست أيضاً ممّن يستسهل اهتزاز أفكارها برغم أنني أختلف معها إلّا أنني أحبذ طريقة تفكيرها، إذ قلما تكون فتاة بعقليتها تلك، فهي صاحبة فكر ولو أنه ذو حشو أحياناً، مملة إلّا أنها نيرة ورائعة.

قالت لي بثقة: ونعم بالله، صحيح لكن أيضاً الرب عندما أوجدنا وضع لنا مسارات عديدة نستطيع الاختيار منها، كل الدروب متاحة وحسب مبادئ وقناعات الشخص يكون كل شيء، أنا أؤمن بأن الفكرة أساس كل شيء لأنني أيضاً أحب الحياة التي تُعاش وليس الممات في الحياة، ثم استدارت نحوي بأكملها وقالت : كلامك صحيح لكنه لا يسمح بالتعايش، غَيِّري طريقة تفكيرك، فقط تفائلي بكل شيء.

جزم كل الصبايا أن سفانة يومها كانت مقنعة في كلّ ما تقوله رغم أننا ندرك أنها أحياناً تضع نفسها في مواقف تقلب عبرها موازين الثقة باعتبارها راكزة وناضجة!

بعد أحاديث عديدة تناولناها، قررنا أن ننهي يوماً كان أشبه بيوم عيد خاص بالصداقة، أعيادنا لم تكن بثلاثة، صحيح لكنني معهن وجدت عيداً ثالثاً، لست أدري لمَ أخشى يوماً حياتي من دونهن، صديقتاي كل واحدة منهما بشأن يجعلني بهما أملك أكثر من سعادة العشاق.

..(5)..

ليته ابن عمي!!

وعذلت أهل العشق حتى ذقته

فعجبتُ كيف يموت من لا يعشق(*)

سفانة.. حكايتها مثيرة، أشعر وكأنها بتفاصيلها الولايات المتحدة تعاني من كونها كانت أو خوفاً من أن تكون. منذ البداية..[مرحبا سفانة، أنا شخص يدعى فواز كنت ولا أزال أطرب بالثرثرة التي تسرد تفاصيل صغيرة عنك إلى أن عشقتك إلى حد الجنون، كل المُنى فيما لو تركتِ لي فرصة حتى أُعرفك عليّ جيداً، ومن ثم أطلبك لي عروساً، لستِ مضطرة للرد، فقط اقبلي رسائلي وكوني مطمئنة فأنا أحبك جداً ولا نية لي في إيذائك].

ومن هو أنت!؟ لا أدري كيف لأشخاص يروقُ لهم أن يقحموا أنفسهم في قلب حياتنا وكأننا مجبرون على استقبال كل ما هو مجنون!؟

(*) المتنبي.

تجاهلت سفانة الرد عليه، لكنني معها، انشغلنا بأفكار عديدة فأول ما كنا فيه من هو، وكيف يعرفها ومن أين أتى؟

أشياء كثيرة نجهلها في مجهولنا العبقري، فحينها كان الفضول يسيطر على جُلّ أفعالنا، كل فكرة لشأن استكشاف مثير لرجل أقحم نفسه في حياة سفانة.

كانت تقف أمامي مباشرة بطولها الفارع وخصرها الرشيق، وكأنها تتمايل على غصن رهيف تخشى الوقوع منه، تتلعثم كثيراً حينما تتخيل فيما لو كان الذي يحدث حقيقة وهو فعلاً حب، كانت تقول وهي تحتضن هاتفها: «ممكن يكون صادق؟ هذا مين بيلسان أخاف يحبني صدق؟».

ابتسمتُ قائلة: أتخافين الحبَّ أم هو؟

أجابتني بتكرار السؤال ذاته وتابعت قولها لي: إن خفت الحب فأظنني أخافه أيضاً ربما يكون هو الحب! وضعت يدي على قلبي وقلت، راجية في نفسي وكأنني استوعبت ما خشيت نسيانه، وهو دعاء ورطت به نفسي فلا ينتهي يومي دون ذكره: يارب أسألك أن تحفظ لي مجنوناً أسكنته أعماقي، آه يا سفانة خافي الحب أرجوك لا تقعي فيه مثلما وقعت.

كنت قد هذيت بتوصيات تمنيت أنني أصرخ بها لسفانة وغيرها من الإناث، لكنها كسرت لي أمنياتي وقالت: بيلسان ماذا ترين أنتِ؟

وماذا لي أن أقول أكثر مما تمنيت يا صديقتي: سفانة قرأت مرة أنه حينما تخشى الحب فهذا دليل على أنك أحببت!

صرخت بي قائلة : بيلسان كفاكِ جنوناً كيف لي أن أحبه وأنا لا أعرفه!؟ ثم ذاك المجنون يظنني سهلة حتى أقع في حبه، أتمنى حقاً فيما لو رأيته للكمته بصفعة قوية تجعله يستيقظ من جُل أوهامه وأحلامه السخيفة!

-هدئي من روعك يا حبيبتي، هذا مجرد جنون إن كنت لا ترغبين به تجاهليه فقط، لكن كوني على استعداد، لأنه أوضح لك في رسالته أنه سيستمر وهذه ليست الرسالة الأولى والأخيرة، ثم إنه لا ينتظر منك أي تجاوب على الأقل الآن!

نظرت إليَّ نظرة خائفة وهمست تخالف كل ما هو ظاهر عليها: صدقيني سأكون قوية ولن أستسلم له.

كانت تظن أنها ستكون قوية أكثر من اللازم، حسبت نفسها أنثى من فولاذ لم تدرك بعد أن الحب كالموت يغير كل شيء.

أذكر حينها أنني تركتها تنكمش بقوة تتناساها الآن ولم أقل غير: الله كريم يا سفانة الله كريم.

لكننا الآن وصلنا مع هذا الفواز إلى خمس سنوات، ولم أرَ أيّ صورة من ماضٍ فيما لو ذكرناه قد يقتل كل الحاضر! كل عقدة قد تنفك يوماً إلا عقدة سفانة وفواز!

فواز الفتى الأسمر أو بعبارة أوضح «فواز الصلب» بلا أصل وبلا قبيلة وقد يراه الآخرون بلا لون! عهدنا عن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم في قوله : (إذا أتاكم مَن ترضون دينَه وخُلُقَه فزوجوه)، لكنني إلى الآن أجهل سبب رفض فواز!

..(6)..

ومنه صُرت بروحين..

حلمٌ حسبته حقيقة، رأيته في منامي وليتني منه لم أستفق، أهداني الرب رؤياه فحظيت بحضن دافئ كان من المحال أن يكون لي في أرض الواقع، فكم عشقت ذلك الحلم وطالما نمت حتى أسترجع تفاصيل أحببتها فيه.

فزعت من نومي وكأنني كنت أعتقل لحظة ذل في حال نسجته السيدة (غادة السمان).

لكن بالرغم من أنني لست من النوع الذي يختزن ويحفظ سطوراً كثيرة، فلست أدري لمَ أتقنت حفظ تلك الأسطر وكأنني أنا من كتبها؟!

آه يا فياض لأجلك فقط سأكون فيما لم أكن به قط، فأنت الذي له أقول:

أحــــــبــــــك، كــــمـــــا أنــــت
أفـــتــــقــــدك، كــــمـــــا أنــــت
أقــــبــــلـــك كــــمـــــا أنــــت
فــلــيــنــفــجــر الــقــلـــب بــلــحــظــة

اعــــــتــــــراف: تـــعــــال لاأزال
أحــــــــــــــــــبـــــــــــــــــك
أكـــــره كـــل مـــا فـيـك وأحــبــك .

لقد علمت أن تعلقات الرؤيا ثبت منها (تعلقها بالروح) في كتاب «رموز المنام» للقدير عبدالله العتَـيِّق، كان قد فسر بأن الروح تفارق الجسد في النوم وتغادره، فتنتقل في الكون، فلا يحكمها زمان أو مكان.

منذ ابتعدنا وأنا بين أحلام توقظني به وكأنني معه لم أنتهِ، لا أدري لمَ في حلمي ذاك على أننا كنا كحبيبين لم ولن يفترقا أبداً، بات لي فياض منهكاً مسودَّاً تماماً كقمر غابت شمس تضيئه، شعرت حينما استيقظت بأنه بحال سيء، خشيت الكثير، خفت طفلاً قاساه الدهر، اشتقت رجلاً جعلته لي حبيباً، وافتقدت حبيباً كان لي كل الحياة، وقبلت بحياة أصبحت لي كل العناء، آه يا فياض فقط لو تعلم.

كيف لي أن أتمالك صبري وأنا لا يمكنني وقفَ اشتياق قلبي إليك، ففي كل دقيقة أحبك مئة عام.

أظنني عندما أحببتك لم أعد أنثى عادية قطّ، فلم تلزمني أعوام مديدة حتى أصاب بداء عشقك، فليتك تعلم ها أنا بك مريضة فلا شيء في محيطي كان يُقَدَّم إلّا أنه لا يمكن أن أنساك.

[الأيام.. هي الأخرى لست أفهم بعد ما الذي تريده مني.. فهي كعادتها تمارس معي عادة سيئة، تُثير لديّ إفراط الشعور فأهواك وأنسى

عناء هواك وإليك لاأزال أشتاق]، أَممكن أنها تحقق لي أمنية دعوت بها على قلبي!؟

أذكر أنني ذات يوم منها صحت باكية «يارب احفظه بقلبي ولا تجعل لي به نسياناً يوماً من الأيام».

كم كنت حينها ثملة بك، أدمنتك إلى حد لا يتجاوز نسيانك، أسكرتني بغيابك وكأنك تطوقني عن غيرك فإما لك أكون وإما أبداً لا أكون، أتعجب أنا أيضاً إلى أي حد أدمنتك؟ وإلى أي حد أنت تجهلني!؟

❋

ليتك تُسعفني وبقلبك تحتضنني، فأنا لاأزال أجهل كيف تجعلني أغرق بك! فبربك أجبني: أيُعقل أنني أحببتك إلى حدٍّ أهلكني!؟ قل لي: أمغلوب على أمري!؟ فكأنني عن بعد أسير دون تحكّم، ولست أكترث لأي شعور يختص بغيرك.. مُنتسبة أنا إلى أرقى وأعظم صفوف العشق، كل موسم أختمه بإخفاق أرسب بفصول العقل وأتأمل أعوام جنون، فلأن القلب لا يتقن دروس الحياة كنت [أماً ناقصة!].

أماً لم تُجِد الاحتفاظ بنطفة في أحشائها.

أماً لم تدرك بعد أن روحاً سكنتها وعليها عاشت.

أَقتلت أطفالي أم أنني كنت عاقراً لا أكثر!؟

ليتني أنسى طفلاً تبنيته بأحشائي أُجهض بعد غياب قاده سيدي

بجفاء وعناء انتظاره ووحشة اشتياقه وكأن ما كان، إلّا بروازاً لكل ذكرى كانت بروح غياب!

أَقاتل أنت!؟

أجهضتني طفلاً كسرني بعد فقده، أَمجرم أنت!؟

آه يا حبيبي أجرمت بحق صغار لم يولدوا بعد!

تعرف؟ لطالما شعرت أنني أحببت لي سُلطات عليا تفني كل شيء دونما اهتمام لأرواح قد حلقت دونما هبوط! فلست رجلاً شأنه كحال اعتياد البشر، فليتك تعطيني فرصة، فأنا كثيراً ما اشتهي لأكرهك قليلاً.. هي لثوانٍ فقط أكرهك فيها، لعلّي أجد قليلاً من التفاني في السعادة بلاك، قليلاً من استتباب الأمن بلاك، قليلاً من كثير الراحة من بعد عناك!

***

نشتاق حتى لو كنا بالقرب فكيف بنا ونحن نعاني البعاد!؟ لذلك لمْ أستطع الثبات أكثر، احتضنت هاتفي وكتبت إليه رسالة علها تغمرني به من جديد..

[أخشى أن أكون قد خسرتك يا حبيب، قل لي أممكن أن تكون النهاية دون أن أنتهي منك! فليتك تعلم حقاً، فأنا أحسدك أحياناً لأنك تصبح هادئاً إلى حد قاصف وفي وقت لاذع، وجداً، ما الذي يدور في رأسك يا رجل، أمنحني الأمان واغمرني بشمس عفوك فأنا أحبك إلى حد الهلاك].

صمدت منتظرة أياماً لم أتلقَّ أي جواب، فقط ازدادت المعاناة معاناة، لم أكترث لشأن حياتي حينها، كنت كسولة أبغض كل شيء من حولي كثيرة الضجر، عديمة الشعور والتعايش بكل ما قد يجعلني أبتهج وأحظى بقليل عيش كان لي من ضمن الحياة، لا أدري لمَ شعرت بأن حياتي قد انتهت وأن كل ما بي قد هلك، ولم أفهم بعد سر تمسكي بفياض، لا عقلي ولا قلبي يقبل بغير ذاك، ذاك الرجل المتشبث بأحلامي والبعيد كل البعد عن واقع حياتي، غريب حالي لم أملّ انتظاره يوماً، ولم أيأس هيامه يوماً، وأخشى أن لا أنسى عشقه أعواماً، ففي كل أمنية لي كتبته على رأس صفحاتها.

«ليتني أفقد كل الشعور إلّا شعوري به!».

***

أحببت لي رجلاً فظاً بينما أنا أتفانى في هواه لا يحسن إلّا الجفاء!

فياض بربك أين أنت!؟

ألا تسمعني حبيبي، بت تخنقني بعشق لا أظنه يموت!

لمَ تجعلني بقدر ما أشتاقك أكره نفسي؟

لمَ تجعلني أشعر وكأنني ساذجة وأنا أهواك بكل ما أملك من قوة..!؟

يا حباً كان لي نبض حياة

ها أنت تجعلني بدونك بلا حياة

وهبتك روحي وسلبتني حياتي

ميتة أنا بدونك وكأنك تكتم أنفاسي
لأكثر من مرة أشعر بأن كل حلم عشته
لم يكن إلّا أنت
فقط أنت!

ليتني بمجرد ما ينتهي يومي وأنكمش بفراشي، متثاقلة عيناي نوماً، كطفلة ذبلت بأغصان رجل أشواكه كانت هي لنزف كل أوجاعها سبباً قد زال كل شيء، أخشى بي يوماً أحتاج نسياناً كبيراً ينهي لي حباً عظيماً وجدتني به أضيع!

***

هذيان أو حتى صراع، كل ما في الأمر أنني متُ فيه وحييت على يديه، لست أدري إلّا أنه ظاهرٌ بي، يفضح كل أسراري ويختزن كل طاقتي في التحليق بسماء عشقه، وبين أمطار تروي قلباً غدت صحاريه بساتين تفوح بعبق أنفاس هواه، وكأنها لي هي حياة.

وبين حمرة تكسو وجنتي حينما أظفر بطيف حضوره، فخجولة أنا بين أحياء كثيرة من حولي، معه كل المنى عالم لا يحوي سواي معه.

ليتني بالحب أغني بصوت ترقص عليه خلايا تسكن جسد العاشقين، وليتني بعشقه أسقي كل المجانين بعقل لا يعرف إلّا أن الحب يقتل الكثير، طرقات كثيرة تقودني إليه وكأن الدروب تتمايل حتى توصلني إلى عتبات قلب رجل أدماه الوجع بغيري.

آه من هوى يشعل الفؤاد ناراً لا تنطفئ إلّا وهي قد أنهت كل التفاصيل، وبه أدركت بأن رماد التفاصيل أحياناً هو الإرث الأغلى ثمناً.

كانت الساعة السادسة مساء يوم السبت بداية لأسبوع كامل جاء بعد رسالة تركتها في قلب فياض على أمل أن يعود.

..(7)..

لن تملّني أبداً

فأنا الماء الذي تطلبه عند عطشك

وأنا قارب النجاة الذي تنتظره في غرقك

فلن تبرح بعيداً عن حيطان هواي

ولن تملّني أبداً(*)

وكأنه يقولها لي...

آه يا فياض تركت لي جواباً أدركت بعده أنني بك لا يمكن إلّا أن أكون ميتة.

متُّ فيك كما لو أنني زاهدة في الحياة عن كل شيء فليس منها ما يستحق غيرك...

[بيلسان أتُحبينني حقاً!؟].

كان يُفترض أن لا أعقب بعد سؤال تمنيته يثير بي جملة من القرارات التي تجعلني أكثر غضباً، أعتزم به نهاية أنفاسي من أوكسجين

(*) «نبض شعر استرقته من قصاصات ورق خالد الجود».

كنت أنت سر سحر جاذبيته في الهواء، لكنني سريعاً ما تناسيت كل شيء وتذكرتك حينها، ولست أعلم كم من مرة سأذكرك وأنساني!؟

أجبتك بمثل سؤالك، قلت لك [أحبك جداً يا قاسي] فقط، ولأول مرة أكتب فيها دونما تقرأ، وأنت الذي طالما دعوتك تقرأ وكأنك تراني!!

مُكْرَهٌ أخاك لا بطل.. يعيش الحياة كأنها حياة يُكابد بروح حلقت بأوجاع وآهات تكاد أن تنسف به العمر كأنما العاجز الساكن بلا حياة..

مُكْرَهٌ أخاك لا بطل.. حينما يتوسد ذكريات تزفر منها حماقات أعوام باتت للحاضر صوراً وواقعاً لا محال..

مُكْرَهٌ أخاك لا بطل.. بحاله يعزف أشواقاً بترانيم عشق مبتور لحبيب يجهل المكنون.

فياض..

قلقة أنا فيما لو كنت من الآن سأحظى بسعادة مع رجل غيرك، تخيلتني أحتضن حُباً يجعلني بدونك أتنفس، وزفرت لفكرة لو أنني به كنت فقدت الوعي إثر نقص من أوكسجين خنته بالشهيق لغيرك.

حبيبي

فلو كنتُ يوماً حقاً لغيرك تُرى من هي سيدتك من بعدي؟

أَستكون مثلي تفضحها ليراك كل كونها بظاهرها!؟

آه يا عمري، لا أظن لأنني أيقنت بأنه: لا يحظى رجلٌ إلّا بأنثى واحدة تجعل منه رجلاً ليس كبقية الرجال.

فأنت لم تكن رجلاً، كنت حياة خالية من الواقع، كنت طيفاً وقوس قزح بألوان داكنة بين سمرة وحمرة، أَكنت فقط سيداً لأحلام لا تموت!؟

هاتفتك على الفور بعد كل ما تركته لي في جوف رسالة مؤلمة جارحة يا فياض، كانت لي كالسهم القاتل والله، ألا تعلم حقاً أنني بك عاشقة ومتيمة، أَكل الذي بي منك ولك لا تراه، أَضرير عند امتلاء قلبي بك إلى حد يجعلك تستفهم بين حين وآخر!؟

أحبك والله أكثر من أي شيء.

أحبك أكثر من أن أرفع قلبي عن تدني تضحيات لا أظنها يوماً ستنجح.

أحبك بقدر ما آلمتني يا فياض.

أحبك أكثر بكثير من وجع غيابك.

كان صوتي يظهر قوياً بين جملة وأخرى وكأنه ينتحب من شدة البكاء، قاطعتني مهدئاً لي : كيف لك أن تغيبي عني كل هذه المدة؟. أنا الذي كنت بحاجتك أكثر وأنا الذي افتقدتك رغم كل شيء كان.

ولأول مرة لا أدعك تسترسل بغضب قد يكون قاصفاً بكوني أجبتك وأنا أحاول أن أهدئ نفسي: لكنك لمْ تعلم كيف يَتَّمَني غيابك.. فياض أقسم برب الكون أنني أحبك ولا حياة لي من دونك، ما كنت أجاهد لأنساك.

لأتعلم على الأقل أحبك لنفسي لا أن أحبك لك أنت، فقط

لروحي.. أحبك بهدوء تام، بجنون عاقل، أحبك بحياة لها كل الألوان، وأحبك لأنك الحب والنبض الذي به عشت يوماً، أَتستطيع استرداد قلبي!!؟ قلبي الذي بات ضريحاً للعشاق، قلبي الذي اعتصر أوجاعاً كثيرة من أنياب أسد لم ترحمه قطّ.

سمعتك حينها بصوت واضحٍ وكأنك شعرت أخيراً بي وما أحويه لك: أتظنينني أتلذذ بكل عذاب أنتِ تعيشينه؟ أو أنكِ حقاً تظنين بي سعادة وهناء عشتهما؟ لمْ أبتعد لأني أردت الرحيل، كل ما كان لأجلك أنتِ، وهي أنتِ من اختار الحل الأصعب على كلينا يا حبيبتي.

وأصبح بعدها حديثنا الأكثر وجعاً مبتوراً، زارتني أمي فجأة إلى غرفتي وكأنني أحتاج ضربة قاضية تنسف كل ما بي وأنتهي!

حمدت الرب كثيراً بأنك سمعت أمي وهي تنادي بي قبل أن تطلب الدخول إلى الغرفة : قلت لك فياض لا أستطيع الاستمرار سأهاتفك قريباً، وأجبتني: حسناً، حاولي أن لا تجعلي لأمك أن تفهم، وهدئي من روعك، سأنتظر مكالمتك وأنتِ أكثر راحة، بيلسان كل شيء سيكون على ما يرام.

أَتُصدق أنني ابتسمت وكأنني بها أملت خيراً كثيراً وتمتمت في أعماقي حينها: «يارب لا تحرمني وجوده بحياتي».

وأجبتك بطريقة هادئة فعلاً، وكأنك تمتص كل غضبي وتنسيني كل العناء الذي كان: طيب في أمان الله.

***

هممت لأفتح الباب لأمي التي كانت تحدثني بحماس قبل أن أفتح: بيلسان خالك بشار هاتفني قبل قليل وأخبرني بأنه قادم إلينا غداً على وجبة الغداء.

فتحت وأنا أخاطبها بصوت عال حتى لا تكتشف ما علق بصوتي من جراحك: جيد يا أمي اشتقته كثيراً والله.

وبعدما تقابلنا ضممتها وقبلتها وكأنني أتعمد أن لا تراني ثم أخذت بيدها وذهبت بها إلى أُختيّ، جاهدت كثيراً حتى أقنع نفسي أنني لست إلّا بحال جيدة، وجداً، صنعت حينها جلسة عائلية ودودة ورائعة كثيراً، استمعنا لأحلام أُختيّ وثرثرنا كثيراً عن طفولة كل منا، ذاك الحديث الذي لا أظننا يوماً سنمله.

..(8)..

أحقاً بداية الحب نهاية العقل!؟

التقيتُ بندى على طلب استعجلتني به دون أن أفهم لمَ، تواعدنا في مقهى يقطن الحي الذي نسكنه، دلفتُ إليه منتظرة جديداً أخشى أن يفتك بي كل القديم، فندى هي الأخرى جيدة في ابتكار تعايش أكثر جدلاً لغرابته ولجنونه، مضت ربع ساعة وأنا لاأزال أنتظر إشراقها عليّ، إلى أن أتتني محملة بصواعق كادت تقصف بنا إلى الهاوية! جلست وهي تكاد أن تلد لي هموماً إثر أمومة مغتصبة، دعوتها أن تلقي أنفاس الراحة أولاً، ولا تخشى شيئاً، فأنا أصغي إليها كما لو أنها ستغني وتراقص أوجاعي معها: احكي يا ندى أنا أسمع.

وبدأت من النهاية: تقدم لخطبتي حُسام وأنا رفضت.

استغربت رفضها وهي التي قضت سنوات طويلة تنتظر هذا اليوم.. استرسلت تسرد تفاصيلها :شعرت أن سعادتي معه مستحيلة، لست متأكدة من أنني سأتمكن من إسعاده، أخشى يوماً لا نكون به معاً، أتفهمين عليّ يابيلسان؟ أنا أخاف الفقد ومتأكدة بأنني لو كنت معه حقاً

سينتهي ذاك الحب، صدقيني كنت قد قرأت حكاية بين عاشقين تم ارتباطهما وفشلا، لم يدم ذاك الحب، وأنا بحسام لا أريد أن أنتهي.

كانت تتكلم ولها وقفات يأخذ البكاء فيها دوره في فصل الحكاية، لكنني حينها لأول مرة أرى من ندى كل هذا العشق، ولأول مرة أشعر بأنني معها نتشابه إلى حد وافق شن طبقه!

فعلمت أننا بالحب لا نعقل وبالعقل لا نحب، قد قيل: أعقل ما في الحب جنونه!

بعدما سمعت ما تسرد تفاصيله شعرت بأن معدتي تؤلمني وكأنني سأتقيأ حُباً.

أصغوا إليّ جيداً يا إناث:

أحببت رجلاً كان يظن أنّ الحب لا يعني إلزام احتوائه حتى بمرضه! كل فكره بأن حزنه وألمه لا يعنيان سواه، فهل يظن عذابي به لا يكون إلّا حينما يمرض!؟ متناسياً أن في شوق انتظاره عذاباً أكبر، ولمْ يدرك أنني أحببته بكل ما فيه، روحه وفكره وجنونه وحتى جفاءه، نسي بأن الحب يخلط الأمور ويلتهم أدق تفاصيل لم تكن يوماً لدى المحبوب!

فالحب لا يعني ملازمة بحالة دون أخرى، فأنا لم أحبك أكثر إلّا وأنت مُتعب! مرضك هو الوحيد الذي يجعلني بك أموت عشقاً، ذاك اللئيم هو القادر على أن يستنفر بي طاقات الحب المكتنزة في داخلي ليفضحها خوفاً عليك، وقتها فقط تمنيتني أنا المريضة ولست أنت،

وبذاك الوقت دعوت الرب بأن يُسكنني آلامك وكل أوجاعك، بدلاً منك كما لو كنت أنا موطن سواد سيحتضن مدينتك يوماً ما، ولوهلة شعرت بما لو كنت أنا سحابة عشق تمطر عليك حُباً تغرقك بي ولا تنجو أبداً، أحببتك بتلك الأنانية وكأنك بغيري قد تقتلني حية!

أو ربما أحببتك إلى حد أنني نسيت بأن لا طاقة لي حتى أحتمي بكل ما فيك هماً، فكتبت إليك خوفي بألم كبير وأمنية تجعلني أكثر غرقاً بك: «فيني ولا فيك»، ولا أدري حقيقة أن: بعض الرجال يجهل بمَ كنا به أغبياء، فلا يستوعب كيف لنا أن نحبهم بكل الصور.

***

أشياء كثيرة تغمرني ولا أظهر إلّا بكومة تساؤلات لا تحتمل أي أجوبة، لكنني كثيراً ما أبكي وأعتصر حياة كنت بها معك، لطالما حسبتني أحتاجك أكثر مما تحتاجني، أخطأت مع روحي عندما ألزمتها بحاجتها إليك، فأنا وهي نحتاج إلى نفسي، ذاتي تلك التي أنسيتني إياها، أحتاج أن أحبها أكثر مما أحببتك، أحتاج أن أدللها مثلما دللتك، أحتاج أن أعتني بها بدلاً من أن أنتظرك، أحتاج أن أرحمها بعدما قسوت أنت عليها، أحتاج أن أرممها بعدما حطمناها معاً، أحتاج أن أتباخل عليك أكثر وأعطيها، لطالما كنت بخيلاً عليها حتى بقليل إحسان وبعض إكرام، أولم تكن روحاً تستحق إنصافاً يجعلها بك تعيش؟!

لمَ قسوت عليها وهي لم تعش إلّا لك وبك؟!

لمَ عذبتها وهي لا راحة لها إلّا معك؟

كنت مذنباً بكل شيء معها، ما من مرة أسقيتها حباً كما أروتك

دائماً، ليتها تذاكت قليلاً بنصف كأس منك، ومنها على الأقل نالت نصف عيش كانت تحلم به ذات يوم، فقط لو تدري عندما كتبت قرأني الكثير من بعدك، تهجأتني قلوب كثيرة إلّا قلبك، وزارني حب غفير من قلوب جنت بي رغم أنها تدرك أنني بك ميتة، وما من شعور أبشع حينما يقرأني الجميع ويُرثي حالي ويلطف بي إلا أنت..

تركتني أتقيأ وجعك على سطور المارين نحوي دونما أن أكترث لأي حال سأوصف به وما من حال أعظم من أن أكون «عاشقة بلهاء».

فأي أنثى تلك التي تُحيط حروفها روايات لرجل أمّيّ، صامد في وجه الحياة وكأنما يلفظ الحُبّ ويعانق آلافاً من أميال الغياب المُثقلة بالكبرياء، أو هي فقط النرجسية التي تصنعها بعض الإناث أمثالي في رجالهن الأغبياء، فربما كانت مشكلتي بأني أكتبك كثيراً فنسيت بأنك تهجأتني بلا، فلفظتني خارج مُحيطك.

آه يا فيّاض، كنت بك أنثى عنيدة، أقاتل هواك فأموت لغير سواك، ولمْ أفهم حينها أنك كنت تمضي بحال قوة أثبتتها جاذبية نيوتن (لكل فعل ردة فعل مساوية في المقدار ومعاكسة في الاتجاه)، فبقدر ما أعطيتك جافيتني بصدود ونكران، وبقدر ما استمتعت بي أتعذب بك إلى الآن.

فيّاض أنا أحبك، صحيح، لكن في الوضع ذاته غير صحيح، قل لي الآن: أحروفي كانت تبوح بالكثير، لكن لمَ لمْ تقرأ كما قرأني الكثير!؟

أَأنت من يخشاني!؟

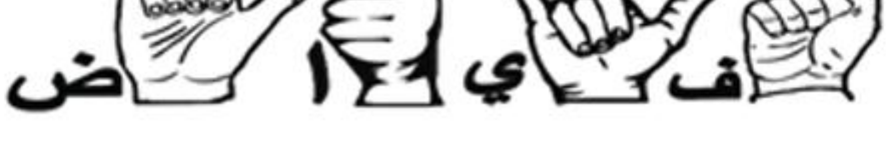
حبيبي صدقني، فوالله لم أكتب إلّا لك، ولن يكون هناك أي حب يسكن أحشائي، كما لو كان طفلاً يكبر أعواماً ولا يولد، يشيخ في جوفي ولا يموت أبداً.

كُن متأكداً، يجهل قرائي أنني بك أتقنت لغة الحب أكثر من أي شيء، وبك تفننت بوجع له ألوان وردية، فقط اقرأني وكأنك لا تعرفني، كُن من ضمن قرائي، من حشد جمهور جنّوا بعشقي بك، ومن أساطير حكايات كنت أنت سيدها، آه من سطور بدأتها بك ولم أستطع ختمها حتى الآن، فأي مجلد سأصنع لك؟

أَتظنني بك مجنونة؟

كتبتك كثيراً وأخشى أن أظل أكتب ولا تقرأني، كتبتك حتى بحروف لم تُخلق في قاموس لغات العالم، نسخت لك خطوطاً من ثوران عشقي حبراً كما البركان يفتك كل الفصول، دونته على ورقة كانت من صفائح دمي.

لكن قل لي: أتذكر حينما أهديتك اسمك بلغة الإشارة، على ورقة بيضاء كأنها السماء، وحروفك هي طيور الحب في كوني؟



لو تعلم، فأنا حينها لم أتقن تعلم اسمي بمثل تلك اللغة كما أتقنتها باسمك، شعرت أنها لغة خاصة باسمك فقط ولا يجوز لي أبداً اختراقها، ولأنني بك مغرمة أحببت حينها أن تتعلم شيئاً مني عن جديد قد تعشق به اسمك، وكأنني أثبت جنوني بك أكثر أو ربما احتجت منك تباهياً بعشقي لك أكثر من أي شيء!

فأي حب صنعته أنت؟

لمْ أستوعب بعد كيف لك أن تثير فيَّ كل الجنون، رُد لي عقلي يا أسدي، واعطني يوماً أختزن أفكاراً جديدة قد تُعجبك يوم أعدها لك.

أحتاج عقلي أَزِن به قلبي معك.

أحتاج قسوة تجعلني عنك أبتعد قليلاً.

أحتاج صبراً وعمراً آخر أحبك به.

معك لن يكفيني عمر واحد.

إن كنت تتجول في أعماقي كما لو كنت بين أملاكك، سأحتاج كثيراً من الحياة لأجلك فقط، فهل يا ترى تقتنع بأنني تفانيت معك حتى أرخصت أنا نفسي، ولمْ أفهم بعد لمَ أشعر بأنني لن أكون ثمينة إلّا معك!

أَغبية أنا بعشقي لك!؟

أَساذجة أنا إلى حد أنني لا أطيق فكرة نسيانك!؟

يا حب عذبني.. أحتاجك بما يفوق الاحتياج، أحتاج قليلاً من

كثير الحاجة إلى روحي، فبربك أي حُبّ أعيشه بك، أتساءل كيف لي أن أغرق في بحر ميت من كل شيء!؟

لو أنك تعلم أن كل ما أخشاه أن أقضي عمري بالتمني، فويلٌ للمنى لأني بها أتمناك وكأن الحياة وعيشها هو أنت، ياه يا فياض، أظنني أنثى مريضة بك وكفى.

ولأني لا أدعو إلا لك إسمح لي هذة المرة، سأدعو لنفسي فقط: «ربي لا تجعلني لمن لا يستحقني أبداً».

..(9)..

نقطة تحوّل

كُنت متأكدة من أنه لا يوم يمضي من دون أثر، لا يوم سيكون كأنه يومٌ لم يكن في شأن عمر نقضيه حياة، نعيش أيامنا بكل ما تجول به أنفسنا أحياناً كثيرة، وننسى شأن الحياة وحاجة التعايش في كل ثانية تركناها تمضي من دون جدوى!

لا أحد يعتنق حزناً من دون فرح، ولا شأن للحياة إلّا في حضن يضم متضادين كما لو كانا لزاماً على بعض!

ثمة أمور تعلق بنا ولا نستطيع التخلص منها إلّا بأكبر خسائر.

مثلما كنت في عملي أتنقل بين حياة الآخرين مستصغرة همومي همّاً ومشكلاتي مشكلة!

شيء واحد أتقنت استيعابه في عملي أن القناعة كنز لا يفنى!

أَهي نعمة ممكنٌ ألا أشعر بها إلّا حينما أفقدها!؟

ومن الغباء جداً أن أفتقد لذة تعايش تفاصيلي وكأنها لا تحوي إلّا فصلاً واحداً قد ينتشلني من شيء إلى لا شيء!

كوني أخصائية اجتماعية أتقنت لعبة الأحاسيس على حبر وورق، ووجدت في مهنتها فهم كيف يكون الهروب المقيد!

هل لأنه لم يكن في قلب مهنتي ولا من محيطي (علاقات تشملني من ضمن الحياة بهم ومعهم، ممكن أن أكون بغير بيلسان المتعرية بحقائق تفضحها بين الحين والآخر!).

لطالما ظننت استحالة أن تعصى أي مشكلة قد تزهو بتخطيها نحو أي طرف من كياني.

لكنني كثيراً ما فشلت في سلسلة متشابكة مثل أي مخلوق طبيعي يتعايش مع دنيا فيها كل الأصناف من كثير التضاد، وربما قد تخنقني يوماً!

ولعلّي بعد تراكم مصائب بعض البشر ترعرعت قريحة الكتابة لديّ على بيئة ثقيلة أهدتني رواية وقراء ينتظرون سطوراً تعكس واقعية عيشهم، مثلما تميزت في مقالات وخواطر متقنة ما بين جوانب عديدة أحبها قرائي، جعلت مني أتخطى المرحلة الأعظم وهي كتابة رواية تجمعني بحقيقة نفسي ومن حولي، فيارب لا تجعلني مع حروفي أعانق أي خذلان.

صديقاتي أظنهنّ أكثر المستفيدات من عملي، وأعتقد أنهنّ سرّ تألقي في مهنتي وهوايتي، أما عملي فقد يكون هو السر الأعظم لأهم أسباب فشلي في أهم علاقاتي!

لطالما جعلن مني المستمع والمستشار الأول في كل ما يستجد عليهنّ من أمور عديدة في شتى الجوانب، وكثيراً ما أظن أنه قد يكون هذا لأنني صديقتهنّ فقط!؟ فلأنني أرى كثيرين من أفراد المجتمع يخشون الإفصاح عند المختصين لأي جانب قد يمتلك الحل الأنسب بعد الله، لست أفهم ذلك الخوف العظيم الذي يعتري أي معتل نفسياً في أرجاء العيادة النفسية بينما يكون قد جعل الصغيرة كبيرة عند أول البوح بها، ولشخص غير مؤهلٍ لاحتوائه أو حتى استنجاده.

وكأنني أرى وأسمع أحدكم يقول أين القرآن الكريم أرقى أدب يمتع الخَلق بخُلق جميل؟

وكيف لو احتضنت كل سطر منه بصلاة خاشعة قد تُرسي الكيان بمرسى أمان وراحة بال؟

وكأنني نسيت أنّ أفضل مجيب وأكرم معين هو الله.

وهل لي أن أعترض!؟

لا، طبعاً، لكن هذا جانب روحاني أظنه من وجهة نظري واجب نفسي نلتزمه على أرواحنا، كي تعيش بنعيم رضا وراحة لا يمكن أن تكون بغيرها، فما أعنيه لا يلغي أهمية التقرب من الله بالتضرع إليه بأي حال يكون بين العبد وربه، لكن أيضاً أؤمن بحاجاتنا لعلم وفلسفات تحليلية ستصنع منا أفراداً أسوياء ولو بعض الشيء، فلم يكُن الكمال إلّا لوجه سبحانه.

***

سر الأحلام أنها شيء قد يكون محالاً، ومشكلة الواقع كونه حقيقة، ولو كانت كل الأحلام حقيقة لظننا أنها بشعة، فقط لأننا بشر نهوى الحزن ونتعلق بكل بعيد وضعناه نحن مُحالاً.

لطالما تعاليت بصوت قد يخرق طبلة أذني، كنت أتعمد التغني بصوت مزعج كما لو كان كابوساً: لا تحلم، كُنْ واقعاً، لأن الأحلام أحياناً تجعلنا تعساء فيما لو استيقظنا.

كنت أظن أنني فعلاً قد سعيت لأن أغيب عن كل عالم ينتشلني مما أنا عليه إليه فقط، لكنني لم أفلح إلّا بالاحتفاظ بأدق التفاصيل حتى وأنا بأشد الحاجة للتخلي عن كل شيء، جنون هو أو مجرد إفراط بتعايش اعتدناه، لا أدري كيف لي أن أخلق مني وجهاً آخر لا يشبهني سوى أنه أنا!؟

فمن بعد تعدد السطور التي ملأتني، أسماء وعناوين تقف لها صيحات الكثيرين، كان لي بعد اجتهاد بعض المعجبين أن أدشّن صفحة خاصة بمقالاتي ومقتطفات من خواطري عبر الفيس بوك، جمعتني بفكر متفاوت بين المتصفحين لتلك الصفحة، رأيت العجب، فكثيرون منهم من استعانوا بي بعرض مشكلاتهم، ومنهم من تجول بين نقدي كما لو كنت كافرة تجاهر بعصيان، «عقليات البشر لا يمكن أن تحصر بفكرة مني أو بالقليل من غيري»، وهناك الصنف الأكثر جنوناً من جن بي كعاشقة أجادت فن الكتابة لحبيبها، وبين الحين والآخر

يستغل فرصة التعبير بحماقته ويبعث لي بعض الرسائل التي تثير بي كل الغضب والاشمئزاز، كأن يكتب لي: أحببتك وأحبك، أنتِ لي، أو حتى أنه يعانق السماء حينما يقرأ لي وكأنني في كل ما كتبت قصدته هو وليس غيره! وبهم تمنيت لو أنني لم أكتب يوماً ولا أدري هل سئمتهم فقط لأن كل ما عنيته يوماً لمْ يُفهم.

ماذا لو أن فياضاً قرأ بعض القليل من تلك الرسائل مثلما ناجيته في فصول البداية!؟

تُرى هل سيشعر بأن غيره سبقه بالكثير رغم أنهم لم ينالوا أي تعظيم سوى أنهم حمقى ومجانين؟

ولا أدري هل نعتهم بذلك لأنني لم ولن أريد غيره بأن يفهم!؟

كثيراً ما أوقفتني قصيدة لنزار قباني تمنيتني يوماً أستجمع قواي وأكتبها له، لعله لو قرأها مع حشد قرائي يفهم هو، ويتغنى بنا أجمع العالم كما لو كنت به أميرة في مملكة عشقه، قصيدة لطالما تمتمت بها بيني وبين نفسي حينما يُغشى عليّ حزناً وهماً على حالي معه! كنت أتلون بتفاصيلي معه وكأنني أعيشه في لحظة قلتها له وهو ينصت:

متى ستعرف كم أهواك يا رجلاً ... أبيع من أجله الدنيا وما فيها
يا من تحديت في حبي له مدناً ... بحالها وسأمضي في تحديها
لو تطلب البحر في عينيك أسكبه ... أو تطلب الشمس في كفيك أرميها
أنا أحبك فوق الغيم أكتبها ... وللعصافير والأشجار أحكيها
أنا أحبك فوق الماء أنقشها ... وللعناقيد والأقداح أسقيها

أنـا أحبك يـا سيفـاً أسال دمي   يـا قصة لست أدري مـا أسميها
أنـا أحبك حاول أن تسـاعدني   فإن من بـدأ المأساة ينهيهـا
وإن من فتح الأبـواب يغلقهـا   وإن من أشعل النيـران يطفيهـا

يا من يدخن في صمت ويتركني   في البحر أرفع مرسـاتي وألقيهـا

ألا تراني ببحر الحب غارقـة   والموج يمضغ آمـالي ويرميهـا
انزل قليلا عن الأهداب يا رجلاً   مـا زال يقتل أحلامي ويحييهـا
كفاك تلعب دور العاشقين معي   وتنتقي كلمـات لست تعنيهـا
كم اخترعت مكاتيبـاً سترسلها   وأسعدتني وروداً سوف تهديهـا
وكم ذهبت لوعد لا وجود لـه   وكم حلمت بأثـواب سأشريهـا

وكم تمنيت لو للرقص تطلبني   وحيـرتني ذراعـي أين ألقيهـا

إرجع إلي فإن الأرض واقفـة   كأنمـا فـرت مـن ثوانيهـا
إرجـع فبعدك لا عقد أعلقـه   ولا لمست عطوري في أوانيهـا
لمن جمالي لمن شال الحرير لمن   ضفـائري منذ أعـوام أربيهـا
إرجع كما أنت صحواً كنت أم مطراً   فمـا حياتي أنا إن لم تكن فيهـا

***

فما حياتي أنا إن لم تكن فيها.. والله لست أدري يا سيد نزار أأنت من يجعلني معه أتألق جنوناً وعشقاً به أم ماذا!؟

تناسبني عمق ثرثرتك بالحب وكأنك لم تكتب إلّا عني وعنه.

أم أني شاعرية كما تقول لي أختي نوران، سفانة هي الأخرى

قرأتها ومن بعدها هاتفتني على الفور: بيلسان، نزار هو الوحيد من يفهم حالتك مع فياض وكأنه يكتب لك وعنه!

أَترى لو علم بي نزار سيكتبني حكاية مع فياضي!

آه يا فياض، وكأن نزار في حبي لك حبره تغنى على الورق، ونيوتن هو الآخر أظنه يجهل إلى الآن سر جاذبيتك على كوني!

يا سيدي متى تفهم بأني أحبك ولا أعلم كيف لي أن أوازن خطواتي نحوك، ولست أدري كيف شعرت بي كما لو كنت طفلاً يتعثر في أولى خطواته، وبكل خطوة أقف أتحسس قدمي وكأني أشعر بها تنزف إثر ثقل ما تحمله أضلعي لك، فأحبو إليك كما العاجز عن كل شيء إلّا أنه سيصل إليك، وليتني أصل!

أخشى عليَّ معك أن أحترف الحزن والانتظار متأهبة لكل قادم لا يأتي، رحماك يارب، لي قلب صغير يحتضن رجلاً كبيراً في كل شيء، كبيراً في عشقي له، وكبيراً في حرف سخرته له، كبيراً كما الصغير الذي لا يشيخ، وشيخاً كما هيبة الملوك.

أَملك أنت!؟

ملك لمملكة عشق كانت وستكون لك فقط، ولست بأي ملك، ملك مُستبدٌ، استعبدتني عاشقة، وامتلكتني أنثى لن تجد مثلها يوماً، أنثى تسعى لرضاك ولو كانت هي عناؤك، أنثى تلفظ كل شيء ولا تضم غيرك، أنثى خانتها كل قواها عند أطراف قلبك، قلبك الذي طالما طمعت به وكأنه كنز لا يمكن الحصول عليه، وليتني أفهم كيف لي

أن أجعل منك أسطورة عشق، بينما أنت جعلت مني لا شيء، أجهل ماهيتي لديك، أَأنا أنثاك حقاًّ!؟ أم أنني مجرد حائط ممكن أن يخلق منك شخصاً جديداً؟ إنساناً آخر قمع بي كل ماضيه ورحل.

كل ما أخشاه، أن تنفث بي كل ماضيك وتركل بي عند أول ارتقاء لسلم مستقبل ماضٍ ألذ من كل جديد.

..(10)..

قد تكون إحداهن ندى!!

[هناك أشخاص أفضل ما يقدمونه لمن معهم هو غيابهم].

لست أعلم لمَ ترعبني تلك الكلمات، تنزف لي أوجاعاً لطالما أخفيتها، ولأنني أخشى الفقد كثيراً ما دعوت إلهي ينسيني حباً التهم روحي، ويشفيني من كل شعور كاد ينخر فؤادي ويكسر أحلامي كما لو أنني بلا واقع، فلم يُعلمني الحب سوى أن أحب.

***

تركت ندى حُساماً إيماناً منها بأن أفضل ما تقدمه له هو الرحيل!

رغم أنني أعي جيداً ما هو السبب الأعظم لقرار صعب اتخذته ندى بالابتعاد عن حبيب لطالما انتظرت ارتباطها به، لكنني أستغربه كثيراً لشخصية كندى، فهي ترفضه لسبب تمقته في مجتمع لمْ ولن يؤمن بالحب! حُسام ذو أصل عربي، وهو حامل للجنسية السعودية، كانت قد عرفته منذ طفولتها يقطن الحي ذاته، ويفصل بينهما دكان صغير، أسوار منزلها عادة ما تزعجه لأنها تؤكد له حجم العراقيل التي تحجب لهما ميثاق الحب المستحيل، فهي وهو أشبه بأقصوصة حب تحكى لكل العشاق في أول الغرق! مضى على حُبهما الكثير، قرابة

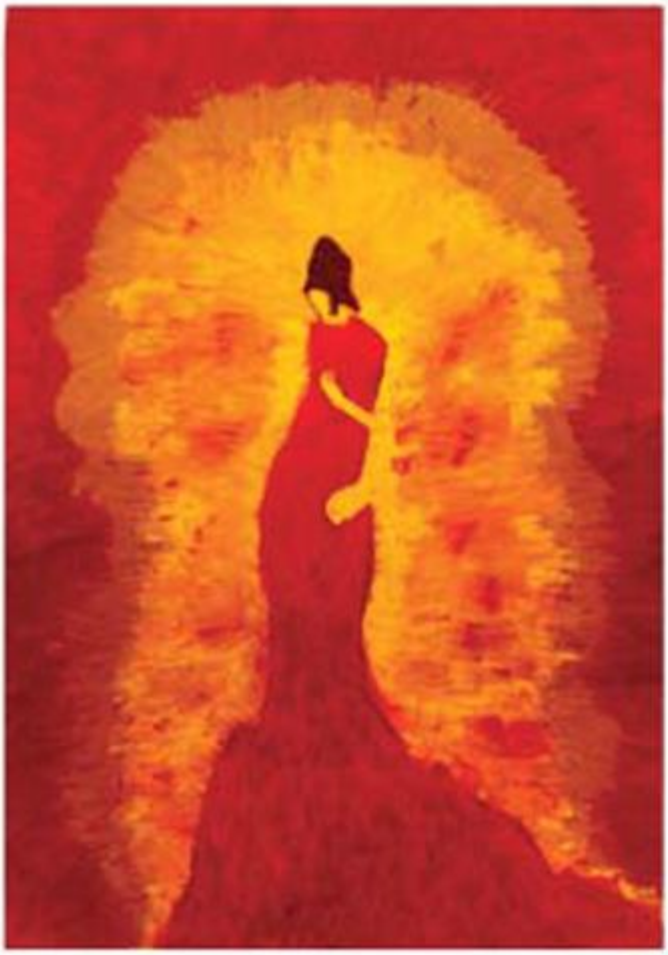
عشرين عاماً، كبرت هي وكبر حبه معها، أخته إيمان هي مرسال الحب الركيك بالنسبة إلى مجتمع ينبذ الحب بفكرته قبل الزواج كجريمة يجب أن يُعاقب الفرد عليها!

تقدم لها الكثير وكانت ترفض انتقاماً لحبها المسلوب حقه في محيطها، فمجتمعي لن يفهم ما قاله نيتشه أبداً، «كلما زاد الحب قل الحذر»

مع كون حُسام يعلم كل سبب قد يجعله خارج محيط ندى إلّا أنه تقدم لها مراراً وتكراراً، وفي كل مرة يخرج بخيبة أمل تزيده تعلقاً بها، ولا أدري هل هو الحب أجمل سوء تقدير بين اثنين! ندى تتقن الخربشات بالألوان، وكثيراً ما تهرب منا لتنسج حالاً قد يقتلنا لو بحنا به، ولأن حالها أصبح مُريباً خصوصاً بعد عودة حسام وخطبته لها وهي المفاجأة الوحيدة التي لم تتأهب لها!

وجدت لوحة قوية في ألوانها، شعرت بها بأنها تكتنز في جوفها كثيراً من المشاعر المتناقضة، أَهي حب أم كبرياء وضعف أو قد تكون اشتعال غيرة الحب الذي طالما جاهدت نسيانه!؟

باغتتني فجأة وأنا في زاوية غرفتها؛ فعادة ما تركن لوحاتها بعيداً عن عيون قد تفضحها... لا أدري ما السبب في أن تخفي خربشات قد تكون أدلت عن حالٍ احتاجَ نزهةً يستحقّها أسير!



«اشتعال غيرة الحب» كانت خربشات دانه صالح العواد.

رأيتها وكأنها غاضبة فلم أتفوه بحرف واحد، فقط ملأت ناظري بألوان صارخة لدرجة أنني تخيلتها بألوانها تلك قد تطبع على يديّ، وكأنني أنا من صبغها بمشاعر ساخنة قد تحرقني وإياها! اقتربت مني وقالت لي بصوت أقرب إلى الهمس: بيلسان هذه كانت لحالٍ كنت أجاهد بالتزامه بعد قرار ابتعادي عن حُسام.

قالت ما قالته وانتظرت مني تعقيباً لكنني لم أجب بأكثر مما أنني شددت من قبضتي على تلك اللوحة، وكأنني سأمزقها إلى قطع صغيرة جداً، حاولت أن تثرثر أكثر: بيلسان هو فاجأني بعودته إليّ، تقدم لي وكأن ما من مشكلة أكبر مما كنا عليه في السابق، يظن أن الحب كل شيء، لم يفهم أنه بحال ارتكبه بزواجه بغيري قد أفسد كل شيء، تعلمين كيف أفسد كل شيء، وتصرخ بي وكأنني أنا من زوّجه وأبعده عنها!

مسكينة ندى، كانت تظن أنه لو ظل حُسام عازباً وهي ظلت عانساً سيرضخ لها أفراد مجتمعها بتزويجها ممن تحب وينسون أصوله ويتغنون بحبهما التعيس! كنت أتمتم بذلك في صدري لأن ندى كانت مستمرة في ثورانها، كانت تحكي بطريقة وكأنها زهدت في الدنيا ومن عليها، سردها يحتم على حالها الصراخ والتضجر لكنها ملتزمة هدوءاً أكثر مما تصنعته أنا معها.

جلست في منتصف الغرفة تلملم بعض ألوان وفراشٍ سقطت مني قبل أن تداهمني في خلوة ثورة اشتعال حبها.

-تعرفين يا صديقة عمري بأنه عندما هاتفني لم أكن أعلم إن كان هو، فقط في ظني مجرد رقم يتصل بي، ولست أدري أأحد يعرفني أم اتصال خاطئ!؟ أجبته مسرعة وكأنه شيء انتظرته طويلاً، مجرد إحساس غمرني به، وشوقي إليه دفعني لأن أجيب وأهتف له باشتياقي، بكيته يا بيلسان، رجوته بأن لا يبتعد أبداً، طلبت منه أن يطلبني من جديد.

ومع كل ما قالت لم تسمع مني همساً، لم تعلم بأني خبأت لها أنيناً لو سمعته بكتني معها، وكأنها تحاول التبرير بطريقة عجيبة مستغربة صمتي، أخذت تعيد لي وكأنني لم أستوعب ما قالت، قلت له: تقدم لي واطلبني من أبي. وكما عهدتني بحبي له ورفضي لأن يسكن روحي رجل غيره ضعفت، فالحب أقوى يا بيلسان، تعلمين ذلك صحيح؟

وهي تثرثر، وقفتْ واتجهتْ إلى صندوق قد وضعته في خزانتها، أظهرت لي منه رسائل وصوراً لحُسام أخذتها وهي تبكي، وقد سارت باتجاهها إلى الحمام (أكرمكم الله)، لحقت بها واتخذت لي موقعاً، صمدت في وقفتي به متأملة ومستمعة لكل ما تفعله وتقوله ندى، وضعت كل ما في الصندوق في حوض الاستحمام وأشعلت عود الثقاب، أشعلت ناراً تظن أنها ستحرق ماضياً يهديها حاضراً بلا حُسام وحبه المنبوذ على أمثالها معه.

وقفت تتأمل احتضار ماضيها وكأنها استسلمت لنهايته رماداً، اقتربت مني وقالت: ضميني يا صديقتي ضميني، احتضنتها بكل ما أملك من قوة وهمست لها: ندى، القوة التي طالما دفنتها بروح صداقتنا أحتاجها الآن، لا تبقي أسيرة ماضي حُسام، لكن احكي لي بصدق ما الذي جعلك ترفضينه بعدما طلبتِ منه أن يجدد طلب الخطبة المنتهية منذ أعوام عتيقة!

أخذتها تستلقي على فراشها وجلست بالقرب منها أترقب أنفاساً هادئة وهذياناً أتمناه لا يعكس إلّا خروج أوجاع لن تجد لها مقراً في

داخلها من جديد، وبقيت أستمع إليها تحكي تفاصيل عودته؛ بعدما هاتفني أول مرة عاد واتصل بي مراراً وتكراراً وأنا أجيب مرحبة أنتظره في كل ساعة وإن غاب هاتفته أنا، جربنا أكثر من مرة أن نلتقي في أيّ مكان عام، فشوق اللقاء كاد يفتك بنا لكن صدقاً والله لم ألتقِ به إلّا مرة واحدة وكانت في مقهى بسوق يكتظ بالداخلين إليه... لم أعلق بأي كلمة، فقط استمعت إليها بكل هدوء هي تحكي وهي تبرر كأنها تسأل وتجيب، ثم طلبت مني أن آتي لها بهاتفها، فلبَّيت لها، أخذته كأنها تبحث عن شيء تود التخلص منه: بيلسان وها هو رقمه أيضاً محوته من ذاكرة هاتفي!

جميل أنها قالت ذاكرة الهاتف لعل ذاكرتها أيضاً تمحو كل ذكراه فتنساه.

قالت مستغربة حالي معها: بيلسان ما بكِ صامتة وكأنني أثرثر على نفسي، أَأنتِ غاضبة مني!؟

وأجبتها مبتسمة: لا، فقط أنتظر بقية التفاصيل لأنني أكاد أجن لأفهم.

ما السبب في رفضك بعدما طلبتِ منه أن يعود، ألهذا الحد الحب جنون!؟

وكأنني غرست الحماس في روحها، أخذت تسرد بقية الحكاية بحماس لا أظنه سينتهي: لا يا بيلسان قد تكون لحظة ضعف ندمتها أخيراً، بيلسان هل ستصدقينني فيما لو قلت بأن حسام لم يعد يحبني!؟

أجبتها مستغربة: ولمَ وهو بإمكانه أن لا يعود أبداً!؟

ـ خلال المدة التي قضيتها معه سمعته في عقلي كثيراً، وجدته متيماً بامتلاكي كإحدى التحف الثمينة التي طالما حلم بأن يمتلكها يوماً!

ـ قاطعتها على الفور: وكيف لكِ بأن تصفي نفسك بتحفة، ندى اسمعيني: هو رجل ناضج، أفكاره لم تعد رهينة رغبات طائشة أو سن مراهقة حتى، فلِمَ تتفوهين بحماقات تستفزني تجاهك خصوصاً؟!

ابتسمت وقالت: أنتِ لم تفهميني بعد، هو كان يحبني صحيح، وإن كان لايزال فهذا يختلف عما كنا به في السابق، حبه لي الآن لأنه اشتاق إلى ماضيه هذا أولاً، وتقدمه لخطبتي مجدداً ليس لأنني طلبت، صدقيني هذا لأنه يريد حقاً لكن تختلف رغبتي عن رغبته كلياً، هو يريدني أنثى يغرق معها أياماً ولياليَ لا نصحو منها إلّا ظناً بأننا في الأحلام! وأنا أريده أباً لأطفالي حبيباً وزوجاً وأخاً يسندني وأباً لكل أزماني، تعرفين بأنه اشترط عليّ الزواج بدون إنجاب.

–علقت غاضبة: أناني والله، ولمَ، أليس من أبسط حقوقك!؟

همست ضاحكة: بلى، لكنني قلت لكِ أنا تحفة ثمينة انتظر امتلاكها لسنوات طويلة.

–طيب وبمَ كان جوابكِ عليه!؟

أجابت بسرعة: رفضت طبعاً لكنه لم يستسلم، فظننت أنه ينتظر مني الحب الذي كنا وافترقنا عليه!

أرسلت له في يوم خطبته لي كتمهيد لقرار الرفض القطعي: كنت أتمنى أن أفعل الكثير والكثير في هذا اليوم بالذات، لكنني خشيت ثقلها على نفسك، ولهذا سأتركك على أثر خيال تسمعني به أهمس إليك، أنا أحبك، فهل تكفي!؟

ولم أرغب بمهاتفته، قلت له آخر شعور كنت به معه، وعسى أن يختفي من حياتي ولا يعود أبداً، أريده أن يُبقي لي صورته الجميلة، تمنيته لم يعد حتى لا يشوه حباً لطالما ظنتني به نقية، ذرفت دموعاً خائبة ونادتني كتأكيد إنصات لها: بيلسان كنت أظن بأنه عندما رزق ببناته الأربع التي لم تحمل إحداهن اسمي نسيني تماماً، لكنني أيقنت أنني كنت له الأنثى الأكثر حضوراً.

لطالما حسبنا نحن الإناث أن ذاكرة الرجل في يوم يمكن أن تخذله بأنثى أحبها عمراً لا يزول إلَّا برحيله، لكنني تيقنت بعد كل هذا أنه أصبح لي أشد حُباً، صار به يكرهني، يكيد لكل صورة لحاضر ممكن أن يزدهر به عمري، لا له كُنت ولا لغيره سيجعلني، أأناني هو إلى هذا الحد المقزز!؟ أم أنه ليس سوى عاشق غبي جن بحب طوقه بكل ما فيه! لكن لم يجعلني أشعر بِكَمْ هو مجرم ذاك الحب!؟ لم يجعلني أكره الحب فيما لو تذكرته!؟ أصبح يعود إليّ ويثرثر كثيراً عن زوجته وما بها من خصال وكأنه يكتشفها معي، لمْ يحترم غيرتي يوماً ولمْ يشعر بي كعاشق احتضنني محُباً لعمر حسبته لن ينتهي.

آه يا بيلسان أجيبيني الآن، ألاتزالين تحبين فياضاً!؟ أمؤمنة أنتِ

بذاك الحب حتى بتلك النهاية! أجبتها بحزم أنهينا به حديثنا: بالطبع، وإلّا كاد أن يكون أحدهم أجمع الرجال والحمد لله أن الفارق موجود، لكن في صور الحب تكاد الإناث تجن، فالرجل هو مجموعة ذكور لمجتمعات عديدة على أغلب المعاناة!

..(11)..

هناك فرح يلزمنا

كلنا في العيد نردد تهنئات ثابتة في قولها من دون أن نستشعرها كحال يستوجب الفرح، فكلنا في العيد نجاهر بالسعادة، وكلنا في العيد بوجه واحد، أَمن الصعب ألّا نكون كذلك إلّا في العيد فقط؟ فدائماً نستسهل أن نتعايش ونستصعب أن نعيش! «حقاً نحن بارعون إلى حد الغباء».

وعلى ذلك كان بعد أيام ازدحمت بحكاية حُسام وندى وحلول العيد علينا، تواعدنا نحن الثلاثة في منزل سفانة ولعلنا نستجد بجديد، وبهذا التجمع عرفت أن أمراً قد حدث أو يحدث، فهمست لندى: أَتظنين خيراً بسفانة!؟

-أجابتني مبتسمة: أَأنتِ عمياء يا بيلسان، كل هذا الاستعداد والكرم المنسق بتهذيب وإتقان لأجل فقط زيارة عادية لا أعتقد، ثم أَنسيتِ كم مرة كنا فيها معاً وقد أثقلت أمورُنا كاهلَنا، فالمسكينة قد تُروح عن أنفسنا ولو بقليل، لكن تعلمين أدركت كم أنتِ بخيلة علينا وعلى نفسك تستغربين الترويح أو الاستعداد لجلسة لا يكون فيها إلّا

الضحك، والأهم اليوم هو ثالث أيام العيد، فهل من الغريب أن نفرح!

كنت أستمع وأفكر بالذي يفيد لوقف إفراط لسانها، وأجبتها بأكثر مرحاً وحنية لطالما أحببناها في كلينا: يا الله من سليطة اللسان، أخبريني أنتِ كيف ستكونين في المستقبل زوجة تحتضن رجلاً وأطفالاً ومنزلاً أتمناه لا ينهد منذ لحظة دخولك إياه، فالرجال أشد ما يبغضونه هو طول اللسان، ثم يا ندى يا حبيبتي سؤالي كان عادياً جداً، لِمَ تلك القضية وها أنتِ تقولين نحن نُروح عن أنفسنا وبدأتها أنتِ بأول النكد!

وفجأة نطقت سفانة: «يا سلام على صحباتي التعيسات بتخافوا السعادة وإلّا ايش!؟».

تابعنا مسلسل سفانة ضاحكين وكأننا للمرة الأخيرة سنضحك!

وعليه قالت ندى: بالمناسبة وصلني عن طريق بث الرسائل عبر الهاتف الذكي (Black Berry) نصها يقول: [يُقال إنه في شرق الصين افتتح مقهى للحزن! للراغبين في البكاء ويكلفهم (50 يوان) أي 6 دولارات في الساعة! مع تقديم مشروب مجاناً للعملاء، ويوفر المناديل مجاناً، أيضاً وزيت النعناع لتخفيف الآلام، إضافة إلى البصل والفلفل الأحمر لمساعدة الذين يرغبون في ذرف الدموع بغزارة! كما تُعزف موسيقى حزينة للرواد، ويأخذ المقهى الطابع الأسود الحزين في تصميمه! وقد حقق المقهى نجاحاً كبيراً!].

كنت أول المعلقين على هذا الخبر الغريب والعجيب في فكرته وتواجده أصلاً: جميل...

شايفه أنه مشروع ممتاز والله لو فعلاً نصمم على افتتاح مثله بالفكرة ممكن تكون من ضمن موسوعة غينيس للأرقام القياسية ونفوز بشهرة ما لها حد وبكرا نقرأ بالجرايد خبراً عن «ثلاث فتيات يدخلن موسوعة غينيس للأرقام القياسية لتكفلهن بأحزان الأمة العربية!».

ضحكنا كثيراً، إلى أن تابعت سفانة قائلة متصنعة بلكنة الحجاز: بالله ايش رايكم نضيف اللون البمبي هي شوية فرح لأن أعتقد أن أغلب الزوار حيكونوا من الحبّيبين أصحابنا في الهوا سوا فإيش رايكم!؟

-أجابتها ندى: على أساس ناقصين ومحتاجين وجع قلب أكثر مما فينا، هذول أصحاب المقهى العجيب مجانين وأعتقد والله أعلم يعرفون بيلسان من صلة المنطق والغرابة يا هم كئيبين!

علمت أنها تستحثني لدخول الجو الضاحك رغم أنني مواكبة لسير الأحداث معهن فعلقت بجدية : صحيح يا ندى، فكرتهم جميلة ونحتاجها كثيراً، لا تستهيني بعظمة الفكرة لأنه لو كان هناك مثلاً بعض من الأشخاص أصحاب العيادات النفسية ضمن زوار ذاك المقهى لانحل جزء مهم من مشاكلهم وهي (التنفيس)، وبما أن شعبنا يخجل من البكاء رغم أنه يستهوي مراكمة الحزن في داخله وإن لم يكن به شيء تصنعه حتى يستحث الأنظار إليه، وإن فكر بحل آخر اتجه إلى الكتابة وهو لا يتقن سوى كتابة حروف بنقشها سواد وتعبيرها لا يعني إلّا كآبة، وفجأة يحتفظ بها وينشرها على جدران المنتديات التافهة ويبكي الجميع معه ولكن من دون صوت!

-كانت ندى تحتضن وسادة صغيرة رمتها إليَّ متحمسة: صادقة والله بس والنهاية معك اضحكي من قلبك واحشتني ضحكتك والتفتت إلى سفانة: أبلة حكمت ما ودك نكرشها بالحكي وبعدين معاها؟ هي مجرد فصلات نحتاجها بين الحين والآخر لكن بحكي (يكرشنا كرش بأسلوب ندى) كهذا لا أعتقد أننا كنا بانتظاره، دائماً ما أشعر بأنني محظوظة بهن، سفانة وندى أنس حياة وصحبة فرح تغمرني أملاً وحباً لا ينتهيان، وكعادتنا في كل مرة حينما نجتمع أكثر ما نجيده هو الأكل، ولا أنسى رفيقة عمر سفانة، هي الصحبة الأكثر سوءاً (القهوة)! تكلمت ندى وبطريقة «لا أحد يستجوبني» بعدها قالت: حُسام سافر مجدداً بعدما أخبرته بقراري النهائي.

من جهتي، لم أناقشها بكلمة، كفاني ما رأيته معها في تلك الليلة، لكن سفانة لم تصمت: لكن أنا إلى الآن أجهل تلك الزوبعة التي افتعلها ثم رحل، أي غباء بذاك الرجل، فأي منكما تخبرني أيظنوننا ساذجات نتبع هواهم وكأننا بلا عقل أو قلب!؟

ولأن ندى عازمة أن تضحك أجابتها بأكثر مرحاً عن عادتها: عادي جداً، تُصدقين، كان بودي أن أغني له: كيفك أنت... مللا أنت، وأخذت تعلو وكأنها قمر حفلة نحن نجومها وتتمايل وتلوح بيدها، كأنها تطلب منا الالتحاق بها، وكأن الأمر عادي جدّاً، كما قالت، ولم يكن منا إلا الغناء!

كيفك أنت،، مللا أنت،

بتذكر آخـر مـرة سهرة سهرتها عنَّا
بتذكر كـان فـي وحـدة مضايق منَّا
هـيـدي أمـي تـعـتـل هـمـي
مـنـك أنـت... مـلـلا أنـت
كـيـفـك قـال
عـمـبـيـقـولـو صـار عـنـدك ولاد
أنا والله كنت مفكرتك بـرات البلاد
شو بدي بالبلاد... الله يخلي الولاد
كـيـفـك أنـت... مـلا أنـت

وأسكتتنا وهي تقول: وآه من فيروز لا أجدها إلّا لعشاق مُدركين معنى الحُب، وهذا بِمنْ نعشقهم نحن بعيدون جداً..

ثم أكملت بتعليقات تحاول إضحاكنا حتى وجدتنا في حال كدنا نموت بسببه ضحكاً، لدرجة شككت به عمداً!

***

وبين ذكريات ملأتنا ابتسامات وبهجة وعلى صوت سفانة فجأة: صحيح تذكرت أهم خبر قد يغرقنا فرحاً، أبي قد وعدني بأن يفكر في أمر ابتعاثي لتحضير الماجستير، وأخذت تغمرنا بحضن خشيت أن أفقده وأكره حضناً غيره وأكملت خبرها قائلة: وعقد تدريسي في الجامعة مبرم على أساسه، فإن شاء الله أبي سيقتنع ولو أخيراً.

صديقتاي، تعلمان مدى تعلقي الشديد بهما ولا قوة لدي على

احتمال فكرة فراقهما لكنني من المحال أن أكون أنانية، لهما أحلام لا بد من المُضي بها وخصوصاً أنني معهما لطالما نادينا بأحلامنا بكل نجوانا لأن تكون واقعاً، ولا أنسى أعواماً عانقتها بحلم ظننت يوماً بأنه لن يكون حتى كان. سفانة أكثرنا أماني بحلم الدكتوراه وجُل دعواتنا نحو حلم قد يغدو بها أجمل، ونحن في غمرة نشوة الفرح المعظّم من قبلنا لأمر لم يتم حتى الآن قالت ندى: يوووه يا أبله حكمت، (مثلما أسميناها لفلسفتها وحكمتها في بعض الأمور)، [كيف بيفكر!؟ والله حرام تخصصك عظيم في علمه ونبيل في عمله]، تعلمين كم من ذوي الاحتياجات الخاصة يحتاج لأن يفهم مجتمعه البغيض أنه إنسان قد يملك أكثر مما يملكه الإنسان السوي في خَلقه، لكن، هناك أمور يصعب علينا تجاهلها مثل أمر التغرب وكون العلم وعلو شأنه يختصّان فقط بالرجال؛ شأن والد سفانة كحال الكثير من المجتمع ولو بدا أنه تحرر من أفكار غبية إلّا أنه أحياناً شديد التعلق بها.

كنا على هذا المنوال منذ دراسة سفانة في جامعة الملك فيصل تخصص (إعاقة عقلية من التربية الخاصة)، ابتدأت مشوارها ترحالاً بين قطار عتيق صوت رنين إزعاجه أكثر من ضجيج ركابه! تخيلوا معي الرحلة الدراسية الشاقة في تنقلها وكأنها حينها ابن بطوطة لكن مقصورة على الدمام – بقيق – نهاية بمحطة نزولها (الإحساء) الأم الحاضنة لجامعة الفيصل، فصول عديدة تحتاج الكتابة في شأن

رحلات العملاق الأخضر كما أسماه المجبرون على ركوبه خصوصاً أمثال (أبله حكمت).

لكن المشكلة العظمى تتمركز حول كيف بعد كل العناء تتقوقع حول فكر مجتمع يحد من تفوقك إلى أن تكون كما أحبوك لا كما أحببت أن تكون أنت فيه!

أذكر أني شاهدت حلقة من المسلسل الأكثر هجومية في المملكة (طاش ما طاش) كانت بعنوان المبتعثة، وسريعاً ما احتضنت هاتفي وبعثت لسفانة: مرحبا يا حلوة طاش ما طاش قد يتكلم عنك اليوم شاهدي الحلقة، ومن بعد تلك الحلقة لم نتخاطب ولم نلتقِ إلّا في ثالث أيام العيد.

قلت لها بعد آخر ما سمعناه من ندى: علمت أن من شروط الابتعاث المحرم، فهل من متطوع لاستكمال فرصة نجاح تبتغيها!؟

علقت ندى بطريقة استهزاء: محرم، قد يكون لو عقدت قرانها على السائق يحيى بدلاً من فواز!

فيما كنا نتحدث كنت أراقب ردود أفعال سفانة.. وجدتها تفرك يديها وكأنها تطرد التوتر الذي انتابها وتبتسم مجبرة كأنها تجري عملية شد لوجهها المفضوح من انكسار قلبها بعد أول حب انتهى منذ بدايته الأولى، والآن تخشى انهيار طموحها في أول فرصة قد تهديها كل نجاحاتها التي تطمح إليها.

حاولت أن أجعلها تتحدث ولو بأي شيء: سفانة أخوك محمد هو الآن في السابعة عشرة من عمره، صحيح!؟

علقت من دون أن تنظر إليّ: صحيح.

تابعت بجدية: إذن هو المحرم.

قفزت ندى وكأنها تجزم على إحباط الآمال المتبقية لحلم سفانة: كيف وهو لم يُنجز الثانوية العامة بعد، أتمزحين يا بيلسان!؟

ـ وما المشكلة في ذلك يستطيع إكمالها حيث سيكون مع سفانة، لا أرى أي صعوبة في ذلك.

كل هذا كان وسفانة تعانق الصمت وكأنها تتعرف عليه للمرة الأولى، ندى كانت تترقب أي رد من سفانة لكنها تابعت بقليل من الهدوء: هذا هو الحل، اطرحي على والدك تلك الفكرة ربما يجدها مناسبة، ما دام يستصعب أمراً، أن يكون هو المرافق لك أو أحد محارمك من عم أو خال! وكأنها تمعنت بالفكرة وتقبلتها كحل أخير: لكنه قد يستصعب بأنه صغير، أجبتها بثقة: فليكن، أنتِ كبيرة.. أعتقد بأن عائلتك تثق بكونك ناضجة ويعتمد عليك، فقط انقلي الفكرة بهدوء وتأهبي لوضع حلول بديلة فيما لو قوبلت الفكرة بالرفض.

فجأة بدأت تتفوه بما يجثم على صدرها: لكنني أخشى أبي، فمن بعد أمر فواز بات لا يثق بي كما في السابق! اقتربت منها في حين ندى علقت غاضبة: وما شأن فواز، أعتقد أن حكايتك مع فواز انتهت بعد رفضه! أمسكت يديها الباردتين وهمست لها: عيناكِ تفضحانك كثيراً، لذا أبواكِ لن ينسيا فواز أبداً!

بدأت فجأة تصرخ : ليكن إذن، ليكن يا بيلسان، أحتاج نسياناً

يكفي ليجعلني بلا حب أبداً، أحتاج قناعة عظيمة أبتدئ بها بقلب جديد، سَئمتُ حباً يكسرني.

تظن هي أنّ النسيان كفيل بأن يمحوَ زماناً طُوقَتْ روحها به، مسكين من يظن أن الحب سهل بأن يتداركه أي نسيان! قد ننسى لكن بعد تناسي الكثير والكثير.



..(12)..

لسنا في مجتمع ملائكي
ولا في مجتمع شيطاني

قبل عدة أشهر كنت قد أنجزت طباعة أول كتاب قصصي يجمع بعضاً من جوانب المجتمع في إحدى دور القاهرة للنشر والطباعة، وعلى ذلك طلبت بأمر يفسح في المجال لكتابي أن يتجول في مكاتب المملكة، لكنني تفاجأت برفضه ولاأزال أجهل ما السبب! أحياناً أشعر بأنني أخطأت الخطوة في اختياري القاهرة كبلد حاضن لأوراق فصولي وهذيان سطوري تحسباً لوزارة الإعلام المتحفظة على الدّور الأجنبية، تمنيتني أجدت الحيلة في حشو السطور بطريقة وأخرى، تمنيتني، أكثر، لو زيفت بعض الحقائق فقط لأحقق حلماً لطالما غنيته بغد أجمل، رغم أنني مؤمنة بأن الكاتب الذي يتكلف في صقل الواقع وكأنه النقاء والطهر لم ينصف مجتمعه ولا بشيء، هو فقط وهبه أوراقاً قد يستعملها يوماً لتلميع مرايا الأحلام المقتولة؛ أيضاً لست مع من يكتب كي يقتل من مجتمعه كل شيء جيد، لاأزال أعني الإنصاف بعدالة الكتابة بكل حرف قد يختزن يوماً لآثار لا تنتهي ولا تحمد عقباها، لطالما تمنيت

محامي دفاع لأي حرف سُلب قبل أن يكتب، أو حتى وطناً لحرف يئن لخدش أقلام تآمرت على سطوره.

وبهذا الرفض حقق كتابي مبيعات لم أستوعبها ولم أتوقعها من الأساس.

لكنني تمنيت لكتابي حق طفل اغترب عن أمه!

حينئذٍ لم تكن مطالبي مفزعة إلى حد التهكم من قِبل مجتمعي الغريب، ولم أحبذ يوماً أن أخترق قانوناً التزمته مجبرة، قانوناً لم يكن متواجداً إلّا من تشريع بشري لا حول له ولا قوة سوى الثرثرة والقمع لكل جيد سيكون دائماً سيئاً!

فأنا لست من ضمن ثورة ذاع صيتها «نعم لقيادة المرأة»، ولا أنا من ضمن المنادين بالحرية المتخلفة عن حجاب شرعي، ولست أيضاً من ضمن المدعيات بالالتزام بوضع أنفسهن مسلمات وغيرهن أشبه إن لم يكن كافرات على حد ظنهن!

وحينما كُنّ ثائرات من أجل قيادة السيارة، قالت لي مرة ندى كمواكبة للحدث : عندما ذهبت مع أمي إلى بيروت، أول ما شرعت القيام به هو قيادتي للسيارة، تسكعت في شوارعها كما لو أنني أقود منذ ولادتي في السعودية!

ضحكت حينها وقلت: ندوش أَطبيعة لبنان كصحراء الربع الخالي حتى تقودين سيارة متناسية جمالية المنطقة، أظنك أضعت عليك فرصة التمعن بفروق الطبيعة الربانية في إحدى بقاع العالم البعيدة كل البعد

عن ديارنا، فأجابتني مستغربة: لكن قيادتي للسيارة حلم تطلعت إليه في كل ليلة أشاهد فيها أخبار القناة الأولى لعلي أجد خبراً عاجلاً مفاده: المملكة العربية السعودية تسمح بقيادة المرأة للسيارة، ثم حينما تذوقت حرية القيادة لأول مرة، شعرت حينها أنني مقيدة بلا أسباب مقنعة تمنعني لأقود، وأننا نساء مستضعفات مسلوبات الحقوق من أبسطها! علقت بجدية تجعلها تملني كثيراً: ها أنا من نساء مجتمعك هذا لكنني لست من الطامعين بهذه السماحة التي إن كانت قد تثير كثيراً من جعلنا مجتمعاً نشبه الآخرين لأجل فقط أن لا نكون مختلفين بالنسبة إلى غريبنا إلّا بمقاييس تجعلنا في مستوٍ متدنٍ حسب خزائن عتيقة عن مجتمعنا المُثير لتطلعات الغريب عنه! التفتت إليّ غاضبة وكأنني همست بطلاسم يعجز القارئ عن فكها: وكيف ذلك؟ لم أفهم مما تقولين شيئاً، أأعجمية أنتِ! تحدثي بلغة فكري ومحدودية استيعابي.

تدخلت سفانة معلقة: تقصد بأن مجتمعنا في كل شيء فيه «جيد أو سيّئ» هو محض اهتمام من قبل شعوب كثيرة.

فأجابت ندى بامتعاض: لم أقتنع...

قلت وأنا أعانق فنجان قهوتي الباردة: لم أقصد حرفياً ما عنته سفانة فحسب، إنما كل ما قمنا أو سنقوم به سيكون في وضع تنقيص لغيرنا كيفما نكون.

فعلقت متأزمة لسوء استيعابها هذه المرة: بيلسان أأصبحتِ كتلك «وتشير بإصبعها المكسورة إلى سفانة»؟ تثرثرين كثيراً بكلام أشبه بأن

يكون معقداً ولا ينحل حتى مع الزمن، يا الله كثيراً ما أشعر بكما أحياناً تهذيان كأنما ترسمان خريطة في الهواء!

وبعدما أضحكتنا على وصفها المجنون أكملتُ: أنا يا صديقتاي مؤمنة جداً بأن كثيراً ما تكون العين المترصدة لنا تعكس ما تراه أعيننا لأنفسنا في أحيانٍ كثيرة كونها فلسفة تتعلق ببعض التفاصيل التي طالما جننت حتى أستوعبها في علاقات البشر عند نقطة الحكم الناتج من المحكوم عليه نفسه بضريبة سقوط من حفرة إلى حفرة أعمق، فنحن أحياناً حمقى إلى حد أن نهدي غيرنا أكبر عيوبنا، وبطريقة مثيرة حدّ التضخم وكأننا الوحيدون المضطهدون من بين جميع العالم!

فيا ندى قصدت بذاك القول إننا كشعب يرى في كل محيطه فشلاً يجزم به فيجري تداوله وتضخيمه عند غيرنا من الغرباء، وتلتهي الشعوب بنا وكأنه ليس لديهم أية نواقص! نادتني سفانة بصوت عال لحماس انتابها: بيلسان، أَتظنين أن قيادة المرأة للسيارة عيب أو حرام!؟

سبقتني ندى وقالت: [ايش هالغباء هذا اللي ناقص بعد لا ذا ولا ذاك، وين الدليل النصي من شرع الكتاب والسنة اللي يستدل به بأنه حرام!].

سفانة كانت هذه المرة منصتة أكثر من كل مرة ننغمس خلالها بأحاديث، وكأننا سنعزم على حلها من باب النقاش لا أكثر.

قلت حينها بعد استماعي لرد ندى: هو أقرب أن يكون عيباً فقط، عيب على مجتمع اعتادت نساؤه السير خلف الذكور في صحيح الأمور

أو خطئها بشكل عام! والأهم أنّ قانون البلاد يفرض عدم قيادة المرأة للسيارة. وبحسب علمي فإنّ المنادي بالحرية تمثلاً بالبلاد الغربية لو نَصَّ قانون واخترقه أحدهم في تلك البلاد لعُوْقب وجُعل منه عبرة لغيره! وأيضاً بلادنا تكتظ بالأجانب مختلفي العقائد والأفكار، ولا أظن أحدهم يغفل عنه مطلب الحرية، ولم يقم أحدهم بإحداث ضجة وسط شوارع المملكة، إلّا أنني وجدتهم احترموا قوانين البلاد أكثر من أهل البلد! غير أن أمر القيادة للنسوة لم أستوعبه على أساس أنه حاجة ضرورية لهن! لم تقنعني أنا كإحدى إناث المجتمع المتشدد في أمر هكذا بمطالبهن، فقط في استيعابي الشديد بأن احتياجات الإناث في مجتمع يفيض بالذكورية في كل شيء أكبر من مقود سيارة! فأنا لم أحلم يوماً بأن أقود سيارة مع أنني قدتها في أكثر من مرة جزمت فيها أنني لن أفلح أبداً، وجدتها لا تناسبني كأنثى هذا أولاً، وشعرت أنني أتمادى في فعل شيء ليس مجدياً للحماس في كونه ممنوعاً فقط، هذا بالنسبة لي كي لا تغضبي يا ندى! غير أنني مؤمنة بأنها حاجة ليست عائقاً أمام أي حلم حلمت به يوماً، ولم يكن مقود السيارة بالنسبة لي صعب المنال أو المحال لأنني لم أتطلع إليه يوماً وأجده أيضاً مطلباً يثير لديّ انتقاصاً من حقوقنا المتهاون في ذكرها وإلحاقنا بحقوق ليست كفؤاً لأن تصنف من حقنا! تمنيتني أجد ثورة تقام على رجال مجتمعي نحو طبيبات نَسَفَهُنَّ العلم والعمل تحت رحمة أنهن متحررات بلا قيود وجريئات يعملن في اختلاط! تمنيت أحداً من جميع التابعات لثورة

قيادة المرأة للسيارة بتأكيدهن أنّ ذلك حق مسلوب، أن يصحن بأعالي أصواتهن في وجه المحاكم التي تخفي يومياً نصرة امرأة مظلومة!

آه يا ندى، كثيراً ما أشتهي أن أصرخ من باب عيادتي حينما أجد أنثى تبكيني هماً لأجل أن تخلع رجلاً مدمناً حاول مراراً وتكراراً قتلها ودفن مستقبل صغارها! وأكثر ما يحبطني حينما أرى وضع أم لأربعة أطفال، وهي لم تصل عقدها العشرين ولم تحظَ بشهادة إعدادية حتى، وفراخها لا فرق بين أعمارهم سوى أشهر الحمل، كأنها آلة تعمل بنشاط حتى تفقد ذروتها وتهلك بعد أعوامٍ قصيرة!

كثيرة هي احتياجاتنا كإناث لديهنّ حقّ تستحق المطالبة أكثر من قيادة سيارة عبر حملةٍ غبية لم تترك إلّا إثارة جدل لأيام، وإن طالت لم تزد عن شهر فقط، ولم تقد أي منهن سيارة!

استمعتا إليّ دون انقطاع، وبينما كنت أستعيد أنفاسي بعد حديث أظنه كتم على صدري آهاتٍ تداعب الفضاء فيما لو كانت صدى لكل أنثى شكت حالاً وطالبت من لديه إمكانية العون بعد الله، أن يمنحها حقاً تنتظره ينصفها كإنسانة هي نصف المجتمع الذي لم يعد يعبأ إن كانت منه أصلاً، سمعت ندى بعدها تتساءل: لكن تلك هي مشكلات أغلب نساء العالم وليس فحسب السعوديات!

قالت سفانة عندما كانت تقترب من سفرة وضعت عليها قطعاً من البسكويت وبعض الموالح وإبريقاً للشاي، ضمت بيديها كوباً

ستداعب قاعه بحرارة الشاي الأخضر: صحيح، لكنني أظنهن فعلن ذلك كتعبير إحداهن أن تلك هي البداية لمطالب عديدة!

ـ تابعت حديث سفانة: لكن المهم والأهم أننا لسنا بحاجة إلى سيارة تزيد شوارعنا كآبة من زحمة غير منتهية، وأيضاً، وبالكثير من المنطق، تخيلي حال إحدانا داخل سيارة في وسط الشارع بين سيارات لرجال عقولهم وتصرفاتهم مختلفة، منهم من سيدعنا نكمل الطريق ولن يتفوّه بحرف أو يسيء التصرف معنا، والآخر سيفعل كل ذلك، هناك مطالب قبل الثورة، تحتاج إلى دراسة حول احتمالية تطبيقها في المجتمع، صدقيني أنا لم أجد هدفاً في تلك الثورة سوى إثارة الجدل المعدوم الفائدة فقط!

أما بالنسبة إلى قولك يا ندى فهذا صحيح وهذا ما أعنيه كخلاصة لكل حديث شاع بيننا فيما لو كنا نرى مجتمعنا كحال غيرنا من المجتمعات يحمل تناقضات ومتضادات كثيرة، بعضها يحتمل والكثير منها لا يغتفر، مجتمعنا يحتاج إلى ثورة «أنصفوني ولو لمرة»؛ تصدقون، أود من أبناء مجتمعي أن يفهموا أننا «لسنا بمجتمع ملائكي وأيضاً لسنا بمجتمع شيطاني»، نحن بشر وارد منا الخطأ إن لم يُعتمد علينا فعل الصحيح في أي كان، الغريب هو أننا نعتمد الخطأ كأساس للكثير من القوة، كأن نتمسك بعادات بغيضة أو أفكار لا تجعلنا إلّا في الخلف، ليتنا ندرك أن الأساس فينا فطرة وعقيدة ثابتة، ليس بدعاً أو تصنيفات قامت عليها أنفسنا واعتمدناها أساساً لأغلب حاجاتنا، وإن

خالفنا أحدنا حتماً سيكون خارجاً عن ملتنا!، ولا أدري أيّة ملة تلك التي تقتضي ضمن ما تشاء حسب الأهواء والرغبات المختبئة تحت حاجات بعض الذئاب البشرية!

تذكروا أن مجتمعكم لطالما قام بثورة، عدد المتظاهرين فيها أقل مما يجب «أنصفوني ولو لمرة» وكأنه بحاله يقول: بلد آمن أم نفوس آمنة!

صفحة كتب

..(13)..

الحب جنون

(لو أنّي أعرِفُ أنَّ الحُبَّ خطيرٌ جِدَّاً، ما أحببت، لو أنّي أعرفُ أنَّ البَحرَ عميقٌ جِداً، ما أبحرت..، لو أنّي أعرفُ خاتمتي، ما كنتُ بَدأت)(*).

كان يوم الثلاثين من أغسطس هو عيدٌ لميلاد فياض، فكرت بأن أحتفل معه هذه المرة على غير العادة، لكنني خشيت الظروف تقسو عليّ مثل أحوالٍ مضت.. عزمت أن أكون جريئة، وأدعوه إلى مطعم فخم في برج الأحلام بعد أن أعد له ترتيبات الاحتفال على أكمل وجه.. هي المرة الأولى التي نحتفل بعيد ميلاده كهذا اليوم، فغالباً ما نطيل ساعات مكالماتنا نثرثر بحكاية حبنا منذ القسط الأول، السبب للنظرة الأولى، وكأننا نجزم على تمجيد أيامنا بيوم ميلاده! اتصلت بصديقتيّ أجبرهما على الاستعداد لهذا الجنون بقدومي على هكذا فعل، وسبقتني سفانة فأجبتها: أهلاً بكِ حبيبتي وكأني شعرت بها تلتمس ما بداخلي: أَخائفة أنتِ يا صديقتي، وتابعتْ دون أن تترك لي

(*) سيد العشاق «نزار قباني».

حق إجابة: «هو كذلك، الحب يجعلك في تعدد حال بالرغم من أنكِ فقط في حالة حب واحدة وكأنكِ تعيشين عمراً وحياة يُحال عليكِ أن تنسيهما».

توقفتْ عن الحديث بمجرد ما سمعت الآه التي فرّت من داخلي مستنجدة: ألف سلامة على روحك حبيبتي، اسمعيني يا بيسان لا تفكري أبداً بأمر كلما دفعك جنونك إلى فعله، ربما تلك الخطوة وإن كانت جريئة هي الحل الوحيد الذي تأخر حتى يكون، تحلي بالثبات وكوني واثقة واحذري كل شيء، فياض مهما كان حبيبك هو أيضاً رجل.

ودعتها وقلت لها إنني سأتصل بندى أستعجلها إحضار الهدية التي ابتعتها معها قبل أيام:

- أستاذة ندى أين أنتِ، أأضعت هدية فياضي!؟

صرخت بي متذمرة: أتمنى والله، اسمعي هذه المرة إن لم تُقدمي على نهاية لحكايتكم تلك فو الله لأفعل الجنون، وأقدم على التحدث معه، وعند باب بيته ولن يهمني حينها أن كنت سأفضحك معه.

خشيتها حقاً، فتلك مجنونة وقد تفعلها، لم أستطع تخيل منظر ندى واقفة أمام منزل فياض تهاجمه، وذاك المسكين مصروع من تلك المرأة المتهورة، فكيف لها ذلك وهو من قال: لا أحد غيري سيمتلكك.

فيّاضي لم يكن رجلاً عادياً قطّ.

بداية من عمره، فهو بنهاية عقده الرابع، وخيبتي أنه متزوج وله

ولدان، علاقتي به بدأت بعد استمرار مجيئه إلينا، أحببته منذ أن رأيته أول مرة، كان في كل مرة يزورنا أتحجج بأنني سأتدبر أمره وأقنعه بأمر الإيجار الذي فاق قدرتنا! كوني أكبر إخوتي، ولثقة أمي بي أيضاً، جعلني أهلاً لهذا الفعل... أمي لم تظن بقلبي ركاكة اتزان نحو هيبة فيّاض، ظنتني لن أستسلم لرجل متزوج على الأقل وأنا أيضاً حسبتني لن أهوى رجلاً قد امتلكته يوماً أنثى غيري، غيرتي تشعل نيران موقدة في دواخلي بمجرد أنني أتخيل كيف لأنثى سبقتني إليه، لست أعلم أَهو فرط الجنون بي لا أكثر!

رغم أنني مؤمنة بأنه من أبسط حقوقي حيال حبي العظيم الذي وهبته إيّاه، لم أكن يوماً أنثى شرسة كأن أنوي تحجيم المشاكل بينه وبين زوجته، لم أجرؤ وأدعو عليها بالموت لكنني كثيراً ما دعوت أن تبتعد أكثر مما أتمنى وتجعل فياضاً لي وحدي، هي التي في يوم احتضنت عمراً جمعها به، يزعجني أن تبقى هي الأولى في كل شيء، هي أول حب وهي أم أولاده، أكثر ما يكسرني هما طفلاه على رغم أنني أحببتهما كثيراً، فهما قطعة من فياض، لديهما شيء من روحه، يحملان اسمه ويعانقان عمره مهما خذلته السنين، يا الله لطالما تمنيتني أنجب له ابنتين فقط لأختلف عنها، إلّا أنني خشيت أن يكون أثر خِلفة الذكور يرجّح تبايناً لتراكمات مجتمعي في التكاثر الفردي للعائلة، وتبقى هي الأولى مهما فعلت!

أَخائبة أنا إلى هذا الحد!؟

لا لست أنانية..

فيّاض هو حبي الوحيد، هو دنيا وكون لا يحويان سواه، هو روحي في مكان آخر، وهو أنا في شتات كوني، لعلي بحبه رجوت حياة فرح لا تنجلي إلّا برحيله عني.

***

اقتربنا من الموعد المرتقب، عله ينتهي بنهاية مرجوة،لم أتكلف كثيراً بزينتي، اكتفيت بأن ألبس فستاناً بلون الزهر علّه ينعكس عليّ وأصبح كالوردة المتعطشة لقطرة ندى، وضعت بعضاً من أحمر خدود ورسمت عينيَّ بخط من «الآي لاينر» الأسود وصبغت شفتي بإصبع الروج الوردي من ماركة MAC حتى أنني كدت أغرق من رائحة عطري المفضل COCO CHANEL... شعرت حينها أنني على أتم استعداد، سبقته إلى المطعم، انتظرته قريباً من العشر دقائق، نقشت له شعوراً لذيذاً على البطاقة المرفقة بالهدية كتبت فيها: ميلاد مجيد، هو يوم وهبت فيه للوجود، حبيبي أنت جنة في الأرض كونه لا يحوي سواك.

تأكدت من جهوزية كل شيء ولم يبقَ إلّا حضوره... أرسلت إليه رسالة: «**حبيبي، بت لا أحتمل الانتظار أكثر فهل أسعفتني بحضورك**». كنت عزمت أنني سأحكي له عن كل ما تمنيته يوماً، أن يسمعه مني، سأسبقه وأعترف بأنني علقت بشباكه من أول مرة رأيته فيها، سحرني إلى درجة أنني لم أعد أرى غيره، سأقول له عن أول مرة هاتفته فيها،

سأسرد له الليالي الطويلة التي حلمت فيها به، سأقص عليه أياماً قضيتها ألعن غيابه وأبكي شوق لقائه لعله يدرك كم هو مجرم ذاك الغياب.

وحينما كنت أتعمّد ثرثرتي عليه شعرت بأن خدراً لذيذاً يسري في شراييني، رائحته أصابتني بوعكة غياب عن الزمن لمدة لا أدري كم، لم أفهم بعد لمَ حينما أشتمه أشعر بمزاجية عالية تدعوني للحياة! أهناك سر للانتفاضة والإقدام على التعايش بهذا العالم!؟ أظنه لأنه عالمي الأوحد، آه يا فياض أغرقتني بك إلى حد الموت، وجدته يقبل عليّ بأناقته الفائقة، لأول مرة أراه قد شذّب ذقنه المختلط بشعيرات بيضاء أضافت لجماله هيبة، كان مرتدياً بنطالاً أسود وقميصاً من ماركة Burberry.

اقترب وهو يهمس لي: أي مساء عيدي هذا؟! حسبتني أحلّق بلا هبوط بالهون عليّ يا حبيبتي، ابتسمت وأنا أشبع ناظري فيه: هذا قليل يا سيد روحي، ممتنة لأنك أكرمتني بقبولك هذه الدعوة، شكراً لك. شعرت بأنه يحاول الاحتفاظ بالقدر الممكن من صورتي في داخله، حاولت أن أتمالك نفسي وأهدهد روحي صابرة، أخجلني فعله، لم أحسبه بهذا التهور، تمنيته يمهلني قليلاً من التوازن حتى أخاطبه بحرفين على الأقل، سمعته يضحك قائلاً: لو كنت تفعلين بمثل هذه الدعوات في السابق لرأيتني أكثر أدباً ووداً أيضاً، لا أدري، لمَ يُلمح وكأنه اصطاد فريسة ينوي التهامها كلها، ذاك الشعور جعلني أخجل من طلب دعوتي هذه.

كدت أصرخ: لا يا فياض لم أنوِ إلّا أن أترك ليلة تذكرني بها طوال عمرك، ليلة مع كل ذكرى ميلادك ستذكرني بها مرغماً، فكيدي أيضاً أعظم مما تتخيل، لا أدري لـمَ كنت أنانية حينها وكأنني شعرت بأنني لن أتملكه كما حلمت يوماً.

قطع حبال هذياني محاولاً فتح حوار قد ينعم عليّ بأمن وأمان: بيلسان كيف أنتِ أسعيدة بعملك؟

أجبته بسعادة: نعم الحمد لله كثيراً، رغم العناء الذي أناله بعد أيام شاقة تتزامن مع نفسيتي حينها وبالكاد أتعود. كان يستمع إليّ مبتهجاً وكأنني أغني.

-طيب يا حلوتي ماذا عن روايتيكِ، ألاتزال الكتابة تسرقك من كل شيء!؟

لا أدري لـمَ أجبته سريعاً دونما تفكير: لكنك تبقى أكثر جرماً في قتل كل شيء فيّ، وتبقيني بحبك ما حييت.

أحمر وجهه ورجع بجسده إلى الخلف يستند إلى كرسيه وقال: مجنونة والله لا أستطيع مجاراتك في كل شيء، إذن يا معشوقتي أخبريني كيف هي أمور الكتابة؟

أجبت بحماسة: تعرف أن روايتي الأولى قد منعت لكنني أمضي في كتابة الثانية على أمل أن تكون هي وسابقتها تنيران مكتبات المملكة ولو برف واحد يجمع كلتيهما في عشر نسخ، هو شعور فقط أود أن أغمر به، تعرف لطالما شعرت أن صغيرتي أقل حظاً من غيرها ولا أعرف ما السبب!؟

رأيته يعقد حاجبيه وكأنه متعجب قولي: كيف ذلك وأنا رأيتك بها تكبرين بأكثر مما تتخيلين، بتِ ناضجة وأكثر شجاعة تتخطين الأسطر ببراعة وكأن ما من كاتب غيرك، ثم لا أتمناك أن تجعلي للثانية أي قلق ينتابكِ بسبب الأولى، كل ما كان أو سيكون هو جميل، إنجازاتك ليست بالهينة، ثم بربك أَهناك مَن بمثل حبيبتي!؟

ضحكت كأن لم أضحك من قبل: أَصحيح يا فياض...!؟ كم أنك بارع في ارتقاء سلالم الرضا بالآخرين، الويل لك إن رفعتني إلى السماء، فحقاً قد يصعب عليّ النزول. ضحك قائلاً: أَتظنيني أجاملك؟ صدقت في كل ما قلته يا أميرتي رغم أنني متحفظ من زوبعة القراء حولك كأنني لم أكتفِ بزوار العيادة، تعلمين يا بيلسان، متعبة أنتِ كثيراً، «فاجأني قوله كثيراً وبقيت منصتة لعلي أستوعب ماذا يقول».

متعبة كونك بين عالمين ارتباطهما واحد رغم أن عملك يعتمد على عقلك أكثر من العاطفة، لكنني منبهر كيف لك أن تبدعين بين الاثنين «ما شاء الله، خشيت أن أصيبك بعين الحسد»، فخور بك جداً فلعلكِ أيضاً لم تدركي بعد بأنني أحببتك بما يفوق عمري.

تجرأت حينها وقلت له: تعلم فياض أنني تمنيت أن تسمع عن حبي لك، كنت أتحدث بحماسة وفرح لا أظنني أتقنت تعايشه بغير تلك اللحظة، كان ينصت إليّ بسعادة وكبرياء كبير أظنه يتلذذ بعشقي له، «عجباً لحب ينسف قلوب الكثير، أكاد أجزم أن لا قوة تضاهي الحب في ثورة اشتعاله»، أذكر أنني تابعت قولي:ليتك تعلم كيف

أحببت فيك كل شيء، دقة ملامحك، ابتسامتك، وحتى يديك لطالما تمنيتني أحتضنهما في شتاء قارس أدفئهما بحبي لك، بي نار تشتعل حباً لك».

آه يا فياض، تعرف لأول مرة هاتفتني فيها، لم أكن أسمعك للمرة الأولى صحيح، لكن انتابني حينها شعور مختلف، قد يكون لأن الحديث هذه المرة يعنيني، كنت أتوق شوقاً لسماع صوتك كما لو كنت أصم يتأهب لسماع أول كلمة، وكنت أحلم بأن تغرقني بكلمة أحبك حتى لو كذباً، لطالما كنت بحاجة إليها منك، خُيل لي بأنني سمعتها فشعرت لوهلة بأنني بك امتلكت كنوز الدنيا وأنك جعلتني ملكة إمبراطورية عشق لن تكون إلّا لسوانا.

آه لو تدري بعد سماعك أصبحت أشعر بأن جميع الأصوات أجواؤها ملوثة، بل جميعها مزعجة عدا صوتك، فكلما استمعت إليك بنبرتك الرجولية البحتة وبكبرياء الحرف بطرف لسانك، وبين تعالي صداك بين أرجاء كياني أكون كما الفاقد وعيه.

آه لو تعلم بأنني جعلتك مطربي الأول، أحببتك بكل ما فيك بشدة جعلتك الأفضل والأكمل لدي [أتراني]، أحببت الدنيا لأنك من أرقى وألذ أحيائها..!

فيّاض غنِّ لي.

ضحك كثيراً حتى أنني شعرت بأن السماء ستمطر وقال لي بطريقة أقرب إلى الرجاء: أَمجنونة أنتِ، صوتي لا يصلح للغناء أبداً،

اطلبي شيئاً آخر وأعدك بأن أكون ملبياً هذه المرة، قلت له بعتب: فيّاض صوتك جميل، غنِّ أرجوك حبيبي غنِّ لي أغنية طلال مداح أَتذكرها، لأول مرة يجرؤ ويمسك يدي، شعرت حينها بقشعريرة تسري في أنحاء جسدي كافة.

وقال بصوت خافت :أغاني طلال المداح كثيرة، أياً منها تعنين؟

تصدق ولا أحلف لك، تلك الأغنية التي كنت تستمع إليها في أول مرة هاتفتني فيها

-امممم إذن غني معي.

وبـــدأ يغني وكـــل مـــا بـــي يتـــراقـــص حـــبـــاً وعـــشـــقـــاً له.

تـــصــــــدق ولا أحـــلــفـــلـــك
عـــجـــزت بـــلـــســـانـــي أوصـــفـــلـــك
نـــعـــيـــم الـــحـــب فـــــي وصـــلـــك
وانـــــتــــــه كــــريــــــم أصـــلـــك
وشـــــــوف قـــلـــبـــي عـــلـــى يـــدي
وهـــــــوا أغـــلـــــى مـــــا عـــنـــدي
وتـــبـــغـــا زيـــــــادة فـــــي حـــبـــك
أجـــبـــلـــك قـــلـــب تـــانـــي مـنـيـن

..(14)..

آمنت أن الحب دعاء

لست أدري لِمَ نكون في حالة سُكر تام بمضي حب نعيشه في لحظة نختارها الأثمن بأنها لن تعود يوماً، كل ما نريده هو التلذذ بتلك اللحظة وكأننا بها سنضمن أعواماً أجمل!

وبمثل تلك الليلة همست له: لم يعد يهمني ماضيك، فذاك شأن عمر لم أكن به معك، فأنا قد ابتدأ عمري معك وكم أتمنى أن تكون بدايتك معي هي بداية لعمر أجمل، فأنت لي حُب بلا نهاية أو حدود.

لم يستطرد على ماضيه، راح يتغزل بي كما لو كان يراقص قلبي وعمري بهواه، ولا أدري لِمَ أُصر على أن أسميه ماضياً رغم أنه إلى الآن هو حاضره، وأكثر ما أخشاه أن يكون هو مستقبله أيضاً.

فياض عادة لا يتعمد ذكر زوجته لكنه في ذاك اليوم فاجأني قائلاً: بيلسان تعلمين أنني أحبك جداً، صحيح؟

أجبته بقلق: نعم، ولم أشك في ذلك لحظة، لكن لمَ تسألني وأنت تعلم أني أعلم ذلك!؟

حاول أن يتصنع الهدوء ويخفي فضيحة التوتر الذي انتابه لدرجة

تصادم الحروف بلسانه، كان يتلعثم كثيراً ولم أفهم شيئاً غير أنني خشيت النهاية.

-تعلمين أحياناً تكون ظروفنا أقوى، وأن هناك من يعاني الفراق لأن ظروف الحياة تجبرنا على ذلك، لا ألومك لكن البعد إكراهاً بغيض في شعوره، وزوجتي.. وسكت.

شعرت بدوار في رأسي وكما لو أن كواكب الكون تحيط بي من جميع جهاتي، لكنني تمالكت نفسي وقلت: ما الذي تود قوله يا فيّاض.

قال بانفعال غريب: لا أدري، لكن هناك أموراً يجب أن توضح.

فأسرعت القول خشيةً بالذي يدور في رأسه: فيّاض تزوجني.

وجدت في عينيه كثيراً من الصور إلّا صورتي معه، صمت كثيراً وتركني أهذي بيني وبين نفسي، أعرف أنني تجرأت أو بتعبير أدق تهورت لكن إلى متى سأنتظر، سئمت حالاً جعلني أشعر كما لو كنت معلقة، ثم إنه سيحتاج شجاعة كبيرة حتى يضع لي النقاط على الحروف، تعمدت ذلك حتى أعرف منه ماذا ينوي فعله بعلاقتنا، شعرت بغثيان ومرارة تحويان شعوراً بغيضاً أن تشعر بأنك على حافة الهاوية، تأملته يفكر وعيناه معلقتان بي تملأهما دموع تستسمح الفرار، تمنيته يهمس لي بحقيقة جوفه لكنه ظل صامتاً، لا أدري ما الذي فعلته به أكثر من أنني أحببته إلى درجة لا أحتمل العيش من دونه، إلّا أنني أحياناً أشعر وكأنني أتنفسه ألماً، حاولت أن أتحايل عليه حتى أستحثه ناطقاً: حبيبي ماذا دهاك، أي شيء أنت تريده سيكون، فقط قل ما الذي تريده مني أأرحل؟

أمسك يديّ بشدة، فحاله كان أقرب وكأنه يجاهد موتاً قد ينهيه من كل شيء.

لم أتمكن من أفلات يديّ منه فاقترب ووجهه يفيض احمراراً اكتسى لونه كله وهو يقول بصوت باكٍ: عديني بأن لا تتركيني في أي حال من الأحوال.

رغم أنني لم أشعر بأمان إلّا أنني لا أنكر أنني سررت بذاك الطلب ولم أتردد في أن أُجيبه مبتسمة: أعدك.

ولطالما كانت بلواي معه أنه يغرقني في بحر هيامه، عشقته جنوناً وأحببته روحاً التحمت بي سحراً، كما لو أن جبابرة أمواجه فاقت كل المدى، ليته يدرك أن حبه تجاوز كلي، زيفت ابتسامة لأجله وجاهدت حتى أحرر يديّ منه وهمست له: أَتعلم أنني كثيراً ما دعوت ربي يجمعني بك حلالاً، رجوته يجعلك أباً لأطفالي، ليلي كله خصصته لك أُصلي لربي وأبكيه راجية، كل ليلة حاول أنت أن تسمع صدى رجائي يضج محيطي داعياً رب الكون وعون الجميع لعلك به تشعر برغبتي وحاجتي إليك.

«اللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام يا جامع.. يا جامع.. يا جامع اجمع بيني وبين فيّاض على ما تُحب وبما تُحب واجعلني عنده من المكرمين».

سمعته يغتصب قوله: آمين.

لكنني أكملت باكية: فياض، صلاة الحاجة بت أشعر وكأنها فرض

عليّ، قل لي لـمَ بك دائما ما أشعر بتخمة سعادة ختمت بأشد الألـم!؟ تعرف أنني كثيراً ما أستفهم حول إن كان حبي لك حراماً أم حلالاً؟ بت أخاف شدة حبي لك، لمْ أفهم لـمَ أشعر بأنك أُنس حياتي وكل سعادتي، بربك أحبني مثلما أحببتك؟ صرختُ فيه: فيّاض أريد أن أحبك بصورة تبيح لي كل شيء، أَتفهم عليّ؟ كُن حلالاً أستلذ في عشقه وأستطيب من حضنه، بكيت بشدة ولـم أهتم بمكاني ومن فيه.

حاول تهدئتي قائلاً: حبيبتي، اهدأي كل شيء تريدينه سيكون.

أجبته راجية: متى إذن؟

قال وهو يتصنع حالاً من الثقة: كل شيء بوقته يصير، أنتِ بس استهدي بالله وخلينا نقوم تأخرنا.. شعرت بغصة كبيرة تحتضن كلي، وقفت متأهبة للخروج قبله، شددت من حجابي وحملت حقيبتي دون أن أسمع لمحاولاته لإيصالي، وخرجت مشيرة لأول سيارة تقف أمامي، وعدت أجر أذيال خيبتي في فيّاض مجدداً..!

..(15)..

أَحقاً أنت بداية بلا نهاية!؟

لو قلت لكم إن حياة البشر تشبه خطوط السكك الحديدية، فهل تفهمون ما عنيته؟

منذ البداية نفتقد اللغة المشتركة، ليس بيننا شيء مشترك، ليس لديكم تجاهي حتى الرغبة في أن تفهموا..!

لا يهمني، بدأت الرحلة وحيداً وسأنتهي وحيداً(*).

عدت إلى المنزل بحال كاد يقصف عمري وأنتهي من عالم أنهكني ولايزال يؤرقني في كل شيء، ليل دامس في كوابيس الواقع وآه من فجرٍ تحلق فيه الأماني إلى السماء، وفي كل مرة أحتسب طيراني معها بلا عودة إلّا بصبحية يوم عابس!

فور وصولي رأيت أمي وأختيّ ينتظرنني، لم أكن في وضع يسمح لي بالمجاملة أو حتى التهامس بأي حرف، لكنني منذ عرفت فياض وأنا لا أتقن إلّا لبس الأقنعة التي ربما كانت شفافة جداً، اقتربت مني ريمان قائلة: أختي أَكان في حفلكم فقرة عزاء!؟

(*) «قصة حب مجوسية»، الروائي عبدالرحمن منيف.

حاولت أن أتجاهل ما سمعته منها وأنا مُقبلة لرأس أمي أقبّله، ودلفت مسرعة نحو غرفتي إلى أن نادتني أمي: بيلسان أأنت متعبة؟!

سرني سؤال أمي بجوابه: نعم أمي جداً، وتبسمت قليلاً لعلي أقنعهنّ ولو بقليل لم يكن وتابعت: كانت الحفلة تكتظ بمختلف الأجناس، فأتعبني التزاحم ولم أستطع مجاملة جميع الأفراد فطلبت الإذن منهم بالخروج، هذا ربما لأنني أشعر بصداع يكاد يفتك بي ويجعلني أتململ من حالي كثيراً، لذا أمي اعذريني أحتاج أن أخلد إلى النوم.

ـ براحتك حبيبتي تصبحين على خير.

أمي لم تكن من النوع الذي يدفع الأمور إلى الانفجار، لكنها تتقن الصمت إلى حين وهذا ما أخشاه..، دخلت إلى مدينتي رغم أنني أشعر بحيطانها كثيراً من الأسى وخصوصاً جدارها الأسود، قمت بإنارة الغرفة، رميت حقيبتي وعباءتي على السرير والتقطت المنشفة، وددت أخذ حمام ساخن يخلصني من أعباء فياض ولو قليلاً، مررت بجانب المرآة ولمحت الألم يفضح ملامحي... سالت دموعي كثيراً ولكنني لم أسمع نحيبي هذه المرة، ملوحة ماء عيني جعلتني أشعر كم قاسية هي أيامي، خرجت أحتمي بدفء المنشفة، ودونما أن أشعر زفرت بآه وكأنني أتقيأ قليلاً من الوجع، سرت نحو خزانة ملابسي، انتقيت لي منها لباساً قطنياً يجعلني أكثر راحة أثناء النوم وبدأت بتسريح شعري المنساب على أكتافي، وأسهبت التفكير كيف أنني فعلت كل شيء

لأجله فقط، أيضاً حتى بزينتي وملامحي جعلت من كل شيء حسب هواه!

لطالما قال لي أعشق سواد الليل الذي يلمع بشعرك ونعومته الحريرية، لكن بربك بيلسان لا تقصريه يوماً، لطالما تمنيتك بشعر طويل، ربما يوماً ابنتنا ترثه منك وتختلف كل منكما بمن أبدأ بتسريح شعرها أولاً، فتركت شعري واهتممت به أكثر من اللازم.

قال لي أيضاً: لا تغريك الأصباغ، أحببتك طبيعية، جمالك يشدني بمثل ما وهبك الرحمن، فلم أكترث لأي جديد بالمكياج إلّا المعقول منها، ولم أصبغ شعري يوماً لكنه هو من صبغه لي، زرع الشيب في رأسي وكأنه يحذرني العمرَ الذي سأمضيه تفانياً في حبه، كانت أمنياته تحاصرني إلى أن جعلتها حقيقة له، كنت أفعل ما أفعله يومياً لكن بشعور مختلف، شعور يمقت كل شيء لكنه مجبر على فعله، لطالما كنت أتعايش مع كل شيء بحب وإخلاص، لكنني أصبحت أكره كل شيء عداه!

وحينما كنت في حالة هدوء سمعت رنين هاتفي يخبرني باستقباله لرسالة جديدة، أملت كثيراً بأن تكون منه يعتذر مثلاً أو يطمئن على حالي كأقل واجب يفعله تجاهي، **لكن خيبتي به لاتزال تتسيّد كل المواقف ضده،** كانت رسالة من سفانة «**مرحبا يا حلوات بكرا أنتظركم ع الساعة 8 لا تتأخروا ضروري**». وجدت مكالمة لم أردّ عليها من ندى، لكنني لم أكن في مزاج جيد لكل هذا، تركت هاتفي واتجهت

نحو فراشي، وفجأة سمعت صوت بابي يُفتح، ولم أشعر إلّا بأختي نوران تتقدم نحوي وبصوت خائف قالت: ما خطبك يا أخية!؟

عيناك مليئتان بملوحة أكاد أراهما تسلكان جراحاً باتت لكل أزمانك، أَأنتِ بخير!؟ رجوتك بيلسان لا تكذبي هذه المرة، حالك فاضح! لم أستطع تمالك حالي، رميت نفسي في حضنها وبكيت بشدة وكأنني أعتصر كل همومي بحجرها..، هدهدتني وضمتني أكثر، جعلتني أشعر بأمان كبير حتى هدأت..، ابتعدت قليلاً عنها واستندت إلى كرسي وضعته مقابلاً لمكتبي الصغير.

تبسمت لي وقالت بهدوء: إذن، وبعد كل هذا لا يمكنك الفرار بأي حكاية غير مقنعة.

علمت أنني بت مكشوفة أمامها ولو قليلاً فأجبتها بصدق: لا أدري لكنني مشوشة الفكر، قد يكون من ضغط العمل، وتعرفين أن الشروع بكتابة رواية جديدة يحتاج مني كل شيء وكل هذا أنهكني قليلاً، ولكي تشعري بمدى صدقي هناك أمور كثيرة تعلق بذهني وقلبي وأتمنى لو أنها تنجلي بهدوء.

اقتربت مني أكثر وطبعت قبلة صغيرة على جبيني: أختي أحبك جداً، أخشى عليك كثيراً ولا أريد إرغامك على أي حديث تخفينه لكنني أود الاطمئنان عليك، فأنتِ الأمن والأمان بعد الله «أنتِ الغالية» لذا لا تبخسي حق نفسك، ارتاحي وانسي قليلاً فلا أمر كان أو سيكون إلّا بإذن الكريم المنان..، سررت جداً في داخلي، رأيتها تشبهني كثيراً،

شعرت بها كبرت ولم تعد نوران تلك الطفلة التي لا تكترث إلّا للعب.

قلت لها: نوران لا تخافي أنا بخير هي مشكلة صغيرة ستنتهي سريعاً.

ـ أثق بك كثيراً وأعلم أنك ستجتازين كل محنه تُضيّق آفاقك «**ستفرج يا حبيبتي**»، وأرسلت لي قبلة في الهواء ولوحت مودعة: تصبحين على خير.

التقطت قبلتها بجنون ضحكنا عليه وقلت لها: آآه يا أختي أحبك جداً، وجودكِ منحني الكثير من الراحة، شكراً لكِ.

-أوه بيلسان هذا كله دين ستردينه يوماً من الأيام وغمزت لي ضاحكة.

إذن اتفقنا، والآن اذهبي إلى النوم، أراك غداً.

خرجت هي وتسللت إلى فراشي بعدما قررت أن لا أترك فرصة لحالي بالتآمر عليّ، فغلبته بقرصين منوم تمدّدت بعدها في فراشي كقطعة تنبض ألماً وتأن وجعاً.

كان لزاماً عليّ أن أتخلص من تراكمات **فيّاض**..(**ي**) وحدي فلن يدرك أحدٌ مدى عشقي لكيانه!

***

استيقظت بعد الظهيرة، شعرت حينها بأنني نمت دهراً، أملت نسياناً لكل شيء مضى، نهضت أتأهب لحياة يومي، عزمت أن أمضي

مهما كلفني الأمر، افترشت سجادة الصلاة، قابلت ربي بإيمان ويقين أن ليس سواه يُعين، بعدما فرغت خرجت إلى غرفة المعيشة هروباً من أي فكر تعيس يستحوذ عليّ ويقوقعني في كآبة لا تنتهي، وجدت أمي تقرأ جريدة اليوم، سلمت عليها فردّت بهدوء، حاولت أن أثرثر لترى طبيعة حال تعرفه لديّ: أمي تعلمين زميلتي الياسمين قد دعتني إلى معرضها المقام في فندق «الهولدي إن»، تقول ستكون هناك لوحات كثيرة تتمنى لو تحظى بإقبال كبير من محبي الفن التشكيلي فهلّا ذهبتِ معي..؟

أشعر بأنني سأجد فستاناً يليق بصغيرتي القادمة.

أغلقت الجريدة ضاحكة: «بيلسان ما بتخافي ربك وحفيداتي ورق، شو مابدك شوفك أمّ لصغار يملو علينا حياتنا!؟».

-أمي أكيد أتمنى أن أكون أماً وتشبهك كثيراً أيضاً، اقتربت ألتهم تفاحة من سلة الفواكه التي وضعت على طاولة الطعام وسألتها: أمي كيف حالك من دون أبي!؟

لم تستغرب أمي سؤالي قطّ لأنني دائماً ما كنت أسالها في فترات متقطعة، لكن هذه المرة علقت بمرارة أكبر: الحمد لله لكنني أشعر وكأنني فقدت كل شيء بعده.

ـ أمي ألهذا الحد كنتِ تحبينه؟

تنهدت وقالت: لا يا ابنتي، لم أكن، فلاأزال أحبه، والدك لم يكن لي زوجاً فقط هو لي وطن، لا أدري لمَ اقشعر بدني من وصفها لأبي

بوطن، وتساءلت مع نفسي أَمن الممكن أن يكون فياض هو وطني؟ أو من الممكن أن أكون كأمي لا وجود لرجل في حياتها من بعد والدي؟

لم أتردد في سؤالي الذي أعلم مدى تأثيره على أمي: أمي، ألم تفكري في رجل آخر من بعد أبي!؟

أجابتني بغضب: لا.. بيلسان ما الذي دهاك على مثل هذه التساؤلات، تبدين مزعجة!؟

ـ أمي حقاً أود أن أعرف أنتِ امرأة غير سعودية وتعرفين كم كان وضعك صعباً، خصوصاً أنك لم تنجبي ولداً.

ما الذي يمكن أن يحدث بعد وفاة أبي وأنت أمٌ «أجنبية» لثلاث بنات وفي السعودية!؟

بدت لي متوترة حقاً وهي تقول: وما شأن ذلك برجل آخر، «شو بدي بهالدنيا بعد أبوكم غير انتو..!»، فمسألة أن كنت أتزوج بغير والدك كانت ستكلفني خسارتكم جميعاً أو إحداكن، «زوج الأم أو زوجة الأب» مشروع لا يوجد فيه ضمانات على الأغلب.

-وتعمدت أن أسايرها بلكنتها الفلسطينية ذاتها: آآه يما يا حبيبتي.. نشفو دموعك على بابا خلاص لازم تفرحي.

ـ لكن أتمنى لو تحكي لي كيف حصل زواجكما، هل كان بينكما قصة حب؟

تبسمت كثيراً: أحببنا بعضنا بعضاً بعد الزواج، وفي الأساس والدك كان صديقاً لخالك وكأنني فهمت بداية خطبتها: حبيبتي أمي

أَمن الممكن أن تنسيه!؟ أجابتني بأكثر جدية: كان من الممكن أن يكون أسهل لو أُنجب منه ذرية تلزمني به، ولن يكون بمعنى النسيان لكن يمكن أن يكون شيء ما كالتناسي إلى التعايش... حسبت جوابها وكأنها تطمئنني بشأن فياض، لكنني تذكرت «**سارا ويارا**» ابنتينا في يوم من الأحلام!

فعمدت قطع الحوار: أمي، صحيح اليوم سأذهب إلى بيت سفانة عند الساعة الثامنة، أَتسمحين لي يا غالية؟

ـ ولِمَ، أَلم تكونا معاً بالأمس!؟

خشيت سري ينكشف، تلعثمت قليلاً لكنني أجبتها بأن هناك أمراً مهماً لذا هي تدعونا إليه.

-حسناً، بحفظ الرحمن لكن هذه المرة دون تأخير.

قبلت يديها وشكرت طيبها، لا عدمني الرب وجودها.

***

مضيت في قوقعتي من جديد، عزمت على كتابة فصل جديد أمضي به في روايتي التي توقفت عن كتابتها بسبب استهلاك مشاعري ممّن جعلته سيداً لروحي ذاك الشرس «فيّاض»، أمسكت بالقلم وكأنني سأكتب خطاباً قد ينهي أمراً علقني بين السماء والأرض، شعرت أنني هذه المرة أيضاً سأهرب منه إليه، «سأجن وأكتب إليه أكثر من كل الذي مضى».

سأهديه تراجم للحب الذي أخشى به يوماً أنه لم ولن يستحقه

أبداً، لا أدري، لم أستمتع أحياناً وأنا أكتب بقسوة تجاهه، ولمْ أفهم بعد لمَ أستلذ، وجداً، بتآمري مع رفاق لطالما سخرتهم له، أَهو استحثاث أمن لطالما انتظرته بحرف لم يُنسج إلّا له؟!

أخشى أن أفقد اللغة إلّا لغة حبه، أتألم حينما أستذكر أوراقي الصفراء التي لم تطبع إلّا ترجمة مشاعري له، أحياناً أشعر بأن لا ورق ولا قلم يفي للحب الذي أحمله له، أشعر وكأنني أُبالغ في هواه، لكن لم لا أستطيع الوقوف عند حد! أَأعتزل الكتابة؟! يا الله لِمَ جعلتني مجنونة به؟ لِمَ أبليتني بعشقه؟

فيّاض بت أشعر بأنك داء خطير! رغم أنني أعلم أنك حينما تقرأ يوماً ستشعرني كم أنت أُمّي، «جاهلٌ لا تقرأ وقد تكون أيضاً لا تسمع»، فلا غيركَ يُجيد الهروب وتعدي الخطوط التي تستوجب وقفة شجاعة أظنك تفتقرها.

لكن هذه المرة فقط فيّاض بربك أجبني، لِمَ الرجل يكون عاقلاً أثناء حالٍ تكون فيه الأنثى مجنونة؟

أستغرب كيف أنّ الرجل في بداية الحب يكون فاقداً لعقله كلياً والمرأة تتلون حيرة بين قلبها وعقلها، وبينما هي باعت عقلها بأبخس الأثمان يشتري الرجل عقله ويبيع كل شيء، أَغبية هي الأنثى!؟ أم خبيث هو الرجل! شعرت بعد كل ما كتبته بأنه يتوجّب عليّ صُنع حياة أخرى تنتشلني من وحل الحب إلى سماء الحقد، لم أفهم بعد كيف لك أن تجعلني أقسو على نفسي بسببك، أَحقاً أنت بداية بلا نهاية.

..(16)..

وأدركت أن ما بين الحب والحب «حب»

[الكلام لا يستعمل دائماً للتعبير عما في النفس، إذ يستخدم أحياناً لإخفاء ما في النفس، والإنسان لا يمكنه أن يختبئ خلف جسده وإن كان بإمكانه أن يتوارى خلف كلامه](*).

لست أدري ما الذي يمكن أن نكون به بعد، كل شيء لا شيء.. فالشيء أحياناً هو الأشد جرماً على أحوالنا.

***

خرجت قبل موعد لقائنا بمنزل سفانة بساعة، خطرت في بالي فكرة أن أزور مكتبة الأحلام لشهرتها بأنها ثرية بالكتب الممنوع بيعها في السعودية، كانت في وسط المدينة عند طرف الشارع المؤدي إلى طريق الجامعة، وبينما كنت أنتقي لي بعض الكتب أحتاجها لإعداد دراسة سأعتمدها عن «الفارق في المجتمع بين الأمس واليوم»، لم أنسَ صديقتيّ، حاولت أن أنتقي لهما بعض الكتب بعناية فائقة وخصوصاً لندى لأنني أعلم أنها ستنفجر مللاً، فهي مقلة جداً أشبه بأن

(*) الفراسة: «كيف تقرأ الآخرين».

تكون فقيرة في القراءة لكنها تسمع كثيراً وتجادل أكثر، تُثقف نفسها بين ما تسترقه من أي شخص تصادفه، دائماً ما كانت تقول لي: لم أقرأ إلّا بسببك، ولأجلك فقط أحببت الروايات ولكنني لن أقرأ إلّا لكِ.

تتعمد أن تُحلّق بي في سماء الزهو بذاتي وبإنجازاتي، تقول أيضاً: تعلمين بيسو لن يكون هناك قارئٌ وفيٌّ كحبيبتك ندوش، «سأقرأ لك وحدك» بس واللي يرحم والديك الكتب تجيب الكآبة.

هي لم تكن مثلي أو حتى كسفانة في عشقنا وتلذذنا بالقراءة رغم أنني مؤمنة بعلاقة الرسم بالكتابة، وغالباً من يكتب يقرأ وإن كنت أكتب أكثر مما أقرأ، لكنني بت أشك بعلاقة الربط بين الفنون وأنها ذات جسور مشتركة.

أَندى طفرة جينة ضاعت في أوساط كثيرة؟

كأن تكون شِباك الحروف بين أوراق براويزها ضد الكسر وأغلفتها لوحاً، وخربشاتها ذات ألوان داكنة!؟

لطالما كانت تقول لكلتينا، «أنا وسفانة»: لم أرَ عشقاً وهوساً كحبكما للقراءة، شغفكما هذا أحياناً يُصيبني بالملل.

ولم تدرِ أنني كثيراً ما أعتبر بأن أي منزل خالٍ من الكتب هو حقاً خالٍ.

إذن هي قناعات، ومع هذا كنت أُصر على أن أهديها بين فترة وأخرى كتباً أشعر بأنها قد تطيب لمزاجها، فابتعت لها كتابين أحدهما رواية ذاكرة الجسد لأم الأدب «أحلام مُستغانمي»، تخيلت بأنها

ستحبها كثيراً خصوصاً وأنّ أبطالها ما بين الكتابة والرسم (شيء مني ومنها) والآخر ديوان شعر لنزار قباني «أحبكِ.. أحبكِ والبقية تأتي»، لأنها دائماً ما تهمس لي «أحس محد موديك بداهية إلّا شاعر المنحرفين» وعمدت أن أضعهما في علبة غلفتها بالورق الأبيض واستعرت قلماً ذا خط عريض أحمر اللون وكتبت سطوراً من قصيدة له من ديوانه «قصائد متوحشة» حسب ذاكرتي، لأنني متأكدة بأنه قد غناها القيصر «كاظم الساهر» فكثيراً ما أحببناها أنا وندى:

أحبك جداً
وجداً وجداً
وأرفض من نار حبك أن أستقيلا
وهل يستطيع المتيم بالعشق أن يستقلا

وما همني
إن خرجت من الحب حياً
وما همني
إن خرجت قتيلاً

أما سفانة فاخترت لها كتابين أيضاً، أحدهما فلسفي يتحدث عن الفكر البشري كانت قد طلبته مني «خوارق اللاشعور» للدكتور علي الوردي، ورواية كانت من الروايات التي لم أستطع إتمام قراءتها لتأثيرها النفسي عليّ لواسيني الأعرج في مرثيته «سيدة المقام»، وهذه المرة

اعتمدت أن أغلف علبة سفانة بورق سماوي اللون وكتبت عليه بقلم الرصاص سطرين مما آمنت به وبشدة من كتاب «خوارق اللاشعور»: «إن العقل يقتبس من الحقيقة الخارجية جزءاً ثم يضيف إليها من عنده جزءاً آخر ليكمل بذلك الصورة كما يتخيلها، وهذا هو الذي جعل كل فرد منا يحمل معه فهمه للحقيقة كما يحمل حقيبته بيده».

وبينما كنت منهمكة في وضع العلب لكلٍّ منهما على حِدةَ في كيس أميزه للاثنتين رن هاتفي، وأجبت مسرعة: أهلاً ندى..

-أين أنتِ تأخرت عن الوقت بساعة؟ أود أن ألتهم أخبارك بعد الأمس.

قاطعتها منهية الحديث: أنا في طريقي إليكما، ألّا تريدان بعضاً من الحلوى؟

كانت تحدثني عبر مكبر الصوت فأتاني صوت سفانة غاضباً: لا، كل شيء موجود فقط كوني أكثر استعجالاً.

ـ على أمرك حبيبتي، دقائق وأكون عند باب بيتك.

أقفلت الخط وطلبت من السائق أن يتجه إلى بيت سفانة، كان الشارع مزدحماً وبشدة، استنكرت الشوارع التي باتت مكتظة بسائر الأجناس، أُناس يترنحون ويتمايلون حسبتهم صدقاً سُكارى! كيف يكون ذلك واليوم هو الجمعة والساعة تشير إلى التاسعة والنصف؟! وما الذي حدث أهو اليوم الوطني الذي مضى على احتفالاته شهران!؟ تجاهلت السبب خصوصاً عند مروري بأستاد الملك، ورأيت حشداً

غفيراً مصبوغاً بلوني العلم الأخضر والأبيض، فلم أبالِ أكثر غير أن أصل بسلام دون تعثري بأحد الهمجيين والمتلاعبين بحجة التعبير عن فرحة انتصار كروية قد تؤدي بشوارعنا والمارين فيها إلى الدمار، غير أنني لم أنسَ ما الذي افتعلوه في يومنا الوطني، سئمت احتفالات قد تسيء لأوطاننا بحجة الاصطباغ بمشاعر الحب والانتماء للوطن وكأننا لا نكون كذلك إلّا حينما نُفسد ونتماثل بهيئة السكارى، أو حتى بشأن فتيات تعرّيْنَ من الحياء، تمايلن وسط صخب وصفير لحمقى يتلاعبون باسم الحب للوطن، خشيت أن أتأخر أكثر من اللازم، طلبت إليه أن يسلك الدرب المختصر لأبتعد عن الازدحام.

الحمد لله وصلت إلى منزل سفانة بسلام لكنني تأخرت كثيراً عن الوقت المتّفق عليه، استقبلتني الخادمة، دخلت إلى مجلس الضيافة، وجدتهما متكئتَين تنتظران دخولي، أقبلتا عليّ غاضبتين وبصوت واحد: وبعدين معاكِ والله تأخرتِ كثير وين كنتِ فيه!؟ تبسمت وألقيت السلام ووضعت الكيسين على أقرب طاولة، أزحت الحجاب عن رأسي قائلة: كانت الطرق مزدحمة، فاليوم مباراة والشعب بأكلمه في الشارع، احتضنتني كل منهما وهما تعبران عن شوقهما إليّ، وبعد بداية اللقاء جلسنا نتبادل سير الأحداث عند كل واحدة منا.

ابتدأت الحديث سفانة: ها يا حلوة ما الذي حدث بالأمس مع فياضك.. احكي، ناولتني ندى فنجان القهوة وقطعة من الشوكولاه وهي ترميني بالسهام: والله ينخاف منك إنتِ آخر مرة تطلعي معه

وجهك يقول في مصايب صارت «يلا غردي»، تنهدت وأجبتهم بحزن كبير: ليتني حقاً لم أذهب، تناثرتا سريعاً حتى أصبحتا أمامي: نسمع والله نسمع تكلمي أيش اللي صاير!؟

بدأت بسرد تفاصيل اليوم الذي خيب آمالي بحبيب قلبي، استمعتا إليّ بذهول وإنصات مريب، لأول مرة أشعر بأنني نفضت سري بأكمله دونما أي مقاطعة تُبقي في جوفي شيئاً ما وكأنه يجثم على صدري، فجأة وجدت ندى تبكي بحرقة وبحالة هستيرية تصرخ بنا قائلة: ما الذي بعد سنفعله بقلوبنا، لمَ لا ننساهم ونمضي بحياتنا، أَلهذا الحد عشقناهم وكأنهم روحنا، صدقوني لكم تمنيت الموت كثيراً ولكم ادعيت النسيان في كل صباح ولا يأتي الليل حتى تبعثرني ذكرياته.. عَلا صوتها أكثر وهي تقول: أَقلوبنا لُعبة؟! لمَ تلاعبنا بها وكأننا رخصنا بها وزهدنا الحياة لأول عابر طريق؟! حقيقة، في ذلك الحين لم أستطع إلّا أن أجاريها في البكاء حتى هدأنا جميعاً، سفانة كانت تبكي بصمت إلى حين قالت فيه: بيلسان هو يحبك صدقيني لكنه إلى الآن يخشى المواجهة الصعبة، إن كان ذلك سيؤدي بحياته صوب الجحيم لذا لن يخطو خطوة ارتباطه بك بسهولة.

قاطعت ندى حديثها بانفعال شديد: لا يا بيلسان لا تؤمني بأن الحب كما كتبت عنه يوماً أو حتى كما قرأتِ، الحب في هذا الزمان بات أمراً أكثر هزلاً «المصداقية ماتت».

فردت عليها سفانة: لا يا ندى، الحب في حكاية كل منا لم ينقصه

الصدق قطّ، الظروف هي السبب، خذي مثلا أنتِ «أَتجهلين تفاصيل حُسام وبمَ كان يُفكر وينوي فعله»، حتى يوم قرر أن يتزوج بغيرك أخبركِ ثم رحل، أو أنا أيضاً كان صادقاً إلى أن تلاعبنا به بحديثك وإياه أَتذكرين؟!

شعرتُ بندى وكأنها ستثور بكاءً أشد من الذي مضى، تمالكت نفسها وهي تجيب: أذكر ولم أنسَ أيضاً أنكِ حينها من اقترح عليّ التواصل معه غير أنني لم أخدعه سوى أنني قد وعدته بأن أساعدكما على الزواج، هذا قبل أن نعرف من أين أتى، بعد مضي أعوام، ليست بالقليلة؛ خمسة أعوام كنا فيها، ثلاثة منها نجهل من هو فواز والعامان الأخيران بين شد وجذب على أن يكون هو من عرقك ذاته وكذلك من لونك، لم أكن خبيثة عندما حاولت أن أطلب منه صورة ترينه فيها، بربك سفانة أَكنتِ ستمضين بحبه من دون أن تعرفي صورته الحقيقية، فأي حب ستعيشينه؟! ناقصة هي صورة الحب لديك ولم تكتمل إلّا بمعرفة شاملة لفواز!

لمْ يخب ظني بحبك له حتى يوم علمت بأنه أسود لأنني حينها علمت بأنك أُغرمتِ به حد الثمالة، سفانة أَتظنين بي سوءاً نظراً لواقعيتي فيما قلته لفواز بعد شهر من صورته الحقيقية!؟ قلتِ لي: إنني كنت قاسية جداً معه متناسية أن الحقيقة غالباً لا تلبس أكثر من ثياب القسوة رغم أنها تحتاج الكثير من الزينة لعلنا بها نرضى.

أتيتِ إلينا متهجّمة حينما أمرناك بمقاطعته، كل الذي رميتنا به

قولاً: لا شأن لكما بي بعد اليوم، وعزمتِ أن تمضي بعلاقتكِ معه مهما كلفك الأمر، ظننتِ يوماً يجمعك به زوجة متناسية لونين اختلف عليهما المجتمع، فالأسود لا يقبل به إلّا أسود، قاطعتني مدة ليست بقصيرة ولا هي بطويلة لكنني بها افتقدتك كثيراً ولطالما أبغضت فوازاً وحبه، لا تفكري بأني يوماً دعوت الرب بأن يفرق شملكما، لعلك تحسبينني سبباً لهذا الفراق، لا والله لكن علمت يوماً ستقاسينه بحبه وفراقه الموجع، صحيح أنه صدق معك بحبه لكنه أخفى حقيقة لونه وعرقه منذ البداية، أحياناً الحب لا يخفي كل الحقائق، فواز دعاكِ إلى الحب دونما وعي لحياتك بعد أخطر خطوة تمضينها بروحك، لم يكترث بشأن حياتك بعدما اتّضحت كل الألوان، لا أتحدث بلغة التفرقة هذه للتجريح أو قصد إهانة، أنا فقط أتحدث بلغة المجتمع، بصوت أبيك وقبيلتك يا ابنة الحسب والنسب، صدقيني فواز حينها لم يفكر إلّا بلحظة حب وفقط شأن حال البقية، لم يأبه به ولا أنتِ بعدما علمت كل الحقيقة، ظننتِ الحب كل شيء، نسيتِ حكايتي بحُسام، لم تستفيدي من جراحي بحبيبي المشكوك في أصله والمعلوم لونه!

كنت أستمع وأنا بين تناثر قلبي على مرأى أعين الجميع، لم أحبذ الدخول في المواجهة التي انتظرتها طويلاً.. سفانة كانت تذرف الدموع دونما صوت «أخذت يديها بشدة وهمست: تكلمي أو اصرخي لا شيء يستحق ضغط أعصابك لتحتوي ألماً وتحتضن وجعاً كهذا» قولي شيئاً أرجوكِ.

ندى علمتْ أنّ سفانة تحتاج منها كلمة تجعلها تنفجر: ها سفانة أَتلومينني أيضاً على رفض والدك لفواز؟! بكت بشدة وجاهدت لتصرخ: لا، لا أعلم أنني السبب في كل الذي حدث، لكنني أحببته، أَلا تعرفين ما هو الحب!؟ أجابتها بالذي لم أتوقعه قطّ: بلى أعلم جيداً، الحب هو فياض بين مجلدات وأوراق مبعثرة ضمتها بيلسان في كُتب تخليداً لحب أخشى أن تنبذه طوال حياتها، لحب ترفض نسيانه وتسعى لوضعه بصمة ألم ووجع لا ينتهي من رحم حياتها.

تأبى صديقتنا أن تلد حباً أو حياة أخرى تعيشها بلا فيّاض، وقلمها الذي لم ينزف إلّا له جعلته وشماً على دروع نجاحاتها، فلا سطر كُتب إلّا وخلفه فيّاض، حباً يشهد ابتهالاتها ليلاً بدعوات تؤمل منها قبولاً وكأني أسمعها تناجي الرب، يارب رجوتك قربه بما يرضيك، ربي لاتذقني فقده وألم غيابه، يارب أسألك طفلاً يحمل اسمه وأشباهه.. وأكملت بصيغة أمر تقول: اسمعاني جيداً، لستُ ألوم أياً منكما على حبٍ كان، فنهاية الحُب بعيدة مثل بدايته، كرسائل كُتبتْ على الماء ومُحال أن تصل، وهذا الذي لم نُدرك استيعابه في الحب.

صمتنا لدقائق لا أدري كم هي، لكنني أول من تحدث بعدها فقلت، آه يا ندى، صحيح لم أحظَ بجنة حب معه لكنني شعرت أن جنون إحساسي به قد وصل وقد جعله يحلق إلى سماء ثامنة، وذاك شيء يغمرني بلذة تأخذني إلى حيث لا أعلم، أعلم أن فيّاضاً كان ضحية زواج تقليدي، وأدرك أيضاً أنه قبل زواجه بابنة عمه كانت لديه

قصة حب عظيمة دامت لأربعة أعوام انتهت بلا زواج فقط لأنها ليست من صلب العائلة التي بت أراها سقيمة، ولا أستطيع أن أخفي حقيقة تخوفي من أن يكون مثلما كتبت له ذات مرة فغضب كثيراً وغاب عني قرابة الستة أشهر، لاأزال أذكر ورقة صفراء دسستها بين كتب بعثتها له إلى مقر عمله:

[أَأَنا أنثاك حقّاً!؟ أم أنني مجرد حائط يمكن أن يخلق منك شخصاً جديداً، إنساناً آخر قمع فيّ كل ماضيه ورحل، كل ما أخشاه أن تنفث في وجهي كل ماضيك وتركلني عند أول تقدم بمستقبلٍ يُعيد ذات الماضي ألذ من كل جديد].

شعرت أنني لم أثق به يوماً ولا أدري ما السبب الذي دعاني إلى كتابة تلك القنابل له وإليه. فيا لبؤسي، أظنني السبب في ذاك الغياب، فلأنني قلبت الورقة وكتبت له: أكثر ما أخشاه بأنك رجل لا يؤتمن في الغياب، لطالما أتقنت لعبة التخفي وكأنما الحياة بلا تواجد يستوجب الحضور.

تعلمون أحياناً أنني أتخيل فيما لو كان من السهل الرحيل كما لو مودّعين «في أمان الله»، برغم أنني لا أنوي الابتعاد ولا أتمناه، فقط لأنني أخشى بأن أستيقظ في يوم أدرك أنه غادر حياتي، يشغل ذهني كثيراً بماهية حبي له، فأخاف القرب مثلما أخشى الابتعاد وأكثر، أَغريب هو الحب أم أنا الغريبة!؟ بت أتساءل حقاً كيف لو أنني كنت بلا قلب!؟ أَمن الممكن أنَّ حواسي تعشقه بمثل ما تضمه فيّ وتحبس أنفاسه بداخلي حتى أكاد أتنفسه!

آه يا صديقتاي كنت برغم كل هذا أخشى فراقه وكأنني أنبذ الحياة من دونه، ترى هل ينتقم من زواجه وحياته لضياع حبه الأول بي؟!

أذكر مرة سألته: فياض أَحقاً لم تحب زوجتك يوماً!؟

ضحك كثيراً وأجابني ساخراً: همت بها كثيراً ولم أفكر بالارتباط بغيرها إلّا عندما رأيتك!

قلت له: دعك من السخرية وأجبني بصدق، كيف لك أن تعيش مع امرأة لم تحبها يوماً... حبيبي أفهم أنا بأن الراحة هي نوع من الحب غير مباشر، فالحب ليس بالضرورة أن يكون عشقاً، المهم أنه هو الأساس في استمرار حياة ولطالما قلت لك بأنني كثيراً ما أؤمن بأن الحب هو الحياة، فاشرح لي كيف لك أن تُشعرني أحياناً بأنك لا تودها أبداً.

تغير صوته وأصبح هادئاً: بيلسان أنا لا أكرهها أبداً، وقد أكون أحببت الهدوء الذي اكتسبته من زواجي بها، لكنني لم أعش الحب الذي أعرفه، صحيح أنّ زوجتي منحتني أجمل ما في حياتي، ولا لغيرها أن يكون، هم «أولادي» لكنني أفتقد الحب، نسيت معها العشق وكيف يكون، تعلمين بيلسان لم أنسَ نوال يوماً، وتلك الذكريات وحدها التي تؤكد لي بأنني لم أحبها يوماً.

غرت كثيراً حينها وشعرت بخوف يلتمس جوفي كما لو كانت نيراناً تغتال مدناً في أرجائي، أدركت أنه يحب أم أولاده حقاً لكنه يتهرب من الحقيقة تلك لأنه لا يود نسيان الأولى، رددت عليه كما لو كنت صديقة: والآن أنسيتها؟

أجابني سريعاً: لا ولن أنساها ما حييت.

ولم أتردد بأن أعود تلك العاشقة، فجنّ الغيرة يتلبسني: وأنا ماذا أكون إذن؟! أرى أنّ كلاً من نوال وأم أولادك لها نصيب من جملة حياتك وإن كان نصيب الأولى أكبر من أي شيء، فيّاض قل لي الآن من أنا بالنسبة إليك وما مكانتي بين نسائك؟!

صرخ بي قائلاً: أَمجنونة أنتِ، تعلمين أنكِ الحب الذي منحني كل شيء، لذة حياة وسعادة أتمناها لا تنتهي، وحدك من غمرني بطعم حلاوة أخشى أن أفتقدها، اسمعيني هذه آخر مرة أراكِ فيها تسألين عن مكانتك أو حتى تقارنين ذلك مع أي كان، ولتعلمي أنّ كل واحدة منكن لها مكانتها ولا أظن بأنها يوماً ستتغير.

أنهى حديثه مودعاً وتركني أستفهم: كيف له أن يعيش بين نساء كثيرات كلٌّ واحدة منهن حظيت بحب لم أفهمه قطّ، أَحقاً الرجل قادر أن يحتضن في قلبه أكثر من أنثى؟! هذا السؤال الذي تمنيتني حقاً أجد له إجابة.

***

شعرت بأن يومنا كان متعباً للغاية، بعدما استمعتا إلى آخر حديثي وقبل أن تدعونا والدة سفانة إلى العشاء، قدمت كل كيس إلى صاحبته راجية أن ينال ولو قليلاً من الرضا وخصوصاً لدى «ندوش»، على الأقل ختمت ألم حديثنا بهدية بسيطة أتمناها تمحو آثار السهام الملقاة على أرواحنا، بعدها أقبلنا على سفرة شهية مكتملة إلّا بوجوهِ فرحة.

«أَينطق الحزن فينا أكثر من اللازم!؟».

خشيت الفرح لو أتانا يوماً مخطئاً يبكي!

أسهبت النظر كثيراً في أحوالي وصديقتيّ فندبت حظاً تعيساً عانق روح كلٍّ منا.

أرجوك إلهي، أغدق علينا فرحاً يروي أرواحنا المتهالكة.

..(17)..

ولوجع حبه كان كل شيء..

غاب فيّاضي على أمل عودة تمحو لي آثار خيبة جعلتني وحبي على حافة الهاوية، هجرني طوعاً لأنه يظن أنني تماديت بأحلامي معه، غاب عني ليعلمني كيف ألفظ أنفاسي من بعده، فياضي الذي أدمنت لم يكن إلّا قاسياً معي، تركني أتضور عشقاً وأتلوى ألماً من بعده، أتعثر وأغرق في محيط هواه، ويلي من ذاك الذي من بعده أعتصر حياة داخل قوقعة مريبة كلما غاب عني أكتنز في داخلها.

***

من يوم ميلاد فيّاض إلى شهر بعده بت أشعر أنني لم أعد أنا، صحيح أنني لاأزل أحبه وبشدة قد تكون أعظم مما سبق، لكنني أيضاً تيقنت بأن الكثير لديّ يحتاج إلى جبر كسر قد يعاودني في الحياة من جديد إلى غير ذاك القديم... يا الله لم أتخيل أنني يوماً أتمنى حقاً جديداً غير فيّاض، وهل من رجل آخر، فوالله لم أجد رجلاً يصل مداه، أو أنّ المشكلة هي أنه أول رجل اقتحم حياتي، سلبني حياتي وأخشى حقاً أن يكون قتل هنائي! لِمَ ظننت بأنه الوحيد من سيهبني سعادة حياة

وأملاً لا ينجلي، لِمَ فقط شعرت به كما لو أنه النبض والإحساس الذي به أصبحت أعيش!؟ لا أدري حقاً لِمَ أجرمت في حق نفسي على حسابات لم أتمكن من تصفيتها إلّا وأنا أقود نفسي إلى التهلكة!؟

فيّاض كنت لي كل الهلاك..

منذ البداية كنت رجلاً غيابه نهش روحي بالرغم من أنك تحاول تدعيم ما كسرته في داخلي بحدة التصاق، وكأنك تكرس حضورك بشدة غيابك.

لم أفهم بعد كيف لك أن تلازمني أحياناً وتغيب عني غالباً، فبربك أي حياة أعيشها معك!

قل لي ما السبب في أنني وجدتك كل شيء، في حين جعلتني لا شيء بدونك.

أَهو الحب فقط؟!

لا أظن.. أنا بك أعظم من أن يكون الحب هو سر علاقتنا..، عشت بك ومعك بما يقتضي كوناً لا يحوي سوانا بشيء ما لم يخضه غيري معك، لا الحب الذي هتك أرواح الكثير ولا هو العشق الذي مات بعده أَجَنُّ العاقلين! أنا وأنت مملكة تجول في سمائها أرواح تعتنق الحب الأبدي كخرافة لم تلد على قلوب كغيرنا، حبنا الذي يحتاج جنوناً يفوقه كثيراً حتى يهدأ.. وإلّا بثورة عشق تكتم أنفاسه وبالكاد يموت، حبنا الذي لم أعد أدرك إن كنت به معك فقط أعيش رواية أم ماذا!؟

آه يا فيّاض ذاك الحب الذي تعرَّت به الحقيقة الأكثر إجحافاً لي هي بأنني لا شيء من دونك!

لكنني سئمت كل هذا وبتّ أحتاج بأن تلزمني قوة تضاهي حبك الذي بات لي ألماً ووجعاً لا ينتهيان.

أَتصدق بأنني أكرس نفسي لتهذيب مشاعري وتدريبها على التناسي الموقت، سأعَوّد روحي على غيابك وسأمتهن الكراهية إلى حين أنبذك وألفظك خارج روحي!

أتعلم، حولني حبك إلى أنثى شرسة قد تدمر مدناً تسكنها بأكملها.. أنثى ستتحدى حبك على أن تعيش أياماً تجيد بها تصنُّع كرهها لك فلعلها ترضى عنك بعد عظيم خيبتها بك.

أَرأيت كل ذاك الحب؟

كان لي كجرعات من الوجع القاصف لروحي والهادم لطبيعة حياتي.. معادلة صعبة هي تلك التي تجعلني ممتلئة جروحاً لمجرد الشعور بأنني أحتاج إليك.. وبسببك أُصبت بوعكة حب نظراً لشدة إفراطي بجرعات من فيتامين النسيان الذي ألتهمه كلما فاض عشقي بك، كدت أموت أنا حقاً ولم يصب عشقك بأي نقصان. ضد النسيان هو حبك...

باقٍ هو إلى الأبد.

أي عشق هذا الذي أراه صامداً بجبروت الحياة يعتصرني ألماً ويخنقني حباً ولا يزال يتنفس..، أحسدك أحياناً عليه «ملكته وسلبتني حياتي معه».

فيّاض، بعد يومك ذاك، لأول مرة أتقن القراءة وأتعايش معها لنفسي، فبعدك عدت إلى الكتب النفسية أنطوي بين صفحاتها لعلي أجد حلاً ينهض بي وحياتي إلى النعيم. كنت قد قرأت دراسة وجدتها في كتاب يلخص عدة دراسات نفسية منها: أن للإنسان عَقلين! عقلاً داخلياً ويكون أذكى وعقلاً خارجياً أقل ذكاء! يستخدم العقل الخارجي عند الكلام ويستخدم الداخليّ عند الكتابة والتفكير بصمت! لذلك فإن أكثر الناس يستطيع التعبير بالكلام أكثر من الكتابة! [يقولونَ مالا يفعلون]، فعندما يقولون فَهُم في حالة العقل الخارجي، الذي يدرك أنه يكذب! وعندما يفكّر بالعقل.. الداخليّ بصمت فإنه يتيقن أنه لن يفعَل ما قاله، فأنه يوبخ نفسه على ما قاله [زلة لسان] وبالعكس، ألم تتعَرف على شخص عن طريق المحادثة الكتابية، وعندما قابلته وجدت أنه شخصية أخرىّ عندما تتحدث معه؟![*]

وبك لم أحتج إلى شخص آخر يثبت التناقض في ذاتي، وحدي من يعلم أنني كنت معك شخصاً لا يفقه سوى أنه بالحب يعيش، لذا كنت أجاهد في الحفاظ عليك بينما كنت أنت تتعمد إهمالي، وما يقتلني حقاً أنك تحبني.. فأي حب تعرفه أنت!؟

إهمالك دمر كل شيء.. جعلني أنبذ نفسي لحبها لك وأكتم

(*) [(فلسفة علم النفس الحديث)، دراسة أجريت في جامعة وينف ستورايد الهولندية ترجمها الأستاذ مشعل الجرباء مؤسس الجمعية العمومية لطب النفس].

أنفاسي لأنها لا تشتَمُّ إلّا رائحة عشقك، كنت لي فاكهة حياتي بل بستان ربيع قلبي، فكثيراً ما قلت لك إملأ شريان قلبك بالحب فالحب هو الحياة، لكنك جيد في ملء قلبك بالكِبر على من يهواه أكثر من أي حب ينقيه من شوائب الحياة، أَمُلِىءَ قلبك بالنرجسية!؟

أي ذكر هو أنت..؟

لطالما جعلتني أتغنى بأنني سأنساك لكنني لم أنسك حتى الآن.

أألصقت بي جريمة كذب.

أتبرأ منها كما لو أنه خانني التعبير فمن المستحيل أن أنساك.

لو فقط تـدرك أنه رغم إيماني الشديد بمعرفتي حروفها وإتقاني كتابتها إلّا أنني إلى الآن نقشت حروف (النسيان) كثيراً على أوراق رويتها بوجع حبك وعذابات أحلام بك لم تكن قطّ لتنتهي وأنا أنثى لا ترجو إلّا أن تعيش مع بقية أحلامها في أمان.. فهل هذا مُحال!؟

***

سرني الجنون الذي بعثته لي سطوراً من رواية عابر سرير للسيدة أحلام.

لاأزال أحتفظ بورقة من سجل العيادة كتبت عليها بقلم الرصاص ما شعرته حينها بأنني قد أجد حلّاً يَفْتُك بي حُبَّ فيّاض، وليتني من بعده أعيش!

[حب نكتب عنه هو حب لم يعد موجوداً].

وأكثر ما أتقنته معك هو فن الكتابة، وإلى الآن لم أجد غيرك يكتنز في داخلي ويسكن هواه أضلعي، خشيت مجلدات حروفها لا تعني إلّا أنني أتقنت لغة اسمها فيّاض.

[هناك مدن نسكنها ومدن تسكننا.. أجمل حب هو الذي نعثر عليه أثناء بحثنا عن شيء آخر].

كثيراً ما يحبطني حينما أشعر أنه لا يمكن أن أنتهي من فيّاض إلّا بفيّاض آخر، وأنت لاتزال الوحيد القاطن في مدينتي فلم يستوطنني غيرك.

أفعلاً نهاية عذابات الحب لا تكون إلّا برياح تعصف بحب آخر!

وآمُلُ بأن أجد آخر قد يُحيي لي آمالاً جديدة بعيدة عنك يا فيّاض.

[الوطن ليس مكاناً على الأرض إنه فكرة في الذهن، ما خلقت الراويات إلا لحاجتنا إلى مقبرة تنام في أحلامنا الموءودة، ثمة موتى نواريهم التراب وآخرون أحياء نطمرهم في وحل مخازيهم].

خفت كثيراً بأن أكون قتلتك بكل شيء كتبته لك وعنك، فيّاض تلبسني جن الحرف وكتبتك وطناً يحوي عشقاً لم ولن يكون إلّا لك، لكنني أيضاً أحتاج ميتةً لحب أسرني كثيراً «فحررني من قيود عشقك حتى لو شهيدة».

[الحب يجلس دائماً على غير الكرسي الذي نتوقعه بمحاذاة ما نتوقعه حباً، ثمة كتب تضعك أمام اكتشافات مذهلة تكتشف فيها نفسك ومساحات منك لم تكن تعرفها] لذا كتبتك أول مرة.

وكأني خشيتك تجهل نفسك إلى ما لا نهاية، وكل ما أحتاجه الآن وبعدها هو أن تتعرف إلى نفسك..، نفسك تلك التي عذبتني ووسمتني بسوط الحب كما لو أنها تطبعك على جسدي حقيقة لا يمكن أن أنساها.

..(18)..

أَتغير لون القمر..
أم أنك لونت ليلي..!؟

فاجأني رنين هاتفي بصوت لم آلفه إلّا لأنّ فياض يعلن تحليقه في سمائي، لكن أَصدقاً هذه المرة سيكون هو!؟

أَلَطَف بي وعاد حقاً.. أَسَمِع أنيني ونحيبي وهو يصرخ مكتوماً في أرجاء مدينتي التي باتت مظلمة وكئيبة يوم شرع لي بغيابه عني وعنها!

آه يا فياض لكم كنت قاسياً وجداً..

سبقتني لهفتي والتقطت هاتفي في حين تركني أقرأ، ومن دون استيعاب شككت بقواي العقلية.

يا الله أَهو فياض.. وماذا؟! هل فعلاً اشتاقني..!؟

وجدته يقول لي.. بيلسان أَأنتِ بخير افتقدتك بشدة.. كيف هي أحوالك؟

بكيت بشدة لم أحسبه يوماً سيفتقدني أو حتى يسأل عن أحوالي..، أَفعلاً أنا أهمه.. أَيهتم لأجلي أم أنه فقط اعتاد على رفقة غمرته حباً وأحاطته وداً في يومٍ لن ينساه..، لم أكن بحال يسمح لي بالرد عليه..

تركت هاتفي جانباً وهممت إلى مكتبتي، فغداً هو ثالث مؤتمر أعده، فأحببت أن يكون عن «كيف يكون لغذائنا أثر على نفسياتنا»، وهروباً منه انغمست بأوراقي إلى حين الورقة الثالثة حيث وجدت شيئاً ما يشبهه، أسهبت بقوة حضور ذاك الرجل..، عجيب هو حبه وبينما أنا غارقة به.

أفزعني رنين الهاتف معلناً اتصالاً يستعجلني للرد عليه، فسلكت باتجاه الهاتف لأكتم أنفاسه وأنتهي من زوبعة العالم نهائياً وأكمل ما بدأت به، لكنني فُجعت تماماً، فالمتصل هو سيد فيّاض، لم أتمكن من تجاهله وعدم الرد عليه..، فبالكاد عدت أتنفس، أجبت بلهفة: أخبرني أي رجل أنت..، اشتقت إليك جداً، وغلبني ضعفي فبكيته معاتبة: أَلم تشعر بي، أَلم ترَ روحي تعوم حولك، قل لي أَيسعدك بأن تراها تغرق..!؟

ماتت روحي يا حبيبي ماتت حقاً،كيف لك تهبني الموت وتتركني أصارع بؤس الحياة دونك..، سمعته يخرج آه من روحه وكأنه يقول: لستِ وحدك من يتضور شوقاً: أَتعلمين بأنني لم أعد أعرف النوم من بعدك.. عيناي باتتا ترسم الحياة مضطربة لأنكِ بعيدة عني.. لمَ كنتِ قاسية معي..أَخُيّل إليك حياة مع غيري؟ أَحقاً أَحببتِ رجلاً آخر.. أَخسرتك أنا يا أميرتي؟ كل تلك التساؤلات هي من أعادتني إليكِ..، فُمحال لغيري تكونين. أتفهمين عليّ.. أنتِ لي!؟

أجبته بصوت عال: وكيف أكون لك وأنا إلى الآن أبتلع هم

ابتعادك.. تتكلم عن أشياء كثيرة وأنت لا تعرف أي شيء.. وأنا أيضاً في أشد حالٍ من حالك..، أبَغِضني كل شيء دونك، سَئِمتني وسادتي ولم تعد تتهجأني ككل ليل، تقرأني وأنا أنصت لها بألم وأسى، والنوم هو الآخر كأنه يُشير إليّ بأنني من ألد أعدائه، فلم يزرني من يوم اخترت فيه أنت ابتعادك..، تعرف رغم ابتعادك إلّا أنك حاضرٌ حتى في أحلامي..، فأي رجل أنت!؟ قسمتني نصفين «نصف عاش بك ونصف مات فيك..، أجبني الآن كيف أكون لك وأنت بعيد جداً عني..، أَمن المحال أن نجتمع كزوجين..! أين المشكلة يا فياض؟

شعرت براحة لمجرد أنني فضفضت له قليلاً ما في جعبتي إليه.

حاول أن يمتص غضبي كعادته قائلاً: إلى أي حد اشتقتِ لي..؟

إلى الحد الذي أفقدني حياتي إلى يومي هذا..

وهمست له بحنية افتقدتها لديّ من بعده: فيّاض للتو فقط، قرأت بأن مدمني القهوة مثلك بصورة متواصلة طوال النهار يمتلكون طبعاً صعباً ومزعجاً، هل تصدق بأنني قرأت تلك الأسطر وكأن الدارج تحتها صورة لك.

فيّاض مع أنك تؤلمني بكل ما فيك إلّا أنني أحببتك بشدة؟! تعلم كثيراً ما أتعجب من كوني أي أنثى هي أنا؟ أستغرب كوني حقاً أستلذ بكل عذاباتك، أحرر نفسي من غيرك ولا أستكين إلّا بسجنك.

قل لي لمَ أحببت فيك كل شيء رغم أن كل شيء فيك حاد! أكارهة أنا نفسي إلى هذا الحد!؟

أحببت لي رجلاً رمادي اللون كالضباب «قل لي أَمستحيل أنت!؟».

أوقفني غاضباً، بتر لي وصفاً قد يجعله يختنق قهراً ويشتعل ألماً، فلا شيء يؤلم سوى الحقيقة: أَفي كل مرة تجعلين مني رجلاً بغيضاً، لست أفهم أي حب تحملينه لي بعد!؟

تجاهلت كلامه عمداً لأنني أعلم في أن التمادي في حديثنا ذاك سيخرجني خالية إلا من كوني سأتألم أكثر، ففي كل مرة أكون فيها أنا المخطئة وهو ليس إلّا رجل عذبته أنثاه.

أكملت وأنا أغتصب الابتسامة: إذن كان عليك أن تسمعني حتى النهاية، ففي الحلوى أيضاً قالوا إنه بعشقي لها فإنني ذات شخصية متسلطة وعصبية ومغامرة..، وأين أنا من قولهم!؟

أجابني سريعاً وكأنه يستبق الفرص لينال مني: كلها يا بيلسان أنتِ.

أجبته بجدية: فعلاً، فأنا مغامرة يوم سلمتك حياتي ووهبتك كل شيء حي فيّ.

رد عليّ متعمداً: ومتسلطة أيضاً، امرأة عصبية جداً، ونسوا أن يقولوا إنكِ ذات لسان طويل، ومسكين هو من يكن بين يديكِ.

ـ إذن أَنا كل هذا؟! حسناً.

حسناً أعدك بأن أخلق من أنثاك أنثى أخرى تخشاها كثيراً وربما تقول حينها: سبحان من حول بيلسان إلى «وميض»

قال لي ضاحكاً :كم هي شقية وعودك يا حبيبتي.

ـ انتظرني فقط، قلت لك أعدك، صدقني يوماً ستتعلق فقط بوميضي، فأنا يوماً كنت هناك، حيث أخطف رؤياك كالبرق ولا تستطيع حتى التمعن بي..شرسة أنا يا أسدي كن حذراً، بقينا نثرثر عن أحوالٍ غابت عن كلينا ولم نهدأ حتى شرع الليل برحيله، أشرق صباحي بنور فيّاض..، ودعته قائلة: (**حبيبي انتبه على نفسك فأنت روحي**) وحينها لا يملك إلّا أن يكون مطيعاً..، هادئاً في دفء عشقي له..، أجابني بكل هدوء أحببته فيه: إن شاء الله، في أمان الله كوني.

عدت بعدها إلى كل ما افتقدته أيامي..، سرحت شعري من جديد بعد أيام تركته بها عشوائياً وفوضوياً جداً وكأنني صعقت بتيار كهرباء فانتفضت بي كل حسناتي وبت كالمرأة العجوز..، أيضاً لم أجد سبباً في أنني صبغت شفاهي بإصبع روج ناري اللون، وتعطرت بعطر رجّالي كنت أعلم أنه عطره، ولم أكتفِ بصورة دسستها بفراشي منذ غاب عني، كان ملحفي يفيض برائحة عطره وأيضاً هناك وسادة لا أنام إلّا وأنا حاضنة لها، انتقيتها كما المراهقات، نُقشت عمداً بحياكة التطريز من معرض أعدته جمعية خيرية لتعزيز الجانب الفلسطيني كدولة حاضرة حتى بتراثها، ولم أنسَ أن أطلب وسادة صغيرة ذات لون أبيض مائل للصفار تُطرز باللون العنابي كناية عن شعوري المشتعل آنذاك، فاعتزمت أن يكون أول حرف من اسمينا F & B هما أوسط القلب المنقوش بالوسادة.

أَكنت فعلاً أتعايش كل ليلة بأكملها معه..، فأي جنون خلفتني إياه يا فياض..!؟

فعلت كل ذلك وخرجت إلى المطبخ ألتهم أي غذاء تلتقطه عيناي كأنني لم أتغذَ طوال شهر ابتعاده، وجدت قطعتين من البيتزا أظنهما لريمان فهي من تعشقها، أدخلتهما الفرن لتسخينهما واتجهت إلى الثلاجة أنتقي لي شيئاً بارداً لكنني لم أجد إلّا عصير برتقال استسلمت له، سكبت لي نصف كأس، واخترت لي مقعداً في الطاولة وكأنها ممتلئة، جلست مبتسمة أتناول بشراهة وكأنني لأول مرة أتعرف شيئاً ما اسمه بيتزا.

أفكر بليل غادر دون ألم انتظار لحبيبي المجنون ولم أفهم بعد، أَتغير لون القمر، أم أنه لوَّن ليلي..!؟

..(19)..
..فاصلة..

كان لتعايشنا السعودي مصاهرة عريقة لفصل الصيف فهو يغتصبنا من كل سنة شهوراً عديدة. ومع دخولنا العطلة الصيفية شعرت بأنني في بحاجة لأن أحظى بإجازة أستقيل فيها من كل شيء، لطالما حلمت بأن أتخلص مما علق بروحي، وأخرج كأنثى لا تمت بأي صلة بأنها يوماً كانت أنا.

أمي كانت تخطط هذا الصيف للسفر إلى أخويها المستوطنين لندن.. لم أكن بذاك الحماس لكنني موقنة بحاجتي الماسة للهروب إلى ديار أخرى، ليس إلّا أن أجدد بي الحياة وأنفض أذى أعوام علقت بروحي.

أختاي هما السبب الرئيسي لخطة أمي واستعدادها لهذه الرحلة منذ عامين، كانت تستقطع من مرتب التأمينات الاجتماعية لأبي المتوفى من كل شهر مبلغاً بسيطاً تضعه في حساب ادخار باسمها إيماناً منها أننا سنحتاجه ليوم أسود «لكنها الآن لأجل ألا تشعر ريمان ونوران بأي نقص تقتضيه حياة مختلفة عن أمثالهما بكل شيء ستنفق كل ما جمعته أعواماً في لندن».

بت أشعر أنّ أمي ستكون أكثر توتراً لأن جيلي يختلف عن جيل توأمنا «نوران وريمان» اللتين تصغرانني بعشرة أعوام، لا أدري، لم أظن بأمي أنها ستحتاج تجديد قناعة طوقتني بها لأعوام عديدة.

كنت أتحمل معها أعباء المسؤوليات كدفع قسط إيجار البيت الذي بات زهيداً منذ بدأت حكايتي مع فياض، إلى دفع فواتير الماء والكهرباء ومستلزمات المنزل المتبقية من الاحتياجات الغذائية وغيرها؛ كنت أطمح كثيراً بأن نمتلك بيتاً يجعلني أشعر بالتحرر من كرم فياض ووالده، لذلك صرحت لوالدتي أنني أفكر وبجدية بأن أشتري بيتاً إن تأخر البنك العقاري في الإعانة لأنني لن أحتمل الإيجار لسنوات أكثر خصوصاً أنني بت أشعر بأنه من الصعب علينا أن نعيش كبقية البشر لأن العقارات في ارتفاع متزايد، وبهذا لا نضمن كرم صاحب العمارة طوال معيشتنا بحلاله.

كنت أحمل على عاتقي تحقيق حلم والدي رحمة الله عليه بأن نمتلك بيتاً لا فضل لأحد علينا فيه بعد الله، لا أدري لِمَ بالذات أبكي بشدة حينما أتذكر حلم والدي، أشعر بالخزي لأنني إلى الآن لم أستطع تحقيق حلمه.

والدي الذي استرقه مني القدر.. وافته منيته وأنا في الثالثة عشرة في بداية مراهقتي آنذاك في وقت كل فتاة تتباهى بوالدها أكثر من أي شيء، تتفاخر بأعمامها وكون والدها بينهم، ويكثر الحديث عن جديها وكل عائلتها وأنا حينها لا يسعني إلّا الإنصات بغصات تخنقني جداً،

صحيح أنه كان معي إلى بداية مراهقتي الفعلية مع بداية شغفي لحب الحياة لكنني لم أمتلئ به حياة بعد، فاته من عمري الكثير، بِتُّ أفتقده كل عيد وأشعر ببؤس الحياة وسوداويتها فقط حينما أشعر كم هو سيء فقد الأب، شعور لن يفهمه إلّا من هم على شاكلتي عاشوا الحياة بلا أب..

فأي حياة ستكون من غير حضن يفوق الدنيا بكثير؟

أي شعور هو أقسى من شعور اليتيم؟

وأي فقد هو أعظم من فقد الوالدين؟

أبي الغالي أشعر بك تلازمني كالضباب، تهمس وتهتف لي دائماً كلما ضاقت بي هذه الفانية، موقنة أنا بأنك معي ترشدني إلى الطريق الصواب..، سمعتك ليلاً تُحاكيني تُنادي باسمي تُدللني تسألني دوماً عن حالي، فبكل حال من الأحوال أجدك معي لا تفارقني، أراك تحاول جاهداً بأن تُبعد الأشواك عن دربي مُبدلاً إياها بورود حمراء زاهية ألوانها، لطالما كُنت والداً يُغنيني عن حاجة الكثير، فقط لو أستطيع أنْ أحتمي بك لدقائق أدفن عمري المتبقي فيك وأموت.

إني أشتاق إليك كثيراً، اقترب حبيبي واغمرني بحضنك، ضمني بشدة واعتصر بي حياة لم أعشها معك، تعلم كثيراً ما أخاطبك بخيالي، صُحت لك ملياً، أود أن أرتمي في أحضانك واقعاً لا خيالاً، أريدك أن تسمعني أُناديك وأتغنى بمناداتك، أصرخ منادية.. «أبي»، أُناديك بجميع لُغات العالم ليتسنى لمن يعيش الدنيا العلم بأن لي «أباً» أرتمي

إليه دوماً، أباً يحفظني من شرور الحاقدين، يرفعني عن تدنيات الكثير، ويدفعني عن تضحيات لن تلزمني يوماً من الأيام، آه يا غالي، إني أفتقدك وأشتاق لرؤياك.

أبي يا حنون، أتراني يا أبي..؟

شاخ عمري بدونك وها أنا سأتم الثلاثين من عمري، كبرت كما لو أنني في الخمسين، فأي عمر هو بدونك؟

أبي يا ابتسامة عمري، لي من الحروف الكثير كلها لك يا غالي، أبي أَتذكر عندما كنا نلعب ونضحك كثيراً، وعندما تضمني إلى صدرك تداعبني وتهمس لي أحبك يا صغيرتي؟

أَرأيت كيف أنّ لذاكرتي نبعاً كبيراً..

وأمي..

أمي لاتزال على ذكراك وحبك يا غالي، لا حياة لها من بعدك، باقية هي تجدد الحب فيك وتُغَنِّيك كأنشودة حب لا نهاية له.

أمي يا أبي هي نعمة أحمد الله عليها بكرة وعشية..

أمي هي فرحة حياتي وهي مرآتي، هي الأمل والأمس والغد الأجمل، أمي يا أبي هي التي في كل صباح أغني لها على ألحان العصافير.

أحبك يا أمي بحجم معاناتك
أحبك أمي بقدر يفوق عدد أطفال العالم
أحبك يا أمي بقدر ما أملك من نبض

أحبك كما لو الحب خُلق لأجلك فقط
أحبك يا من جعلت مني أنثى تفوق عشرات من الرجال
أمي هي أنتِ أجمل ما في كوني
إلهي احفظ لي أمي فلا طاقة لي في العيش بلاها «اللهم آمين»
غارقة أنا بكرمك يا الله فلك الحمد حتى أموت..

أمضينا عمراً تحت ظلالها، فربتنا أمي على أن «القناعة نصف السعادة»، لاأزال أذكر ما قالته لي يوم حكيت لها موقفاً حصل مع زميلة لي في المدرسة بعد وفاة والدي بشهرين، حينها كانت لاتزال تقضي أشهر حدادها عليه..، قلت لها بعد عودتي من المدرسة إن نورة: ستسافر بعد إجازتنا بأسبوع إلى بريطانيا ولم أكن أعِ حينها إلّا أن بريطانيا بلد الهجرة بعد أن علمت بأن لي أخوالاً يستوطنون هناك طامحين للحصول على الجنسية!

تخيلاتي نحو بريطانيا كانت مختلفة عن نورة التي كانت تظن أنها ستحقق شيئاً يستحيل على أيٍّ مَنْ كان تحقيقه إلّا هناك.

قالت لي إنها ستقنع والدها أن يشتري لهما منزلاً هناك لأنها تنوي تحقيق الكثير من أحلامها، تقول إنها تود أن تكون طبيبة كوالدها الذي نال الزمالة البريطانية بعد ظهور البرفيسور عبد الله أحمد العثمان رئيس قسم جراحة العظام في مستشفى الملك فهد التعليمي ونائب رئيس الجمعية السعودية لجراحة العظام كأصغر سعودي ينالها في العام 1989م.

شعرت حينها بأن نورة تملك كل شيء وتستطيع تحقيق أحلامها وتكون نسخة مشابهة لوالدها، أما أنا فوالدي ميت لا أدري مَن سأُشْبه هل هي أمي التي لم تُكمل تعليمها، وهاجر ثلاثة أرباع أهلها إلى ديار مختلفة، وأكثر ما يفيض بجراحها هو ضياع هويتها الفلسطينية!

شعرت بأنني لن أتمكن يوماً من اللحاق بلندن تلك ولن أحقق أيًّا من أحلامي، وقلت لها بعد تفاصيل نورة: «أعتقد يا أمي أنني لن أحقق حلمي يوماً لأن لندن أمر مستحيل»، وحينها أمي أعطتني درساً ثقيلاً بأن الأحلام أجمل ما فيها أنها لا يحصرها زمان أو مكان.

قالت لي: تودين أن تكوني طبيبة..، لندن ليست الخيار الوحيد أنتِ هنا من الممكن أن تكوني كذلك أيضاً، تحقيق الأحلام ليس مستحيلاً، لأن ما يمكن تحقيقه بأي مكان، إن أردناه حقاً، سنحققه حيثما نكون، حلمك هو الطب وليس لندن.. والطب يمكنك تحقيقه هنا أيضاً، لمَ تتخلي عن حلمك فقط لأنك تشعرين أن لندن مستحيلة؟! فقط تزيني بحلي الرضا والإيمان من أعماقك أن كل شيء سيكون، فقط إن أحببتِ، لأن البديل موجود، بيلسان حبيبتي، ليس شرطاً أن النجاح يكون بأبعد المسافات، اعلمي أن النجاح لتحقيقه يحتاج قناعات تتضمن أن لكل شيء بديلاً، حاولي أن ترتضي بما لديك تحصلي على نصف الطريق، صغيرتي مؤمنة أنا بأن القناعة نصف السعادة، كوني قنوعة بما لديكِ فأنتِ تستطيعين إن أردت أن تكوني أفضل من نورة وغيرها وأنتِ هنا، السفر إلى لندن وغيرها لا يعني الامتلاك لكل شيء،

هي فرصة سنحت لها إما أن تكون بما حلمت يوماً وإما لا تكون، تماماً كأنتِ هنا، إما تكوني وإمّا لا، فكري بالذي تودين أن تصلي إليه، هل هو من الممكن أن يتحقق هنا؟ أمامك خيارات كثيرة، صحيح لكن أيضاً فقط اهتمي بتنمية ما لديكِ لا بالخيارات الأكثر صعوبة علينا يا حبيبتي.

وبكل تلك الحيرة التي اعتلت غيوم أفكاري كما لو أنها عاصفة تنتشل بعضاً من الأحاسيس المريحة إلّا أن درس أمي أفادني كثيراً ولاتزال تقول لي: [لحياتنا خطوط متعرجة لا ندري أي طريق تسلكه بنا هل هو أبيض أم أسمر؟ لكنني موقنة بأن الحمد سر السعادة الأبدية «فالحمد لله على كل حال (طاقة إيجابية) قلما يستوعبها إلّا من رحم ربي» ولتنعمي بتلك السعادة املأي قلبك بالرضا].

وها أنا أيقنت أنني بالرضا والقناعة ملكت نصف السعادة حقاً.

..(20)..

أَحقاً ما يُقال: من وضع نفسه حيث لا هي ستضعه حيث هي(*)

في المطار قبل الإقلاع بوقت ليس بقصير كنت اتكئ أملاً على رحلة آمل منها كل سعادة تنتشي بروحي من جديد..، تعمدت تنظيم المسؤوليات، فأُختاي مسؤولتان عن حقائبهما وأمرتهما أن لا تتحركا بدون أمي كي أضمن التفافنا حول بعضنا البعض، أما حقائبي وأمي وبقية الإجراءات إلى حين الهبوط حيث مدينة الضباب بسلام فقد كانت من مسؤوليتي.

مضت أكثر من ثلاث ساعات ونحن ملتزمون في مقاعد الطائرة بدرجتها السياحية..، لم نكن نفهم بأمر التحليق بين سماء وأخرى كثيراً لأننا لم نحظَ بالسفر إلّا لمرات قليلة وبراً، ثلاث مرات منها كانت لأداء فريضة العمرة ومن دون أبي، وأقل منها إلى مملكة البحرين..

استعداداتنا للسفرة الأولى هذه كلفتنا كثيراً.. أكثر مما أتخيل،

(*) عبد الله بن سليمان العُتَيِّق «نثر القول [1579]».

لست بقروية أو حتى فقيرة الحال حتى لا أفهم التكاليف الباهظة والرخيصة الثمن منها، لكنني لم أستوعب بعد كيف أن نقترب إلى حد الإفلاس قبل الهبوط حقاً إلى أرض لندن..!

يا الله أعلم أنك كريم ومنك العوض وعليك التوكل يا منان.

مضى نصف الوقت وأنا ما بين التحليق بالأفكار الكثيرة التي راودتني بين أشياء عديدة تختص بشؤون بيتنا وحياتنا القادمة والله أكرم مُعين.

***

حاولت أن أنام ولو قليلاً لكنني لم أستطع قطّ، كنت حريصة على الهروب حقاً من أي فكرة تغرقني في فياض من جديد..، لذا قررت أن أقرأ رواية أعتقد أنها من هدايا القدر، فهي خلقت مني روحاً جديدة ولو لبضع ساعات، أذكر نصاً حفظته منها وكأنما يصف حالي من على مقعد كُتِب لي أن أبسُط عليه همي وراحتي إن كانت في هذه الحياة: [ككل الباحثين عن الحقيقة..، الناقلين أقدامهم منهم بين الأحراش..، أو المسافرين عبر مسافات تقاس بالزمن..، أو أولئك الجالسين خلف مكبراتهم الدقيقة يرقبون حركة لمخلوق يمارس حقه في الحياة..، أو إن شئت فقل أولئك الذين يبحثون بين أسطر قضية علهم يجدون فيها ثغرة تمكنهم من كسبها أمام قاضٍ عنيد..، كل أولئك يبحثون عن الشيء ذاته..، الحقيقة أياً كان نوعها.. يبحثون عمّا يتمنون أن يجدوه،

أو يتمنون أن يجدوا ما يبحثون عنه..، منهم من يعلم كُنْه الحقيقة..، ومنهم الآخرون الذين لا يعلمون عنها إلّا أنها ستكون الحقيقة التي ينتظرونها].

لا أدري حقاً أي حياة عشتها وأي حق سلب مني اغتصاباً، كل ما أخشاه أن تكون كل الحقيقة مجرد كذبة، كما لو أن كنْه الحقيقة خاوٍ في جوهره!

أشياء كثيرة لا نعلم غايتها رغم أننا أحياناً وإن وصلنا أضعنا الهدف المنشود، ولست أعلم بعد أأنا المجرمة في حق نفسي!؟ لكن قلبي العنيد أرتجيه أن يلطف بحالي ويعتق لي حياتي لأعيش بسلام، فوالله لم أعد أطيق تزاحم أي شعور يقطن مملكتي.

خشيت أمنياتي كثيراً، فلا أعلم إلى أين ستصل بي «فما من طاقة لي على الكثير بعد»، غيرني الحب كثيراً فبت شخصاً لا أعرفه أبداً، جاهلة أنا بنفسي ولا أدري كيف أجدني!؟ أسرفت في العطاء إلى درجة وجدت من نفسي خالية كما الصحراء القاحلة!

لم أعد أملك أي شيء، باهتة هي صورتي كما لو أنها انطفأت من ألوان الزهر..

لا أدري كيف أكون باذخة في كل شيء معك إلّا أنني بخيلة على نفسي بأبسط حقوقها..

أَتدري أنني أستودعك في اليوم ألف مرة؟

وأنني في كل دعاء أنت السابق فيه قبل أي كان وكأن ما من غيرك يستحق.

قدمتك على الكثير فيما لاأزال أنا [ربما الأخيرة في قائمتك، إن كان لي مكان] ما قبل الأخير لديك! ظالم أنت في عطاياك، أَتُراك تظنني لا أستحق!؟

لكن قل لي، لمَ كابرت أنا على جراحي وآلامي وأهديتك كل ما فيّ يشهد أنه جميل؟!

بت مرات أتظاهر بأنني بخير وكثيراً «أصطنع حالاً لم أكن به قطّ» وأعطيك كما لو أنني أفضل منك بكثير، لكنك تجهل في كل مرة أكرمك فيها كوني أنا أحوج منك إلى تلك العطايا أكثر مما تتخيل، لكنني أعطيك وأعطيك ولا أدري إلى أي حين سأعطيك؟

لست أتمنن في عطاياي معك «وهبتك كل شيء برضاي ولن أندم يوماً مهما خسرت»، لكنني أيضاً لم أنصف طبيعة الحياة بتعايشي معك، أتعمد أحياناً أن أشكوك بأتفه همومي، لا والله فلم تكن تلك همي يوماً ما أصلاً، ولم أجد منك شيئاً يرضيني، أَتظن لأن عطاياي تفوق الكثير منك مهما جاهدت فعله!؟ فأنت أيضاً تجهل كيف أعيش!

أَتعرف كيف هي طفولتي؟

أو حتى كيف هو حالي منذ أعوام كثيرة مضت أو على الأقل حالاً عشته معك!؟

أم أنك تحاول إقناعي بأنك تعرف أكثر مما تجهل أيها الغريب،

أَتعرف أنني أسعد أحياناً حينما أصفك بالغريب وكأنني أنتقم لنفسي منك..

غباء هو لكنه شعور لذيذ!

قل لي أَتعتقد همي فقط الإيجار الذي ظننت به بنفسك ولياً عليّ!؟

أم أنه حقاً فقط هو أنت!؟

الله أعظم والله أكرم والله أعلم وأحكم الحاكمين، فقط يا فياض حسبي الله ونعم الوكيل.

***

مضى الوقت ولم أشعر غير أنني فقدت الوعي لساعات طويلة غرقت بما أنا عليه ولا أدري بما يجول في خاطري، لكنني لمحت غيوماً وكأنها تحاول أن تضمني وأنا أحوج ما أكون إلى حضن يغمرني بكل شيء.. ويا لبؤس خيالي، بت أُحبط من كل فكرة تقفز بين أمنياتي، كيف لي حتى في الخيال أتودد إلى سراب! فكيف للغيوم أن تطوقني دونما أن أمسك بها! يا الله أولم يكفني ما فات!؟

لكنني حقاً شعرت بأن من الممكن للندن أن تغدر بي أجواؤها وتكاد أن تجعلني بمشاعري كالجليد، بدلاً من حال ألزمتني به دياري بأجوائها الحارقة فانصهرت بها حباً إلى أن احترقت بقية فصول حياتي ولم أعد أملك إلّا رماد بعض من عمري!

نفضت خيالاتي تلك، وبت أتأمل سماء لندن، فهي دقائق ونهبط بسلام.

..(21)..

أَعراة نحن تحت المطر!؟

منذ وصولنا لندن ونحن بين تلاحم عائلي فضيع، لم أرَ أمي بحالة سعادة كهذه اللحظات من قبل، رغم أنها طوال أيام مضت وهي لا تجيد إلّا البكاء أكثر من أي شيء لكنني أعلم جيداً كيف هي دموع الفرح، سعيدة أمي بإخوتها الغائبين الحاضرين رغماً عنها وعنهم!، كانت تغمرهم بحب كبير وكأنها بساط ريح ينثر المحبة على أراضٍ جافة.

أمي تُثيرني بحنانها بكل شيء ولا أدري حقاً أَهناك أحدٌ كأمي!؟

خالتي نضال أبدت استعدادها لتعد برنامجاً سياحياً تمتعنا به إلى أن نعود، ريمان كانت أول المتحمسين: خالتي أتمنى لو نزور حديقة الهايد بارك لطالما حلمت بأنني أركض في أرجائها الواسعة.

ضحكت معلقة: إذن لا بد أن تركضي حقاً.

فدخلت نوران قائلة: والله لأحلق أيضاً، كم مرة سأعيش؟

وآه من نوران كأنها بعصير الليمون تفرك جراحي.. فكم من مرة سأعيش!؟

قطعت عليّ أفكاري خالتي نضال وهي تقول: إذن سأتصل برفاق لي أود أن تتعرفوا عليهم، ما رأيكِ يا يبلسان أتمانعين أم لا؟

أجبتها مبتسمة: لا طبعاً.

ـ إذن هي ساعة على الأكثر ونكون خارج المنزل.

أجبناها جميعنا بحماس: حسناً.

وفعلاً ساعة قضيناها استعداداً حتى هممنا بالخروج حيث نأمل.. وصلنا الحديقة وراحت كل منا تتنقل بأريحية تامة كتعبير عن السعادة، أُختاي اختارتا رفقة ابنة خالتي وأخويها وأنا بقيت مع أمي وخالتي إلى حين قدوم معارفها..

آه من أجواء لندن بين تناثر العرب وخصوصاً الفلسطينيين المشردين منهم عن ديارهم، فأي وطن يحويهم أصدق مما استرق منهم!مضت نصف ساعة وأنا بين أحاديث كثيرة أمتعتني حقاً، لكنني فجأة شعرت بحاجة ماسة إلى الاختلاء بنفسي قليلاً فأستأذنت المسير وحدي، مضيت أسير أتأمل البحيرة وأناساً كُثُراً حواليها ولم أستغرب أمر الازدحام، لكنّ هناك أمراً سيئاً فعلاً حيث بت أسمع أحاديث تصلني وكما لو أنني لم أتعدَّ شبراً عن دياري لكنه قولٌ فقط، لم أرَ ظاهراً ما يوحي بأن المتحدثين هم من شبة الجزيرة حقاً، افتقدت أمراً ما كاد يخنقني كيف وصل بنا نحن المسلمين إلى هذا الحال!؟ أسهل ما نتخلى عنه هو حجابنا الشرعي فأي إسلام نحن نتقن!

أستغرب كثيراً كيف تكون سماء أوروبا مختلفة كلياً عن سماء الرياض وقريناتها من المملكة مثلاً!

أَأصبحت فرائض الإسلام عادة أكثر مما هي واجب شرعي!؟

أَهي «المملكة التي تحكمنا بالإسلام فقط، وكأن الرب أوجب علينا التزامات دينية لن تكون إلاّ في قلبها وحسب»!؟، عجباً والله فإلى أي حال سنكون بعد يا مجتمعي العظيم!

أغضبتني تلك الصور التي شاهدتها وكأنما الحال لا يختلف عن شقراوات لندن، لا يهمني أمر الحجاب فحسب فذاك لا يعني لدى الكثيرات غير أنه حرية شخصية ولم أصل بعد أي حرية يغنون بمفاهيمها، فكل ما أمرضني أكثر « أولم تجد ملابس فاضحة أكثر مما رأيت! ليتني لم أسمعها حقاً وليتني لم أعبر طريقاً فيه مسلمات بنصف لباس!».

وأنا أمضي في طريقي رَنَّ هاتفي فأجبت: مرحباً

ـ أهلاً باللندنية كيف حالكم أجمع؟

طيبون ولله الحمد يا ندى كيف الأمور هناك؟

ـ كلنا بخير «حبيبتي اشتقنا لك كثير يارب قرّب البعيد».

آه يا مجنونة وربي وحشتوني طمنيني كيف أخبار سفانة؟

ـ الحمد لله بخير تمضي بحماس لبدء إجراءات الابتعاث.

ـ جميل الحمد لله..، أخبريني إذن أَمن جديد بأمر البيت الذي

أوصيتك تدبر أمره؟ كنت قد أوصيتها على منزل يجاورهم تماماً قد لمحت على واجهته لوحة كُتِب عليها للبيع.

ـ لا أدري يا يبلسان حالما يصلني أي خبر سأخبركِ على الفور، أنتِ الآن استمتعي بوقتك واسعدي بروحك يا غالية وابعثي سلامي للجميع.

ـ إن شاء الله حبيبتي في حفظ الرحمن، أقفلت الخط ولم أشعر بحالي إلّا وأنا بين أجناس مختلفة تهتف بعبارات وكأنها شتائم!

لا أدري ما الذي يجب عليّ فعله لكن شدني الفضول لأرى ما يمكن أن يحدث!

كانت تلك (Speakers Corner) زاوية المتحدثين وهي المكان الذي يجتمع فيه المتحدثون كل يوم أحد لإلقاء كلمة أو محاورة حول موضوع ما بكل حرية.

«أكثر مكان ممكن يحسد العرب عليه الإنجليز!».

ماذا لو كنا نملك نحن العرب وسط كل مدينة كزاوية الهايد بارك تلك؟!

أممكن أن تتقلص كوارث الثورات أو أنها أخفتها حقاً؟!

لم أستوعب شيئاً أكثر من أن الفكرة أعجبتني وكثيراً، ربما هي نوع من أنواع الجنون القريب إلى روحي، لكنني مؤمنة أكثر بأنه نوع من أنواع التنفيس المشروع للمواطن، حفاظاً على أمن بلده ولو بصورة جنون منطقي أيضاً.

سارعت في سيري حتى أوقفني انهمار المطر «بعثرتني حقاً أجواء لندن»، وقفت صامدة وكأنني أغتسل من هموم علقت بي كثيراً، وحينما يهطل المطر تغني العصافير ونرتمي بأحضان الحنين.

مضيت حيث أحببت بأن أهدي نفسي كوب قهوة بصحبة المطر، فأجواء لندن تغريني بالكتابة حقاً، وشهية عناق الورق تضاهي لذة الانتشاء بأي جنون غيره، ثارت بي قريحة الكتابة على غيوم ماطرة داعبت سماء لندن فلم أستطع إلّا أن ألبي مُنْصاعة بقلم رصاص قزم تآكلت بدايته وأوراق اهترأت بسبب تلاحم بعضها ببعض كنت أكتنزها احتياطاً لمثل حالاتي الطارئة كتلك التي في محفظتي..

ولم أكتب غير: قد أبتعد وأغترب ولا أدري متى سيتسنى لي أن أعود!؟

أأعود حيث حكاية حب باتت تُميتني في اليوم ألف مرة!؟

وليتني أفهم أنموت حقاً لأجل الحب؟!

آه يا لندن، خشيت عليك لهيب عشق مجنون يداعب أجواءك كما لو كان ناراً تحرق أوراق فصولك جميعها فيموت الكثير ويبقى نبض حبه يراقص الحياة.

لكن أريد أن أفهم، أيبقى الحب وإن متنا!؟

..(22)..

..بين تواري الحقيقة وانكشاف السر تكمن رياح قاصفة..

بَقِيَتْ أيامٌ قليلة ونغادر لندن، كنت أود حقاً لو كان لي من الممكن أن أزور دار الساقي ليتسنى لي أن أغرق بين ما تنضح به أوراقها، خشيت التذمر بين من لزمت وإياهم تقاسم تفاصيل تلك الرحلة، ولأنني أعرف جيداً ما تهواه أنفسهم والعكس منه أيضاً، لذا كان من الأفضل تناسي الفكرة.

كنت قد قرأت قبل مجيئنا إلى لندن عن متحف مدام تيسود «الذي يعد من أشهر متاحف الشمع في العالم» تحمست له جداً بعدما حدثتني عنه ندى بعد زيارتها لبيروت وقضائها وقتاً ممتعاً داخل متحف الشمع هناك، تقول بأنها شاهدت حياة من الحضارة الفينيقية إلى لبنان الحاضر، لذا شعرت بأنه من اللازم عليّ وضع متحف الشمع في القائمة حتى لا أشعر أنني قمت برحلة ناقصة من تنقلات الحياة من عالم إلى عالم آخر يستحق الهبوط بين أرجائه.

أثارني إلى حد التطلع بشغف هذا المتحف، بحثت عنه كثيراً

حتى عجبت جداً بأن التسمية من بدايتها كانت نسبةً إلى مدام تيسود مؤسسته التي أتقنت فن التعامل بالشمع من طبيب كانت أمها تعمل لديه واستمرت لديها هذه الهواية حتى أنشأت معارض لها، وفي النهاية أنشأت هذا المتحف الذي يحتوي على تماثيل للشخصيات العالمية البارزة في جميع مجالات الفن والسياسة.

جميلة تلك الأنثى، صنعت من تواجدها معالم كثيرة تُثبت بين الحين والآخر تواجدها رغماً عن أنف الكثير.

يا الله يا سيدة تيسود بكل هذا، أَتصدقين أنه لتوي فقط أيقنت تماماً بجملة كتبتها بالخط العريض لرسالة خططتها لندى يوماً من الأيام وكأنني كتبت دون إدراك حينها.

ما سر الكتابة، أَهي تولد بين لحظات عصيبة تفقدنا كل شيء بعدها حتى الإدراك!؟

كانت هناك ورقة متمزقة أطرافها كتبت فوقها على عجل لأننا كنا بين ازدحام المتطفلين حيث تجمع النساء في حفل هادئ وممل جداً، كنا من المدعوات إليه..، كتبت إليها: تعلمين أنه بين الحين والآخر نحتاج صفعة تُفيقنا من أوهام تُميتنا في اليوم ألف مرة، والمهم أن تفهمي ما أود لكِ استيعابه.

أنتِ ملك نفسك وأحلامك ملكك أنـتِ، فلا أحد له شأن بتفاصيلك الصغيرة منها أو الكبيرة، ولستِ بحاجة للتواري خلف جسور ضخمة وضعتها أنتِ، حتى يثبت وجودك لأي كان، أنتِ موجودة إن أردت الثبات على قمم بعيدة عن زوبعات العاطفة.

وأنا «السيدة تيسود» صفعتني من جديد..

تمعنت النظر جيداً بي وحولي أوراق جسدتها لحكاية باتت تثبت عجزي بين الحين والآخر، ضعيفة أنا، وجداً، إلى الحد الذي جعلني أنسج وجعاً على ورق بات منه وكأنه أسود!

مسكين هو الكاتب يتألم كثيراً ولا أحد يعي حزنه سواه، كل قارئ يقرأ وإن تألم قد يظن أنه وصل إلى الحد الذي جعل ذاك يتقيأ وجعاً على الورق، ليس كئيباً ذاك الكاتب أبداً، هو فقط متفنن في تذوق جرعات الألم المدفون بين أعماقه، يكتب كثيراً لأنه يظن بأنه يوماً سيقرأ متخفياً عن حقائق تكمن بين السطور، يكتب الكثير رغم أن لا أحد يقرأ جيداً، يرسم حدوداً كثيرة قاست حتى حجبت عنه تعايش الحياة في سكون، أو حتى نشوة فرح تدعم تفاصيل حياته بقليل حياة.

فلا أحد يعي معنى الخذلان غير أنه يجعلنا صامتين لأيام نتحرك كأننا عاجزون، ننظر بلا إدراك، نتحدث بلا فهم، نستمع بلا إنصات، كما لو كنا في حاجة لأن ينفجر صنبور ماء على وجوهنا كي نستفيق..

وأنا خذلني الحب..، ملعون هو الحب، فوحده المسؤول عن مزاجيتي واضطراب تعايشي، وهو نفسه المتحكم بجُل تفاصيلي، وهو من عهدته أنه الحياة وأجمل ما يُعاش، إلى أن أصبحت وحدي المتورطة بذاك الهراء المزعوم بأنه حب ولست أفهم

أَيقترن الحب بكثير من الوجع!؟

أَيُميتنا الحب باللحظة ألف مرة!؟

فياض يا حبيبي إلى أي عالم ننتمي أنا وأنت!؟
وأي عشاق نكون؟

في كل زاوية يوجد مجانين الهوى، وأنا في كل زاوية وجدتني أفوق أحدهم إلى أن فاض بي العشق ومت فيك. كان في تاريخ الأدب سيد يدعى «جبران خليل جبران» نشأ بينه وبين «مي زيادة» حب لا مثيل له، تعلم أنهما أيضاً لم يلتقيا إلّا في عالم الفكر والروح، كان هو في الولايات المتحدة وهي في القاهرة، كانا أشغف حبيبين، داما معاً عشرين عاماً نشأ حبهما عبر المراسلات الفكرية والروحية.

تسللت كاللصة بين حكايتهما لعلّي أجد لديهما شبيهاً لتفاصيلنا الفاضحة بين أرجاء هذه الرواية ووجدته يقول لها في إحدى رسائله إليها:

[تقولين إنك تخافين الحب! لماذا تخافينه؟ أتخافين نور الشمس؟ أتخافين مدّ البحر؟ أتخافين طلوع الفجر؟ أتخافين مجيء الربيع؟ لماذا يا ترى تخافين الحب؟ أنا أعلم أن القليل في الحب لا يرضيكِ، كما أعلم أن القليل في الحب لا يرضيني، أنتِ وأنا لا ولن نرضى بالقليل، نحن نريد الكمال.. الكثير، كل شيء! لا تخافي الحب يا رفيقة قلبي، علينا أن نستسلم إليه رغم ما فيه من الألم والحنين والوحشة، ورغم ما فيه من الالتباس والحيرة].

أَترى كيف كانت له رفيقة وأي رفيقة يا فياض «رفيقة قلبه».

لست أجدك صغيراً بين كبير كجبران لا أبداً، والله أنا فقط وجدتك به بخيلاً جداً.

ثم هي الأخرى تخاف الحب أيضاً، تشبهني أظن في هذا.

وتشبههما أنت في أنك لا ترضى بقليل الحب مني بينما أنا رضيت منك بأقل القليل!

مفارقة عجيبة جداً لا أجد فيها غير أن العطاء مني بات يبتر أركان حياتي حتى صرت أنت ركنها الوحيد والثابت بالرغم من التباسات وحيرة أنشأتها ظروفنا السقيمة!

***

تركت قاصدة كل العالم الملطخ بنزف عشقي له ونهضت إلى ضحكات كانت تجاورني حيث عالم بتُّ أفتقده منذ عرفت ذاك الفياض الذي بات يسرقني من كل شيء، من تفاصيل تنسيني حقيقة نفسي كثيراً ولا أكون إلّا في أنثى لا أعرفها البتة!

سرت نحوهم أرجوهم الخروج إلى ذاك المتحف والحمد لله أنني لم أُترك رهينة الانتظار طويلاً، استعدادهم كان سريعاً فكسبنا الوقت ومضينا نحو متعة نرجوها ليومنا ذاك.

في أول وهلة لدخولنا ذلك المتحف شعرت بأن الكثير سيلصق بروحي ولا أعلم ما السبب لهذا الشعور، مررت بتماثيل عديدة لكنني لم أفهم كيف لي أن أتمنى لو أنني جسدت تمثالاً لسيد روحي أحتمي به في كل مرة أشعر بوحدة تقتلني.

يا الله أَلهذا الحد جعلتني شديدة التعلق بك!؟ فأي رجل أحبه فؤادي؟ لكن ماذا حقاً لو كان هناك تمثال لفياض يوضع في صدر المتحف وأين المشكلة!؟

صدقوني، لم يكن قطّ بأقل صُنعاً من هتلر، هو الآخر فتك روحي هياماً وعشقاً به.

وبين خيالاتي الطائشة هتفت لي نوران مستعجلة: بيلسان أنظري هنا هوليود بنجومها التي تعشقين.

أسرعت إليها متحمسة: صدقاً يا الله وكأنني أراهم حقيقة هنا أميتاب باتشان وذاك شاروخ خان وانظري هنا أيشواريا راي..، فرحت كثيراً لدرجة أنني التقطت صوراً عديدة سأتباهى بها بين صديقتيّ، فأكثر ما أعشقه هو مشاهدة الأفلام الهندية بكل حالتها حتى بالأكشن الأكثر استخفافاً بعقل المشاهد لخيالها المفرط حد الضحك، عشقي للهند لا يشبهه أي شيء، حتى أن أشباهي يقولون إنها قريبة جداً وكأنني منهم!

استغرب شكلي رغم عرق أمي إلّا أن جينات أبي غلبت كثيراً، فأكتسبت ملامحه الهندية حِنْطَية اللون ذات شعر حريري أسود لامع.

أذكر مرّة أنا وندى أننا قررنا اللحاق بسفانة إلى جامعتها وتعطل بنا القطار لمدة ساعة ونصف قبل التوقف في محطة بقيق المدينة التي قبل الإحساء في المنطقة الشرقية بربع ساعة، فكان حظ سفانة جميلاً، فنحن نشاركها الرحلة الأكثر عناء، وأجمل ذكرى تبهجني حقاً هو الوقت الذي قضيناه في مشاهدة نصف الفيلم الهندي من جهاز الكمبيوتر المحمول..

ولا أدري لمَ شعرت بحنين لشقيقتين ولدتا من رحم الصداقة، أهو لأن ما يسكن ناظري وفكري الآن له علاقة بذكراهما!؟ فأحببت أن

أنقش شوقي لهما عبر رسالة نصية: «اشتقت إليكما جداً.. أحبكما أكثر من أي شيء» وسريعاً ما أتاني الرد من هاتف سفانة «بيسو أنا وندى ننتظر لقاؤك خلال Skype لا تتأخري»، فبعثت لهما رداً «انتظراني في وقت لا يتجاوز الساعتين رجاءً لأنني لاأزال في الخارج، أحبكما جداً» وتابعت جولتنا إلى أن حان وقت العودة.

***

فور وصولي لم أتردد في أن احتضن جهاز الكمبيوتر، فتحت برنامج Skype الذي بت أتقن روعته بعد أن أوصلني بصديقتيّ.

بادرت الاتصال سريعاً بخاصية الفيديو لعلّي أشبع ناظري وأخمد أشواقي التي باتت تنهش روحي ألماً لغيابي عنهما، وكأني أرى سفانة بقميصها القطني يتوسطه دبدوب يحتضن قلباً أحمر وخصلات من شعرها تحجب من عينيها قليلاً، يبدو لي أنهما في منزل ندى لأنني رأيتها تقف خلف سفانة بالضبط عند زاوية مرسمها الصغير مرتدية مريلتها الخاصة بالرسم وعلى أنفها بقعة من اللون الأصفر وفرشاة ألوانها خلف أذنها وكأنها تتعامل مع قلم رصاص.

علاقتها بالألوان إلى حد الاندماج فلا مانع أن يختلط أي منهما بالآخر، تماماً كالكتابة فلا حرف يُكتب قبل أن يتغلغل في أعماق ذات الكاتب إلى أن ينسكب حبره وأخيراً كأن يكون نزف دم طبع على الورق بلون القلم! سمعت صوت سفانة بحماس تقول: (أهلاً أهلاً بالقمر اشتقنا لك وربي).

رددت عليها بابتسامة: (تحلفين أنه كثري).

وأتاني صوت ندوش وهي تقترب إلى شاشة الكمبيوتر : (والله أني أكثر وحدة فيكم مشتاقة).

ـ سفانة وهي تضحك: (طيب، طيب كلنا أكثر شي هاتي أخباركم وكيف أهلك وأحوالهم؟).

ـ (الحمد لله أمورنا تمشي فوق ريش النعام) مستمتعين إلى أبعد حد.

رددتا معاً: (اللهم لك الحمد.. طيب متى راجعين؟).

ـ (يومين وراجعين.. أشوفكم مجتمعين إلى هذا الوقت المتأخر!).

أجابتني ندى وهي تقضم قطعة من الشوكولا: (إيه حبيبتي كنا نرسل الأوراق المطلوبة للسفارة والإنترنت متعطل عند الآنسة سفانة).

سفانة استوت بجلستها ثم احتضنت المحمول وكأنها تخفيه عن ندى : (بقولك سر يا بيلسان ندوش قررت تسافر معي).

صرخت بطريقة أرعبتهن: (يا سلاااام وأنا؟).

أجابت ندى: والله حسب علمي أنك موظفة وأنا عاطلة من بعد.. صمتت وكأنها تذكرت مأساتها الأعظم!

[ندى هي خريجة المعهد الصحي «ممرضة» عينت في مستشفى حكومي قريب من حيهم، لكنها قدمت استقالتها بعد عام من توظيفها لأن المجتمع لايزال ينبذ الممرضة ويظلمها، كما أن حظها جعلها أكثر

عُرضة لإلصاق التهم والحديث بما لا يليق بتربيتها وأخلاقها، الممرضة بالنسبة لهم نحلة تلسع بالقيم وترمي بها عرض الحائط كما أن الكثير قلما يحترم الممرضة فباتت حسب تخلفهم خادمة! وكأن الخادمة أيضاً لا تستحق الاحترام! الله الله يا مجتمعي تثير اشمئزازي أفكاركم النتنة، لم تتحمل الضغط المنسكب عليها من عائلتها والمحيط الغبي الذي يحويها!].

ـ علقت سفانة محاولة تغيير الموضوع: (طيب بيسو كيف لندن تنصحيني أزورها؟).

أجبتها وأنا أظهر لهما النصف الآخر من تذكرة دخولي إلى متحف الشمع: (لو تعرفان اليوم أين كنت؟).

أتاني صوت سفانة بديلاً عن ندى التي يبدو أنها ستلتزم الصمت إلى حين نستفيق من حلم لا يحوي إلّا صوراً رمادية اللون: وأين كنتِ؟.

وبدأتُ أحكي لهما تفاصيل يومي وأيام فاتت وكأنني حقاً بالقرب منهما، إلى أن ودعتهما راجية اللقاء بهما فور عودتي بسلام.

جميلة تلك التكنولوجيا، أحياناً تغمرنا براحة تشبه تشابك الأيدي وهي دافئة دون أن نشعر بالتصاقها! أحببت يومي أكثر لأنني بهما حقاً أستشعر بأن لحياتي معنى ثانياً أحتاج تذكّره بين الحين والآخر.

الصداقة نعمة لا يشعر بها إلّا من يملك كصديقتيّ حقاً.

أفتقدهما في كل حين وأتذكرهما في أغلب تفاصيلي، حينما

أحزن أذكرهما ولو أنني بخيلة أحياناً كثيرة في البوح لهما، أفتقدهما في لحظات فرح تغمرني من دونهما وكأنني لا أفرح إلّا معهما.

آآآه يا ندى كلما تذكرتك بكيت طموحاً أصبح موءوداً لأجل حاضر مظلم.

آه يا ندى أَنحن ننتمي إلى عالم حجري!؟

أنا وصديقتاي كُنّا ولانزال نحارب لأجل طموحاتنا وكأننا نسعى لإلصاق عار يوسم على صدر مجتمعنا المظلم! ولم تختلف الأحوال من بعد ندى ببدء انسيابي بالكتابة.

أَممكن أنهم لا يجدون مهنة تناسب الأنثى غير التدريس!؟

وتدريس ماذا؟ تدريس دين وتاريخ وأدب كان يُعظّم به شأن المرأة، يا للتناقض!

بات العالم يرى فيه كل امرأة تسعى لأن تنجح وتكافح بكل ما تملك لأجل أن تنتصر لحلم بسيط يجعلها داعمة وخيّرة بكل ما تعود إليه لأجيال من بعدها، ولمجتمع ينبذها بكل ما يؤتيه من قوة!

أصبحت أشعر أن تميّز أي أنثى خلفه صراعات قاهرة ومميتة.

ها أنا من بعد ندى كوني كاتبة فهذا لا يعني إلّا إنني جريئة ذات تصورات تتعدى العادية لديهم، لست متحررة إلى درجة أقيم علاقات تثير تصورات كل منهم بأنني امرأة لا تعرف الحدود والعادات، وكأنني فتاة خارقة لعادات أعرافهم، حينما كتبت لا يعني أنني منفتحة إلى درجة التعري عن الأدب والأخلاق السامية، أدرك جيداً كيف لي أن

أكون وفق الحدود والمعقول، أنا أحترم مكانتي وهيبة حضوري في كل شأن أكون فيه أكثر من أي كان وسيكون، فلا أحد يهتم لشأني أكثر مني!

ندى أغلقت أبواب مستقبلها المهني منذ بدايته وأخشى على سفانة اللحاق بها، أعلم أن لسفانة تطلعات كثيرة، بدايتها بعثة دراسية آمل كل الخير في إنجازها، فهي قادرة وأكثر إن شاء الله، لكنني أخشى عليها من ضغوطات تجعل منها غيرها.

أكره مجتمعي حينما يخلق من الطموح عزلة أو صمتاً يكاد يجثم على صدورنا، أبغض أياماً أعيشها بكل عناء لأجل حاضر يُبتر قبل أن يبدأ.

سفانة من بداية التحاقها بالجامعة انتقدت لأنها اختارت الطريق الأصعب، لأنها وبكل بساطة تدرس في جامعة تبعد عن مسكنها بساعة ونصف، تسلك درباً صحراوياً في القطار يومياً من الساعة الرابعة فجراً إلى حين انتهاء محاضراتها، وبدء الدوام الجامعي يكون من الدقائق الأولى للساعة السابعة والنصف صباحاً حتى الساعة الخامسة مساءً، وآه من تنقلات سكة الحديد «**حديثي عن القطار الأخضر**» يحتاج مجلدات، لا أدري بما أصف كرسيه العظيم الذي أشعر بأنه يقسم الجسم إلى أربع قطع، أو رنينه المزعج وكأنه رنين جرس إنذار! أو من ماذا وماذا!؟

كل ما يمكنني هو أن أشير إليكم باللحاق بأول رحلة برية بذاك القطار، اختصاراً لي من رسم خطوط لو أكتبها نُسجت متعرجة!

تخرجت بمستوى يؤهلها إلى التعيين كمعيدة في الكلية نفسها، والالتحاق أيضاً بالبعثة الدراسية لكن في جامعاتنا لابد أن يتبع اسمك آل تعريف أو معارفك تتجاوز شيوخ المريخ!

لذا تعذَّر قبولها من الجامعة الأم نفسها وقذف بها إلى درب آخر قد يستصعب عليها مواصلته، عينت بكلية ذات إمكانيات أقل..

في أول القبول أتاها اتصال يخبرها بأن أوراقها الرسمية قد ضاعت! سبحانك ربي أي مسؤولية تعرفها تلك الجامعة!؟ أو بحق أود أن أعرف ما الذي سيرجى من جامعة وتلك البداية من إدارتها!؟ لا علينا، بات تعيينها رغم المعوّقات التي لزمتها، لم نصدق كيف انتهينا من زوبعة التقديم والقبول، إلى أن وصلنا إلى توقيع العقد؛ والشرط الواجب الموافقة والذي كان من أصعب الإشكاليات التي واجهتها هو: «في حين يتطلب القسم لضرورة استكمال الدراسة ومن إمكانية الجامعة توفير طلب التحاق ببعثة دراسية تلزم الموافقة».

وأمر الابتعاث هو الهدف والأمل المنشود من كل سعي كانت تريده سفانة لكن والدها يرى بعين المجتمع أيضاً، مستقبل الفتاة لا يكون إلّا بزوج تخيط له زر قميصه وتعد له وليمة عشاء لبعض رفاق مجلس الشباب العشرين! هي اختارت توقيع العقد وإعادة صنع فكرة تلمع من بين أفكار صدئة إلى حين يتم أمر ابتعاثها.

كانت على العكس تماماً من ندى، أو أنها خافت أمراً يلزمها مشابهتها إلى حد النسخ والالتصاق فاختارت الصمود والمحاربة لتحقيقه!

ها هي تمضي عاماً كانت فيه الأستاذة الأصغر بين مكاتب ضخمة لأعمار تضاهيها سنواتٍ بين أعضاء هيئة التدريس الجامعي، وها هو الوقت الذي تلمع فيه أفكار والدها وتهديها بركة الرضا ودعوات تضج من قلب أب فخور وسعيد لبنتٍ ختم اسمها باسمه.

أشهر قليلة وتحلق سفانة في سماء بعيدة عن سمائي، أشهر قليلة وسأشعر كم هي فقيرة الحياة من دون صديق، أشهر قليلة وأغني الفقد الذي أتقن تلحينه بين ليالي السهر!

سفانة يا صديقة بكِ بت أمقت أمريكا، أمقت أوروبا وجامعاتها، أمقت جامعاتنا وقلة إمكانياتها بين جامعات العالم، آآآه يا أمريكا ماذا بعد سفانة!؟

لكنني بك بت أتقن أن أجمل ما يكون هو أن تري حلمك المستحيل صورة أقرب من الواقع، حبيبتي حيث أنتِ وأينما كنتِ أنا وقلبي داعيان لكِ على أمل أن تغدو كل الأحلام المعلقة بين سماء وطني وسماء لوس أنجلوس حقيقة تستحق فخر كل الرّفاق.

..(23)..

..كل ما أحتاجه هو أنت..

لم تعد لندن الآن سوى ماضٍ انتهيت منه في أيام قضيتها بين حنين ونفض مشاعر ليتني أتخلص منها، عدت إلى مسؤوليات أظن أنَّ لندن أراحتني منها قليلاً، بت أكثف جهدي لأن نتخلص من عناء الإيجار ونمتلك بيتاً يغنينا عن تعاطف فياض وصبره على ماديتنا الضعيفة التي باتت وكأنها تشلُّني بين الحين والآخر.

فياض ذاك الذي دائماً ما تخور كل قواي عنده، فياض الذي طالما بحت إليه ما لم أبح به لغيره، وبرغم أنه يعلم كل احتياجاتي وكأنه لا يزال بخيلاً وبشعوري ذاك يكسرني، وليتني حينها حفظت شكواي لنفسي، يا الله إني أستغفرك وأتوب إليك.

صدقاً والله «الشكوى لغير الله مذلة».

ولا أدري لمَ لا يفهم الرجال بأن حاجة الأنثى إلى رجل يكون هو كل حياتها تعني لها الكثير، وكأنها تولد من جديد، فلا أعظم من مولدات طاقة الحب، فحينما تكشف له تعرجات دنياها الكثير من

حمم البراكين وعواصف المشاعر المدفونة، فإنه إن لم يدركها حينذاك فهي تذلها لِلحظات كثيرة تشعر بها أنها منكسرة ومهانة جداً.

حاجة الأنثى إلى رجل أحبته كحاجة رجل شَيَّبه الدهر إلى أمه، وتلك التي أظن أنها محالٌ على أي رجل استيعابها، فمهما كانت حاجة الأنثى فهي أقل بكثير مما يحتاجه هو، ولأنه يبقى رجلاً والرجل أقوى في كل شيء، وما من إنسان حينها غيره!

وبما أنني بدأت أستوعب ما قالته سفانة يوم كنا نستعرض مشكلات لزميلات اعترضن مشوار حياتنا فجأة بعد غياب «زين عالم جميل والرجال عالم بخيل، موبايلي عالم من اختياري والرجال عالم من انكساري»، أذكر أنني ضحكت كثيراً وكأنني أستقبل نكتة وهي في الحقيقة واقع.

أتصدقون أنني رأيت فيها شعارات لابد أن تلصق على زوايا كثيرة في شوارع حياتنا وعند إنارات عالية أيضاً، بالضبط حالها من حال شركات الاتصال الأبرز سيطرة على إعلانات شوارعنا! فنحن الإناث نحتاج تذكيراً بين حين وآخر بأبرز عيوب الرجال، لأن الحب يُعمينا عن كل شيء حتى أننا ننسى أنهم لم يكونوا إلّا باختيارنا!

***

فياض لاأزال أحبك وكأنك تنبض في داخلي تندفع بين شرايين قلبي إلى أن تظهر في هواء حياتي فأتنفسك، تعلم أنني احترت في

هواك وبت أسأل أَأملك بك هوىً جامحاً؟ صدقاً والله فإن عشقك غير خاضع للعقل أبداً، منذ أن عرفتك مع كل نبض لقلبي أنطق اسمك إلى أن تنفستك عشقاً فأدمنتك، وكأنك من المسكرات حقاً سلبت عقلي قبل روحي، لكن قل لي أي ذنب ستتحمله بعد أن أدمنتك!؟ لطالما أخبرتك بأن كل ما أحتاجه هو أنت.

فياض إياك تبعد عني، كُنْ بالقرب حبيبي إلى حينٍ أَشْتَمُّ فيه ثيابك، أريد لرائحة عشقي بك أن تفوح ولا يعود إليَّ أي مسك طيِّبٍ من بعد عبق ريحك بين أنفاس الملأ، كُنْ لي مثلما جعلتك سيداً على كل الرجال.

يا ساكن الروح والعين والسهر أحتاجك..

أحتاج إليك كلما شعرت بأن السعادة تنكمش بين أعماقي وتضيع وكأنك مبعث الفرح لأرجاء كياني..

أحتاج إليك كثيراً في كل مرة أصبح فيها وحيدة حزينة بين الكثير من حولي..

أحتاج إليك جداً حينما أشتهي أن أغفو في حضن دافئ..

أحتاج إليك في كل مكان يسكن خلاياي ببرودة تنفث داخل روحي وتتجمد..

يا أجمل ما في حياتي أريدك بشدة وكأنك سبب وجودي..

أحتاج إلى هواك ينعش فؤادي فأنعم في حياتي يا كل حياتي..

لا أدري ما معنى حياتي من بعدك، فأنت يا حبيبي كل الحب، والحياة التي أعيش أنت نبضها، موقنة أنا بأن الحياة مفردة تعني أشياء كثيرة لكن أصدق معنى لها هو الحب، الحب الذي به نمضي في تعايش منظم بتعاطٍ مع الحياة كأفراد تواجدوا في هذه الدنيا، أول الحب الذي منذ بداية خلقنا على هذه الدنيا تعلمناه بالفطرة وهو حب الله، ثم الوالدين إلى أن أدركنا حب الأفراد وحب الوطن، إلّا أننا لم نفهم بعد أن كل هذا يقودنا إلى حب الحياة بطبيعتها، كل شيء كان أساسه الحب.

فبك أنا متيمة إلى درجة لا أظنك يوماً ستستوعبها، مجنونة بك إلى حد أخشى به أن تفوتني أتفه تفاصيلك.

تعلم كم لي من الأماني الطائشة، كأن أكون كذاك العجيب بطل فيلمي الكارتوني منذ صغري «كاسبر» أتجول كظلك ألاعبك كفراشة في حديقة قلبك، أشهد لك يوماً أراك فيه أباً أظنه الأروع بين رجالات العالم، وكل الخوف أن أراك زوجاً لامرأة غيري.

تحرقني الغيرة ويجن جنوني وكأن جُل أطرافي تلتهب في غيرة عشقك.

وبرغم أنك لاتزال متحفظاً جداً عن تفاصيل حياتك مع زوجتك بالذات، لا تتحدث عنها أبداً ولا تستعرض إلّا المشاكل الممكن

تواجدها داخل أي بيت، وبهذا تُميتني الغيرة جداً وأتمنى لو عرفتك بسابق عهد أكون فيه أم أولادك ولا أحد قبلي أو بعدي.

أسألك إلهي إن لم تكتبه زوجاً لي في الدنيا أن تكتبه لي زوجاً في دار الآخرة، فأنت العظيم الكريم.

أنا بالحب قد عرفت نفسي وبالحب قد عرفت الله(*).

(*) إيليا أبو ماضي.

..(24)..

..لأحلام كانت وردية..

ها نحن بين متاهات الحياة نمضي.. نعبر طرقاً ونتوه في الكثير من المرامات، التقينا بصديقات قديمات قد التقت بهن ندى مصادفة في إحدى المناسبات، ثم عزمت على أن نجتمع بهن في منزلها وكان ذلك، كنت أعرف من بينهن صديقة تدعى زهراء حسين من مدينة القطيف شرقي المملكة، فتاة تمتاز بطِيبة قلب وروح مرحة، دافئة إلى أبعد حد، عرفتها منذ دخولي الجامعة كانت تشاركني السكن وتنقلاتي أحياناً، تواصلي معها بات نادراً إلى أن قُطع فجأة.

كانت تدرس علوم الغذاء والتغذية، تعشق الطبخ وأكثر ما تتقنه صناعة الحلوى وهذا ما يجعلني أبلغ بوزني فوق المعتاد عليه، وأبكيها بشدة أحياناً حتى لا يفوتني إبداعها، تعود وبيدها قدر صغير فيه قليل من بقايا فَنِّها أثناء تطبيق درسها في المعمل؛ في أول الأمر أعاتبها على تفانيها بجعلي أصاب بالتخمة من كثرة الأكل، ثم أبدأ التحايل كأن أتذمر من روائح معطفها الخاص هناك، فكانت تقول لي: (**لا ويش ما تعجبش ريحة طباخي أنتين بس دوقيه**)، فأعلق عليها ضاحكة

بلهجتها نفسها ولم تكن تزعل قطّ، حبيبة تلك الزهراء: طبعاً بذوق، بس لحظة أجيب إليّ **المشكاب والخاشوقة** «صحن وملعقة»، لم تكن الرائحة كريهة قطّ فقط لأن رائحة طهوها تبدو قوية وكأنها تقسم الرأس نصفين! ولا تحتمل المقاومة.

كانت قريبة إلى روحي كثيراً، فكرها نظيف وروحها أليفة، تشعرني بأن قلبها يتسع للجميع، كنا نضحك كثيراً، أعلق على بعض مخارج الكلمات لديها، وهي تتعمد إسقاطي في بعض الكلمات المنقحة باللهجة الفلسطينية، رقيقة ومرهفة، دموعها أقرب إليها من أي شيء «تبكي حِيال أي موقف» فأسميتها **(أم دمّيعة)**.

ندى وسفانة يعرفانها جيداً لأننا في الموكب ذاته التقينا بها في مناسبات عديدة، فأحببنها جداً.

منذ البداية كنت ضد التفرقة بين العقائد والمذاهب، أعرف أن كلاً منا فيه شأن عظيم لو أنفضح عابَه الكثيرُ، لا أحد كاملٌ سواه «وحده الخالق فقط سبحانه جَلّ وعلا».

زهراء كانت تحرص جيداً أن لا نتحاور في العقائد لأنها تدرك أنه حوار عقيم، هي راكزة بصحة عقائد تربت عليها جيداً وإن كانت مخطئة وأنا كذلك، لن يتحمل أحد منا مغالطة دينية على مذهب اعتنقناه منذ ولادتنا!

كنت أستمع إلى أحاديث كثيرة تسيء إلى هوية زهراء الشيعية

لكنني لا أهتم كثيراً لأنني أعرف «أن في ذات كل شخص يكمن الخير والشر، فالحذر واجب على الجميع فلا أحد يؤتمن على أحد».

ولأن أمي ربتني على أن أعامل كل شخص بأخلاقي،وأخلاقي لا تسمح لي اكتناز حقد وكرهٍ لذات لم تضرني على الأقل ثم إنني أعتنق سنة المصطفى أشرف المخلوقات وسيّد البشر «**محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صَلّى الله عليه وسلم**» الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستويين الديني والدنيوي، لم يُكن منذ خلقه على هذه الدنيا إلى أن توفاها مُسيئاً لأعداء الإسلام لذا كنت أتعامل معها حسب خلقي وديني، إلّا أن التواصل بُتر فجأة لا لسبب غير أن مشاغل الحياة كثيرة.

وفجأة (**الجنية**) ندى تتصادف معها في حفلة لصديقة مشتركة بين ندى وأخت زهراء، فكم صغيرة هي الدنيا، نقول نحن بالعامية «**مصير الحي يتلاقى**» وها أنا وزهراء التقينا.

غابت عني من بعد الجامعة بعام، لم أتوظف حينها ولاأزال أتأرجح بين سطور أول رواية لي، فلم تكن تعرف عني غير شغفي بالقراءة وكتابة قليل من الخواطر، أذكر أنه في وقت نومنا بالذات تسلطني عليها شياطين الأدب أقرأ وأكتب كثيراً، فكنت أُصر عليها بالقراءة والإنصات لكل حرف أكتبه، أو أستعطفها لأن تسمح لي بالسفر مع أي رواية أستلذ بحروفها، وهي المسكينة تستسلم: (**هادي آخر مرة باخليش تقرأين.. بيلساني حرام عليش أبا أرقد**)، وفي كل مرة

أعدها بأنها الأخيرة، وفي اليوم التالي أعاود الكرّة وكأنني لم أعدها بشيء.

حينما رأيتها عدت إلى الوراء كثيراً حيث الحماس للدراسة أو شغف المعرفة بكل شيء، أول سبب جعلني أتعلّق بزهراء هو أنها مختلفة عني في كل شيء، صحيح لم تكن تؤدي فروضها أمامي وسألتها ذات مرة: زهراء لم لا تصلين أمامي، أين المشكلة في ذلك؟

قالت بخجل: لا.. لا مشكلة أبداً لكنني أحترم اختلافنا في ذلك.

فوجب عليّ احترامها أنا أيضاً، أصبح وقت الصلاة يفرّقنا إلى حين أن ينقضي الواجب الذي عهدناه بفطرتنا «**كل مولود على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»

***

في ذلك اليوم بالذات عدنا إلى أحلامنا وذكرياتنا الجميلة، كل راحت تتحدث عن طفولتها وأجمل الأحداث في حياتها، منهن من أصبحت أماً والثانية ستزف عروساً قريباً، وأيضا هناك من ستصبح طبيبة خلال أشهر قليلة وأخرى ستفتتح أول مشروع لها، طموحات كثيرة رأيتها تبرز نجاحات مبهرة.

كانت من بينهن فتاة تدعى مرام، زعيمة الضحك في اجتماعنا ذاك، شعرت بها كالبلسم للكثير من الأوجاع في داخل كل منا، فكلنا كدنا نموت ضاحكين.

وفجأة بين ثرثرة الأماني والأحلام قالت: أنا لم أحقق من أحلامي

شيئاً، لم أكمل دراستي ولم أصنع لي مشروعاً أبرع فيه، ولم أفكر يوماً أن ألتهم لي كتاباً يثير عقلي بأي معلومة، أنا فقط ربة منزل «**أغسل - أرتب - أعد الطعام وأرقب حضور زوجي وابني منذ الصباح حتى الظهيرة**».

كانت تتكلم وكأنها تستصغر عملها فرددت عليها: وهذا أنقى وأجمل حلم تحقق، زوج وطفل وبيت أنت ملكته «**هنيئاً لك يا مرام لديكِ مملكة تحتاجها كل فتاة**»، صدقيني أحلامنا كثيرة وفي كل حلم قد نرى شأن واقع مختلف، لو أننا فقط آمنا بأن الجمال لن يكون إلّا إذا عهدنا رؤيته كما هو بسيط وهادئ في قلب الواقع، فكثيراً من الأحلام لا تناسب أبداً طبيعة حياتنا، فأحياناً خَلقُنا للأحلام ووهبها روحاً للحياة يكون أشبه بالتلاعب بحياتنا، فكم أشعر بأننا بحجم أحلامنا نبتر الكثير من واقعنا.

وبينما أنا شاردة الذهن أتت ندى من الداخل تحمل بين يديها كيساً لونه داكن فبدا لي أنها تخبئ شيئاً ما.

صاحت بحماس قائلة: بيلسان، أَتذكرين يوم كنا صغاراً كانت هناك سكاكر بأشكال الفواكه.

أجابت بدلاً مني سفانة: ذات الألوان؟

وأكملت أنا: بطعمها قليل من الحموضة؟

ضحكت وهي تلوح بيديها بعلب وترمي على كل منا نصيبها منها: وجدتها في دكان في آخر الحي تخيلنَ! فسألتها بأكثر حماس: فهل

رأيتِ آيس كريم يأخذ شكل الكرة بلون أحمر، يا الله ذاك الآيس كريم الأكثر جنوناً بي كنت كلما أستطعمه أشعر وكأنني في عالم (ساسوكي البطل المغامر).

ضحك الجميع معلقين بأنني أمتلك خيالاً مجنوناً.

فاقتربت مني سفانة وهي تمد لي حبيبات من سكاكر ندى الحامضة: وهذه إذن، تفضلي كلي منها ما تشائين وغادري بنا إلى حيث يحملك خيالك أيتها المجنونة!

يارباه كم عشقتها إلى حد الإدمان، التهمتها ببطء كي لا تفوتني أي لحظة جنونية تعود بي إلى عالمي الأجمل، تذكرت حينها «**صغيرتي ماروكو**» كما أحببت أن أسميها أو لأنني مضيت بعمري أكبر وأكبر وهي لاتزال صغيرة.

ماروكو الصغيرة ذات الفيلم الكارتوني الأشهر جنوناً بكل تفاصيله عَلِقت بذاكرتي إلى درجة أنني أحياناً أختار افتتاحية بداية كل حلقة كرنين لهاتفي النقال وكأنني أسمعها تغني.

ماروكو ماروكو ماروكو..

اسمي ماروكو الصغيرة أهلاً بكم يا أصدقاء.

هيا هيا..

هيا للهو وللمرح.

ندخل يا أحباب تجارب ستعلمنا وتربينا.

هيا هيا..

نحيا في أجواء الفرح.

أعمل طول الوقت مقالب ستمتعنا وتسلينا.

لاتزال تلك الصغيرة عالقة في ذهني منذ صغري يوماً تمنيتها أنا ويوماً آخر تخيلتها صغيرتي، ماروكو «**جرعات الطفولة التي أدمنتها**» فهي بالنسبة إليّ الأسرع بالفرار إلى العالم الأجمل.

هناك أمور كثيرة أسترق منها لحظات أعود بها إلى الطفولة كمشاهدة أفلام الكارتون الأكثر شغفاً في يومنا ذاك، أو ترداد خرافات الأجداد فأنا والله لاأزال أخاف من امرأة عجوز كانت تدعى بـ (**أم السعف والليف**)، أذكر تفاصيل سرد ابنة الجيران لي وهي ترتعد خوفاً من تخيلات أم السعف والليف، تقول نقلاً عن جدتها حينذاك إن أم السعف والليف كانت تسكن أعالي أشجار النخيل وبين أغصانها، وعند هبوب الرياح كانت الأغصان تهتز بشدة لإخافة الأطفال ومنعهم من الخروج من المنزل وخصوصاً عند حلول الظلام وهطل الأمطار حتى لا يصابوا بالبرد.

يظن الناس أن أم السعف متواجدة في الأعلى إلا أن كل ذلك كان خرافة، فتلك العجوز لا وجود لها أبداً، (**أم السعف والليف**) قُصد بها أنّ السعف هو قشر النخل، والليف هو رجل كان يمشي بين المزارع فرأى جذع نخلة مقطوعاً وعندما مر من جانبه رآه يتدحرج وظل يتدحرج خلفه حتى وصل آخر الطريق فأحس بالرعب إلى أن

بدأ القراءة بآيات من القرآن الكريم حتى اختفى عنه، ومن ذاك الرجل وحكاية جذع النخلة ابتدعت الخرافة الأكثر حماسة ورعباً حينها.

ولاأزال في حالة من الشوق إلى حلقة كنا نلتم بها جميعاً أولاداً وبنات، نحضر قصاصات من الورق، نكتب في الأولى لصاً، والثانية جلاداً، والثالثة حاكماً والرابعة مفتشاً، وبالقرب منا مسطرة أو عصا للجلد، تطوى الأوراق الأربع ونبدأ لعبة الحاكم والجلاد، ترمى الأوراق في الهواء فيختار كل منا ورقة، لعبتنا تدور حول من يكون هو اللص وعلى المفتش اصطياده.

في البداية ينادي الحاكم «**من هو المفتش**» فإن ظهر يبدأ سير اللعبة على حماس أكبر ويتبقى اثنان هما اللص والجلاد، ثم تبدأ تظهر حركات تمويهية بينهما بالعيون أو باليدين لتضليل المفتش والابتعاد عنه خوفاً من العقاب، وإذا أخطأ المفتش في إخراج اللص، فإن الجلاد يجلد المفتش وليس اللص، أما إذا عرف المفتش اللص يحكم الحاكم عليه بالجلد خمس جلدات «**أكثر أو أقل**» حسب ما يريد، ويمكن أن يرغم اللص على القيام بمهمات.

لعبة بت أشعر بأنها قاسية، فحسب لُطف الجلاد تكون إمكانية استمرار اللعبة أو توقفها، لأن تلك الحلقة سرعان ما تتحوّل إلى مسرح لمشاهد درامية محزنة، كنا نختلف كثيراً بعد كل مرة نقرر أن نبدأ اللعبة!

ولم أفهم السبب في أننا كل يوم لا بد من أن نجتمع ونبدأ بتكرار اللعبة نفسها، وكأننا لم نتعظ من مأساة أمس،كنا موقنين بضرورة

اللعب بأي حال كان، كأننا نخشى يوماً نكبر ونندم على أيام لم نعشها كما يفترضها الزمان.

يغمرني الحنين إلى الطفولة وأفتقد اللعب في أرجاء الحي حافية القدمين، وأحن كثيراً كلما شاهدت أطفالاً يبسطون الأرض يثرثرون فكم أود أن أشاركهم الحديث بأي شيء كان..كأن أغني مثلاً أو أسمع خيالاتهم الجميلة وأهتف لكل طائرة تحلق في سمائنا النقية، فالشيء الوحيد الذي لن أكبر عنه أبداً هو اللهو تحت المطر، لاأزال أفعل الشيء ذاته رغم تفاني عمري بالتقدم نحو زمن فاق الطفولة، ففي كل مرة يكرمنا الرب بهطل مطر أخرج لفناء منزلنا ولو خلسة تحاشياً لغضب أمي، أضع لي إناءً أتركه إلى حين يمتلئ بخير السماء وأرتوي كالملهوف على قطرة ماء حُرم منها، ثم أمارس الجنون بإتقان، أقفز مع كل قطرة وأضحك بصوت عالٍ كأنني أغتال كل أحزاني، إلى أن أهدأ قليلاً.

أفتح ذراعيَّ كأنني سأعانق السماء، وأدور حول نفسي بهدوء كما لو أنني في حديقة مليئة بالزهر ومن حولي فراشات وعصافير تغني لي بألحان تُعزف لأملٍ وغدٍ أجمل، فكلما شعرت بحنين يتأرجح بين ليالي سهر وصباحات يقطر منها ندى لأحلام وردية دعوت الرب بسُقْيَا غيثٍ فيه نفعٌ بلا ضرر، سُقْيَا أغسل بها روحي من كدر عناءات زمن شاخ بي كثيراً ومن همه خشيت فقدان الكثير من حياتي.

..(25)..

الحب يجعلنا أغبياء في أحيان كثيرة..

حدث أمر مفجع على كلينا «**أنا وفياض**»، هاتفني فجأة من رقم جديد وهو الذي من حين أن عدت من لندن لم أسمع صوته قطّ، كان يقول لي: [بيلسان زوجتي باتت تعرف أنني على علاقة بغيرها لذا أود أن نبتعد قليلاً، لا أريد أي تواصل منك إلّا حينما أشير إليكِ أننا في أمان، اتفقنا!؟].

لم أعرف كيف أفكر، فقط أجبته ببرود: حسناً، لكن لا تنسَ أن تطمئن قلبي عليك، إن استطعت وافني بالأخبار.. وأقفلنا الخط.

في أول الأمر لم أكن إلّا في حالة ذهول، فبالأصل بالكاد نتواصل هذا أولاً، غير أنني وجدتها كحل مناسب أن يخبر زوجته بكل الحقيقة.

لكنني حقاً لا أعرف ما الذي يود أن يفعله، أَتراه سيهرب ويتركني في منتصف بحره!؟

لا أنا تلك التي ستموت بعد أن تغرق ولا تلك التي ستعيش بعد أن تنجو..!

لا أدري والله غير أنه أحياناً يجعلني أشعر بأحاسيس مخيبة لكل آمالي، بات يُرعبني ذاك الرجل وأصبح يقلقني التعلق به وأنا التي كنت واقفة على مشارف الحب في حال لا يكون إلّا بجيش كاسح مسلح ضد الحب كما لو أنه إرهاب يقصف أعماق قلبي!

ولأجله تنازلت عن دروع احتميت بها طوال حياتي، كأنها أصابتني لعنة الحب وبت معه أتقن لعبة الانكسار والخضوع.

ورطني الحب به جداً، كل ما بي متواطئ معه.. «عقلي وقلبي وروحي وكل ما أملك»، كأنني منصاعة لعشقه باستكانة، أشفق عليّ أحياناً فأنا عالقة تماماً بين أطراف قلبه بكل ما لديّ!

منذ هاتفني في يومنا ذاك لم أعد أعرف عنه شيئاً، وها أنا أمضي شهراً آخر من دونه، أشتاقه جداً، وفي كل ليلة أبكي حالي وكأنني أناجيه.

أيها البعيد كحلم مُحال والقريب كنبض قلبي سئمني الحب ولاأزال أحبك..! .

أحياناً الشوق يكون كما الطفل في بطن أمه، ينهش خواصرك ويفيض بأمعائك، إلى حين تتقيأ وجعاً ولا شيء بك يهدأ حتى تلقاه، «فكم هو مجرم ذاك الغياب».

في داخلي براكين من العشق وثورة أشواق لن تهدأ إلّا به، بعثرني حبه كما لو كنت رملاً يفترش ساحة ملساء لكنها صلبة جداً، أحتاجه

جداً..، أحتاج صباحات تملأني به كي تفيض حلاوة أيامي..، ولا شيء أقسى من الحاجة إلى شخص بخيل جداً، تُهينك وتجعلك ما بين معاناة لآمال مفرطة لن تكون أبداً، وجر أذيال الخيبة لأشياء كثيرة تحطمت!

لاأزال أكذب كثيراً، وأهتف بيني وبين نفسي كم كرهتك جداً، تخيل إذن فياض **أنا أكرهك جداً**، أكرهك بأكثر مما تخيل، لطالما أحببتك وأنت تدرك، ولطالما كرهتك دون أن تشعر، صدقني أرجوك.

ولاأزال أشتهي نسيانك، وإلى الآن لم أفهم بعد كيف لي أن أعيش بهواك ميتة!؟

بربك أي أنثى جعلت مني؟

آه يا فيّاض ألم تدرك بعد بأيّ أنثى حظيت؟!

«أحياناً تغمرني أفكار غبية وأتمنى لو أنك سمعت يوماً بخبر وفاتي».

تُرى ماذا ستفعل!؟ قل لي إذن..، أَستزور قبري في يوم ما؟ مثلما يفعل زائرو الموتى، أو حتى تدعو لي بعد كل صلاة وفي كل حين؟

فيّاض أرجوك اطلب لي الرحمة والمغفرة، استغفر لي عن كل يوم أذنبت فيه في حال ورطته بالحب بك، فوحده إلهي يعلم كيف أحببتك في يوم حياتي..

وإذن يا حبيب قل لي أيضاً..، أَستبكيني؟

لا أبداً حبيبي لن ينفع الندم من بعد رحيلي، ولن تكفيني دموعك

ألماً من بعد حال كنت فيه معك، لكنني أيضاً لن يُرضيني وجع أُلزمك به حين أغادر الحياة، أنت في حِلّ من كل شيء..

أستشهدك بـراءة الذمة منك ومن عذابك، أمام أعين تملأ الصفحات تلك [قارئة].

تقول لي ندى بعد كل وعكة عشقية تلزمني العزلة من بعده: أنتِ من سمح بكل هذا؟ كيف لك أن ترضي الاستهانة بقدر عظيم من تلك المشاعر التي أعطيتهِ إياها، أنتِ المخطئة الأولى منذ بداية تلك العلاقة، لا تُعطه أبداً يا بيلسان «قد يحتاج منك الكثير بعد أن تَكُفي من العطاء»، أحياناً الإفراط بالعطاء من قِبل من أكرمته بشح العطاء يجعلك كما المقيدة يده، فكل شيء قليل مهما قدمت! وهو قد يكون كذلك «عاجزاً أمام بذخ مفرط من أنثاه التي جنت به»، مُخطئة في كل شيء أنتِ، اسمعيني هذه المرة وجربي الغياب معه واتقني لعبة التخفي أكثر منه «أخلقي بينكما روحاً جديدة تلطف أوجاعكما بين تقاسم أسوأ الظروف».

أجبتها بصوت أقرب إلى الضجر من كل شيء أمامي: وكيف ذلك؟! أَترين الحب يفترض منا كل هذه الألاعيب!؟ أي حب هذا!؟

وصدقيني هو أبداً ليس بعاجز أمام أي شيء، أَلا تعرفين أن العطاء موزون لدى البعض الكثير؟

ثمة أمور تعلق بالنفس تجبرك على الإمساك بأشياء كثيرة تشعرك بأنك تملك السيطرة على نفسك في أغلب الأحوال، وهو غلبني بهذا،

بارع في التحكم بنفسه، لا شيء يقوده إليّ إلّا تكرماً منه إن أراد! ثم إنني حينما سخرني له إفراط شعوري به لم يكن لمردود عطايا أبداً، أعطيته بملء رضا ولو أنه كلفني الكثير من روحي، فقط أحتاج احتراماً وشيئاً قليلاً من الاهتمام..، ألست أستحق أو ماذا؟

وجدتها غاضبة وتكرر لي قول البداية: لكنكِ مخطئة أيضاً.

صرخت بها، ومن دون شعور بت أرتجف باكية: أي خطأ ذاك، أذنبي الوحيد أنني أحببته بكل ما لديّ!؟ أجُرمي الوحيد أنني بنيت فيه أحلاماً قد لا تتسع لأرض الواقع، لم أتمنَّ غير أن يكون أباً لأطفالي، رجلاً أقضي بقية عمري تحت ظلاله، رجلاً يشهد بتجاعيد تثمر لعمر عتيق مضى بمراحل تلك الحياة، رجلاً أحتمي به بين اعتصارات زمان بات بكل ما فيه مرعباً..، أتماديت بأحلامي معه..، أم أن ذاك قدري بأن أعيش على نسج أحلام يبترها الواقع!؟

قالت لي بحزم: تحمليه إذن.

قلت بخضوع: كيف يا ندى كيف؟

إن كانت لا قدرة لك على تحمل غباء سيدك ذاك اتركيه قبل أن يفوت الأوان، لست مضطرة إلى البقاء معه، ثم أظنه لن يكترث طويلاً لرحيلك عنه كما الحال لوجودك بجانبه! فتصرفه لا يدل على أنه محب أبداً.

وفجأة وكأنها وجدت المبرر لكل ما كان، فقالت بصوت أعلى:

بيلسان، أَممكن أنه يستدرجك للغياب، ومن ثم الفرار والنفاذ من علاقة قد يكون أخطأ حينما رمى بشباكه منذ الرمية الأولى!؟

ذهلت من تفسيرها، قد يكون ممكناً، وجداً.

أجبتها بقليل من الصبر: لكنني أنا أحترم الحب وأجد الهروب جرحاً عميقاً لأي صورة حب كان، فكيف بصورة حب نسجتها في مخيلة الكثير منذ أن عرفته.

أنا وهو رواية من الممكن أنها أبت أن تنطوي وتمضي فصلاً آخر من دون تفاصيل تعلق ولو بطرف حكاياتها!

ثم أنا ألزمت نفسي وعوداً كثيرة: قلت له ملياً على الدوام سأنتظرك، وها أنا أنتظر.

ندى ليته هو يطلق سراحي، يخبرني أنه بي لم يعد يرى شأن حلم قد يتحقق وصدقيني سأرحل، فكم يصعب عليّ الرحيل «وفائي لوعود وحب عميق تغلغل في داخلي يحتم عليّ البقاء»، فلأنني بلهاء منذ البداية وهبته كل شيء لزمني الصبر كثيراً، وها أنا ألتزم حياة لم أتخيل أن أعيشها أبداً.

ليته يدرك أنني أعيش به حباً لن يفهمه أبداً أو حتى يستحقه طوال حياته.

لن أرحل دون أن يطلب مني الرحيل هكذا وعدته «**أنا لن أتركك إلّا حينما تطلب مني الرحيل بلا عودة**»، اقتربت مني وهي تحاول أن تستوعب: أي حب هذا يا بيلسان.

لِمَ تُعلقين نفسك به لوعود أطلقها آلاف العاشقين غيرك ولم يفِ بها أحدٌ منهم.

إِفهميني، أَتظنين أمراً كهذا سهل عليه أو عليك «**كيف سيطلب منكِ الرحيل!؟**».

قد تكون كل أفعاله تهدف لشيء ما أنتِ لا تودين فهمه أبداً؟

أنتِ لستِ غبية يا بيلسان، فلمَ كل هذا التفاني في حب لم يقدم لكِ سوى العذاب؟

ـ لا والله لست غبية لكنه أيضاً يملك جرأة البوح حينما يريد أو لا يريد.

لهذا أنا أتساءل كثيراً: أين يجب عليّ الثبات..، يصعب عليّ الخيار في دائرة خارج محيطه، أحتاج منه البوح بكل شيء حتى لو خالف ظنوني وآمالي به، أحتاجه يصرخ بي: انتهينا، والله لأرحلنَّ دونما عودة، فلا تظنين بي البقاء وأنا أرى كرامتي بدأت بالانهيار على صورة حبه، ستقولين لي الحب لا تُحتمل فيه الكرامة وعزة النفس، لكنني أيضاً موجوعة منه وجداً فأنا والله كثيراً ما أشعر بسوء كأن أرى كرامتي تهان حينما أتصل عليه مراراً وتكراراً وأجده لا يجيب وأنا لا أريد إلّا أن أُطمئن قلبي عليه، قلبي ذاك الذليل له جداً، قلبي الذي يهينني بين حين وآخر لأجله، أكثر من مرة أحاول الصمود والتزام الغياب لكنني أفشل بسببه، يحبه جداً وكأنه النبض الذي عليه يعيش، سئمت قلباً بات يجرعني أقسى وأمر العذابات طوال حياتي.

إن أسمعني أعذاره رضيت وكأنني أطبب على الكثير من نزف تعاليت عنه فور حضوره مُجيباً.

قاطعتني متعمدة بتر حديثي ذاك: غامض يا بيلسان، فلِمَ كل هذا وكأنه يخفي سراً عظيماً؟

فماذا أعظم من قدر زواجه!؟

فالحب أيضاً لتكتمل صوره يحتاج وضوحاً.

ـ آه يا غالية، أتصدقين إن قلت لك بأنني أتلهف إلى الكثير منه ولم أفهم لِمَ كل هذا!؟

فكثيراً ما أشعر بأنني رميت نفسي بكل قسوة إليه.

أنا أيضاً لـمْ أرأف بحالي معه، أنا السبب في كل شيء..، أنا السبب.

وبين الكثير من دموع وأدتها في مقبرة التحامل على النفس قلت لها: ندى أنتِ وغيرك وهو أيضاً لن تفهموا بعد «إنه القدر يرميني إليه»، وأنا رضيت بكل حياتي، وألف الحمد لله على كل حال، قد يكون لي نعمة وهدية من هدايا القدر، أو أنه مسكين، فحظه بأنه كان لأنثى لا تعرف الوسطية في الحب، عشقته بكل حياتها إلى أن ماتت فيه، وكأن ثمة مفارقة مؤلمة يصح الكتابة بها في طرف الحكاية، أو لتشهد أشد الوجع على أحد أبطالها، وممكن أيضاً أن يدرك أحدهم بأن الحب يجعلنا أغبياء في أحيان كثيرة..

وفي طرف الحكاية يجب ألّا ننسى، ثمة مفارقة مؤلمة هي: أنها لا تستطيع أن تحيا من دونه، هو يعيش وكأنها وهبته حياتها!

..(26)..

لإدراك الحقيقة تلزمنا النهايات..

«لِمَ تُخيفنا النهايات رغم إدراكنا لوقوعها في أغلب الأحيان؟ أشد ما يُربكنا هي البداية من بعد النهاية! وفي كلتا الحالتين لا أظننا نعيش».

***

وبحكايتي معه ظننته أحبني ولو قليلاً، حسبته سعيداً بي وبروحٍ وهبتها له لكن خاب ظني، فأكثر ما أتقنته معه هو الظن وكأنني لم أدرك بأن بعض الظن إثم، كان يقول:[**أكره الحب من طرف واحد لأن فيه ظلماً شديداً، طرف يأخذ كل شيء وطرف آخر يدفع كل شيء، حتى الحب يقوم على العدل**].

فياضي مؤمن بأن الحب من طرف واحد أشد أنواع الظلم، لكنني أتساءل حقاً ما الذي كان يعيشه معي..!؟

أتراه يهوى التعذيب ويتلذذ بألم يخلقه ولو من فيض حياة باتت تلفظ أنفاسها الأخيرة، فأي قلب يحمل وأي بشر جنسه!؟

أَهي أنا من ظنت بأنه يدرك بما يفيض ملء السطور..!؟

أَحقاً هو من تغنى بمعتقدات لا أدري من أين خرج بها حتى أضاعها يوم التقيته!

حفظت منه ما جعلني أتلبس حال قوله حتى بت أظنه يعلو بحياتي، لكنه في الحقيقة ألغى أدق تفاصيلي وبدلاً من أن يصعد بي ألصقني رفقة أقزام تواطأت العمالقة في وصولهم القمة!

يا للأسف، فكم كنت غبية منذ البداية، ولم أدرك كيف لي أن أمضي ظلماً لنفسي وحياتي وهو نفسه من كان يقول:

[هناك لونٌ من الحب لا ينال أهله منه إلّا أن يستردوا قلوبهم وهي تالفة الشغاف مخضلة بالدم، وأصحاب هذه القلوب هم الذين يلجأون إلى الأديرة في أخريات الحب فيضمدون جراحهم بالمسوح، ويحيلون النقمة التي تنهش قلوبهم إلى رحمة وشفقة واستغفار، وديننا ليس فيه رهبانية، ولكن الذي ينال من الحب هذا المنال ينقلب دون أن يشعر إلى راهب.. ولكن في غير دير].

كنت تماماً كما علمني هو:**[إننا نستغني عن العالم كله بإنسان واحد يحتوي مشاعرنا]**، ولأنني كنت أنثى لم تتقن سوى الحب له استغنيت عن جُل حياتي لأجله، وبرغم أنه لم يُحسن الصنع معي قطّ فقط زاد عليّ جرعات من جنون راقت له كثيراً، تفنن معي في قتل كبريائي الذي بات يُرخصني أمامه في كل مرة أتدفق بالعطايا له، وهو نفسه الكبرياء الذي سمعته يغني بصوت كاد يخترق طبلة أذني فشعرت

بصداه من آخر فصول حياتي معه: [**يجب أن لا ننسى كبرياءنا إلّا إذا تأكدنا من كرم من نستغيث به**].

ولكنني معه نسيت وأجرمت في حق نفسي، وكأنني لم أدرك بعد بأنه أحياناً هبات الروح تساهم بك لتكون من أعظم الوفيات.

كان لفصل النهاية أمر، بالكاد أن يكون، هو أنني لاأزال أتنفس بروح ماتت!

بعد كل ما توصلت إليه معه «قررت أن أهاتفه لكن هذه المرة من هاتف سفانة، لأنه أبداً لن يجيب على اتصالاتي المباشرة به».

وأنا أحتاج فاصلة تضع لي حداً بنقطة.

لست على عجل من شيء لكنني أود أن أعرف ماهيتي لديه، فأنا لست صديقته ولا أخته، أنا أنثى عاشقة له.. وكل مُناي هو أن أُكمل نصف ديني به، ولأنني لن أبقى مع أي رجل دونما هدف يليق بي كأنثى تحترم نفسها وأخلاقها، يكفيني أنني به تجاوزت الأعراف التي هو نفسه أكثر من يدركها وإن كان أو كنت أنا ضدها، هي تلك حياتنا مهما اعترضنا..

لم أطل الانتظار حتى أجابني بصوت يبدو عادياً جداً، صوت لم تنتابه علة ما هكذا يبدو! أما بالنسبة إليّ فإنني أعلم يقيناً أن لا أحد مثله في كل شيء، فيه عالم آخر لا يراه إلّا ثاقب الرؤيا، وبعيني معه أخشى أنني مصابة بقِصر نظر، ولا أُلام حقاً، فهو نفسه من أهداني شكوكاً تملأ قلبي به، رغم أنني أعلم ولست أعلم أكثر مما أرادني أن أعلم به.

ـ سألته مباشرة: أأنت راغب بي؟

أجابني بثقة: يومَ لا أريدك حقاً سأفصح عن عدم رغبتي بك فلا تخشي ذلك.

ـ قلت له: إذن إلى متى وأنا أنتظر!؟

أجابني بطريقة تثير الاشمئزاز: وهل أنا قدمت لك يوماً وعوداً ولم أوفها!؟ أجبته بضعف، كلما تذكرته بكيت بشدة فكيف لي أكون بذاك الحال معه: لكنني أنتظرك وأنت تعلم؟ أهانني بطريقة أتجرع بها وجعاً كلما استعدت تلك النهاية ضحك ساخراً بي: وأي انتظار تعنينه بي!؟ تمالكت نفسي وأغمضت عيني وأنا أجيبه بصمود أتقنته نوعاً ما: وأي نهاية منطقية تظنها تنفع لمثل علاقتنا؟

وكأنه ليس هو «رجل غبي لا يتقن سوى..».

يصعب عليّ أن ألحق حروفاً وهبتها لك في يومٍ عاشقةٌ أن تنسج وصفاً لا يليق بك أو برُقي نزفها.

أجابني قائلاً: وكيف تُريدين النهاية؟

ـ أجبته ساخرة هذه المرة: ماذا، هل تريد مني أن أتقدم لخطبتك مثلاً؟

أنهى كل شيء فقط بكلمة: وأنا لم أعدك بأي ارتباط، ولم أتحدث معك في يوم عن خطبة أو زواج.

استغربت الطريقة جداً، كيف يريدني إذن «أَيظنني سأقبل البقاء مع رجل لا ينوي الارتباط بي؟ ذاك حال لا ترضى به إلّا «**أشباه الإناث**»، إناث يهبن أنفسهن بأزهد الأثمان أو من دون ثمن أبداً».

يا فياضي العزيز، أنا بيلسان ولست مثل أحد، هذا إن حسبتني يوماً أشبه أحداً، **أنا بالنسبة إليَّ الحب ارتباط**، ارتباط منطقي يجعلنا في صورة نقية طاهرة إلى الأبد يا رجل حياتي المستحيل!

أعلم أن روحي في ذات لحظات ارتبطت بروحك أو أنّ فكري التقى بفكرك ذات ثانية أخرى، وأدرك جيداً ولو أنّ نصف الحكاية معك، فأنت بالفعل لم تعدني بشيء قطّ لكنني مضيت معك بوعود كثيرة لم نصرح بها.

آه يا فياض أَكنت تمضي بالنهاية مني دون أن تخبرني، أَكنت تعبث بنقاء روحي دونما أشعر!

«أهو حقاً المطعون بالحب يصاب بوحشية الممارسة به دون أن يشعر»، يصبح قاسياً جداً ينهش أرواحاً فيه هامت، وأنا همت بك كثيراً.. ولا أحد غيرك حطم روحي.

فيّاض لم أجرؤ يوماً أن أطرح عليك سؤالاً أعلم جيداً أنه سيثير قنابل في وجهي لن تهدأ وتجعلك تدور حول نفسك.

كيف لو كان لأختك مثل حالي أنا معك، فهل ستكون مع فياضها وتشد من أزر فعلته بها..!؟

أو من الممكن جداً أن تسمح له بأن يزورها ويتسكع معها في متاهات حواري الحي الذي تقطنه..

تماماً كحلم أسود بين أي عاشقين «طبعاً لا أعني أبداً بأن العاشقين هما أنا وأنت، أدرك جيداً أنَّ في حكايتنا تلك لم يكن عاشق سواي».

قل لي يا عظيم هل لك أن تتقبل انكسارها وهي التي أعلم أنا ما الذي تعنيه لك، بالضبط كمكانتي أنا لو أنني أمتلك مثلك أخوين وشعورهما تجاهي لا يقل عن شعورك تجاه أخواتك البنات!

لا تظنني بما أبوح به لك الآن سعيدة، أبداً والله، فأنا أدرك وجعك به حتى لو أنني نعتك يوماً بالرجل الحديدي «**رجل من فولاذ قلبه من جليد**»، أعرف قلبك أكثر منك، قلبك الذي بات مثقوباً جداً ولا يتسع لأحد سواها، أَهو كذلك حقاً، لا أظن أنه كان لي عندك أقل من الكثير بكثير لكنني لم أمتلكه منك بعد..، أشعر والله بأنك أحببتني ولو قليلاً.

«معادلتي معك صعبة جداً فكنت أُفسر كل ما أمضيته بك معك»، من جرب الحب ذات مرة بكل شيء يصعب عليه إعادة تجربته في كل شيء، لذا كنت أبرر تقصيرَ تَغنِّيك بالحب معي، أجد لك عذراً لا أدري إن أصاب في ذات لحظة، لكنني موقنة، فأنا لست غبية وساذجة إلى الدرجة تلك التي أظهرتني بها في فصل النهاية أبداً..، قلت لك ملياً معك كنت أتبع الإحساس، وأنا أنثى قلما يُخطئ إحساسها، ومعك وبك كنت ولاأزال أشعر.

أنا أنثى صعب جداً عليها أن تمضي دون إحساس، وبي كنت أشعر أنني أملك ولو قليلاً، لست أوهم نفسي أبداً، صبري ذاك لم يكن لمجرد أنني أحبك فقط، هناك ما يُحفزني للبقاء معك، شيء ما أنت تتقن إخفاءه.

آه يا حبيبي خيبت ظني، صحيح؛ لكن إحساسي بك وكأنه دونما

أي أثر تركته بوجع خلفته أنت لم يتغير قطّ، بالضبط كما عهدته عليّ، **لاأزال غبية جداً أحبك.. وقد يكون أشد من عمر أمضيته معك.**

وبمأساتي تلك معك..، أنت أبرع مني في تفاصيل تلك الحكاية (بدأتها أنت وأنهيتها أنت)، ولا أحد غيرك يمثل دور البطولة «وحدك المظلوم وأنا الظالمة»، الظالمة التي أعدت رسم البداية دونما علم مُسبق بتفاصيل ستمضي بها النهاية، كنت فقط بلهاء تمضي على عجل بلا إدراك ولا يقين أن البداية ذاتها هي نفسها النهاية «سراب».

صدقاً والله فلإدراك الحقيقة تلزمنا النهايات.

قل لي يا من وهبته روحي، أممكن أن تكون النهاية دون أن أنتهي منك؟!

أولم تدرك يوماً أنني بك كنت آمل وأعيش من الوهم الكثير؟!

لِمَ تركتني أمضي في سراب « ألحق الخيالات بك نجوماً أعلق بها في سموات لا أظنها احتوتني يوماً».

عـاق أنـت بأمومتي بـك وقـاس جـداً
عـلـى نـبـض احـتـواك كـان شـديـداً
عليّ لفظك لـي بالطريقة تـلـك.. .

كان لي صديقة تحب أن تنادى «**بزَهْرَة الليمُونْ**» أقحمتني ذات مساء بحوار أظنه أشبه بسرد موجز لحكايتي معك، كانت تقول لي: الرجُل يتمسكُ بمَن يُحب بِقدر حَاجته إليها ومَا أن يصل حَد الاكتفَاء حتّى يُطلق سراحها ويمضِي دُون التفات.

أَهو أنت يا فياض، أحقاً انتهيت مني!؟

حلقت إلى مدى بعيد، تذكرت أنني يوم قرأت للسيدة هيفاء بيطار رأياً ما عن ذاك الذي يدعى حب، كانت تقول: «يكفي أن يحبك قلب واحد لتعيشي»، ولا أدري هل يمكنك العيش بذات قلب لفظته يوماً..!؟

***

فياض أنا أدرك جيداً بأن قلباً واحداً لا يكفينا أبداً، فالقلوب ذاتها قد تلفظنا يوماً مثلما لفظتني أنت دوماً، ومن بعدك أنا ضد الاكتفاء بقلب واحد، وأصبحت أنادي لأغلب العشاق بالحب كُنْ كالجائع الذي لا يشبع، وخذ الحيطة بأكثر من قلب، فأكثر الخيبات يتضمنها الحب ولا تلمني، فبعد حب عظيم يُصبح كل شيء اعتيادياً ولا يتغير منا سوى اليقين أننا بما عشناه ارتحلنا عنه بلا عودة!

أكثر شيء مثير للشفقة هو أننا اعتدنا الألم وامتهنا الرقص بأعراس خيباتنا، وباق لنا إتقان التناسي لننسى، هو فيتامين النسيان لو كان سيكون أعظم احتياجاتنا، ولو فاق حاجة الأنفاس لنسمة هواء.

وليتني أفهم بغير ما أدركه جيداً، فمن السهل جداً أن نتعلم، لكن الصعب هو أن نتقن، وأنا أحتاج إتقان الكثير من بعدك، أرغب بأشياء كثيرة لم أعد أشتهيها إلّا حينما رحلت، كأن أتقن البغض والكره جيداً وأمضي في حياتي كأي أنثى تسبب بها أسد ما بإحداث ثقبٍ في قلبها ومضى، ومع كل هذا أنت يا حبيبي لا تخف أبداً فأنا هي تلك التي

تهيم بك بجنون، وهي التي تجد لك ألف عذر رغم كل شيء وبكل خير سأستشهد حضورك..، أتظن نفسك غائباً؟! لا والله لا أحد يشهد تفاصيلي التي لم أتقنها سواك، «في كل شيء حاضر مثلما أغيب أنا عن جُل تفاصيلك».

وأنت تعلم أنني أحببتك بعمق يُحال لي أن أكرهك أو أتمنى لك سوءاً، لم أكرهك حتى الآن، لكنني كرهت نفسي يوم وهبتها لك، كنت بلهاء يوم حسبتك يوماً ستحتضنني وتصعد بي فوق دونيات كثيرة، ولم أشعر بصحبة الهبوط سوى الآن، ألصقتني بخيبة عظيمة نسفت لي أوجاعاً أنت كفيلها، عيرتني حتى بانتظاري لك، بأصدق شعور وهبته لك، **فأي رجل أنت!؟**

أذنبي الوحيد هو أنني كنت أنثى بريئة صادقة أحبتك وكأن الحياة أنت، وليتك تستحق!

قل لي أي قلب هو قلبك؟

كيف لك أن تقسو على قلب أحبك إلى حد الهلاك!؟

قلت لي يوماً في شأن أناس سلبوا مني الفرح ولم أعد أتقن الضحك بعدها، ليتك تدرك بما سلبته أنت مني أيضاً، هبني روحي وأعد لي نبضي، باق من عمري ما يلزمه حياة.

بربك أي غبية أنا، كيف لي أن أحبك حتى هذه اللحظة؟ كيف لي أن أحب رجلاً

مـــن حـــديـــد قـــلـــبـــه مـــن جليد!
تــقــول إنـــك تتقن الإحـــســـاس،
هـــذا يـعـنـي بـأنـك إنـسـان؟
جيد إذن كيف تجد فعلك بروحي؟
أَسـعـيـد بـمـا فـعـلـتـه بـي!؟
كل يوم أسأل نفسي يا ربي أَتراه سعيداً؟

وصدقاً والله أكثر ما أتمناه هو أن تعانق روحك الفرح دونما اكتفاء، لا أريدك أن تحزن أو تبكي يوماً ما، فقط أريدك سعيداً «مُبتسماً كما أحببتك وسأحبك دوماً»، كان قلبك قاسياً عليّ، صحيح، لكنني أحبه جداً، ولاأزال أثق به وأدعو له دوماً.

«ليتك لم تعبث بنقاء روحك لأسباب أنت تجيد كتمانها» وليتك لم تترك لي مجالاً أجرح به حروفي يوماً بالكتابة ضدك ولو بكلمة، في كل ما تحكيه سطوري كان أقل من وجعي بكثير، لأجلك لاأزال أُهدئُ من ثورة حزني بعدك، حتى لا تنضح الأوراق سواداً وشيطانية لم تعهدها عليّ!

بعض التجارب تكفيك عمراً يا حبيبي هكذا أدركت وأخيراً، وأنا حينما أحببتك كنت لم أعد أعرف قيمة عقلي قطّ، أظن بأن حبك هو من اختارني، عرف عني غباء وفائي وإسراف العطاء مني في كل شيء، أظنك أوصيته جيداً حتى يجدني! لذا لا تظنني يوماً سأكرهك فقط

لأنك تريد مني ذلك، عادةً الكُرْه صعبٌ على القلوب المتيقنة بمعناه كشعور سيء، فإن كان فهو مستحق وضروري لأن يكون لمن أتقن ذلك، «والكره صعب عليّ جداً».

وكيف بك وأنت أنفاس أدمنتها إلى حين تلحقني رحمة من القادر الكريم..، أنا صحيح أتخذ موقفاً على تصرف ما لكن أن أكره شخصاً ما صعب جداً..، يُتعبني الخوض بذاك الشعور، أشعر به بأنني لم أعد أنا ولست أعرفني وكأنني امرأة بقلب أسود، لا أدري، قد تظنني أبالغ لكن هي كذلك تربية أمي، فاعذرني على كل شيء، فرط الشعور مني وعلى الحداد الذي التزمته بعد رحيلك عني ولست أفهم أهو ذنب أمي حينما ربتني على العطاء حتى أسرفت فيه في كل شيء..!؟

فالمعذرة يا غالي، المعذرة على كل شيء كان وسيكون، عذراً على إمضاءات بعض الحروف التي تفضحني بك، وعذراً على الأسى الذي يُبكيني وأبكيه من بعدك ولا تلمني أبداً لأنك كنت لي رجلاً كما لو كان من هبات السماء.

فلم أظن بك يوماً بمثل ما شعرته منك الآن، ليتني لم أتجاوز البداية معك، ليتني بقيت أتأمل سراباً كان ولايزال الأجمل من واقعي بك، أنت لم تعدني بشيء، صحيح، لكنك علقتني بك وبكل جنون أعطيتني دروباً أتحايل بها إلى أن وصلت إليك، لكن الباب مقفل منذ عهد مضى!

الحب ليس لزاماً يا سيدي، نعم، لكنه رحمة ورأفة أيضاً.

لِمَ تخوض معي تلك اللعبة وأنت إلى الآن رهينٌ لماضيك؟!

أولم تدرك بعد أن حبك في قلبي كما لو كان ثُقباً تتوه به جُل الأحلام؟!

وها أنا مريضة بك إلى حد التلاشي.

***

قلت لك ملياً: الحب ليس بخيار أحد منا، صحيح؛ لكنك أيضاً دفعتني إلى الكثير منك، منذ الوهلة الأولى كنت قادراً على إيقافي ولتكن البداية هي النهاية، تلك البداية التي زرعت في أعماقي حياة لا أدري كيف لي أن أمضي من دونها، فكم من آه تعتصر جوفي الآن وفي حال جعلتني به محطمة جداً، خذلني الحب بك مجدداً، أنا أعترف، نهايتي بك ليست كأي شيء مضى من عمري، ولست أدري أأبكيك عاشقة أم أماً جِلْتَ بين الكثير من حناياها!؟ أتعرف، أعدك هذه المرة لن أبكيك أبداً؟

فقط سأبكي نفسي.
نفسي التي تركتها عالقة بين أطراف قلبك.
ليتك تشعر كم أنني أشفق على
نفسي حينما أذكر كيف كنت أتمنن
إليك حتى تستعطفني بكلمة!
فكم كنت ساذجة بك إلى حد الغباء.
تأكد وجعي بك لن ينتهي.

الخلاص من العظيم المنان، استخرته بك كثيراً، والحمد لله واجب الرضا، فلا تقلق عليّ يوماً فأنا لي رب لن ينساني أبداً، **أنا فقط مؤمنة بغدٍ أجمل**، راضية وموقنة بأن الحياة بين لحظات وأخرى تهبنا أشياء كثيرة، تغمرنا بحياة لا تشبه ماضينا ولا حتى حاضرنا.

سيدي، كل شيء منك في خزائن، احتضنتك بكل ما فيك حباً، كل شيء خاص باقٍ إلى حين أتحايل به على نفسي وأمحوك من كل شيء علق بي، فأنا على سباق مع عقلي وروحي بك، **دعواتك هي ما أحتاجها**، قل للرب مثلما وهبني حبك يهبني نسيانك.

يا غالي..

بين حين وأخر سأهبك أيضاً دعواتي، تلك الدعوات التي كنت أعدك بها ولن أنساها، **فقط لا تنسني**..

***

قد وجدتني في بعض الأحيان قاسية، هذا لأنني أكتب إليك بحرقة فلا تلمني أبداً، لأنني أحبك.. وأحبك جداً، فمن الطبيعي كل الغضب الذي يسكنني هذا ومن اللازم أن يكون (أنا إنسان).

صدقني، والله لو أنني كنت هادئة أنت نفسك لن تشعر بحبي ذاك إلّا أنه ليس سوى كذبة أو شيء أقل من أن يكون حُباً، عظمة حبي بك ليست هينة حتى تظنني أستطيع الصمود بصمت.

اعذرني على كل شعور لم أقصد به إهانتك أو تجريحك.. والله كل ما كان، هو حقي الطبيعي فلا تعتقد أن فراقك سيكون إيَّاي سهلاً

أبداً، ولا تظن بي سعادة أبداً في كل ما أكتبه ضدك، فقط أرجوك لا أريدك أن تشعر في يوم أنني لا أحبك، أحببتك وسأظل أحبك.

***

كان أستاذي عبدالله العُتَيِّق يقول: «من قوانين العلاقات بين الناس أن يتقبَّل الطرفان أحدهما الآخر كما هو، ما دامت العلاقة تكوَّنت برضاهما»، وأنا رضيت، فالحمد لله على ما مضى، والحمد لله على ما سيمضي، والحمد لله على ما هو آت، الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً.

..(27)..

وهبتك أسباباً عديدة لتحبني قليلاً، فامنحني سبباً واحداً كي لا أغرق بك أكثر

منذ أن انتهينا لم أَلتقِ بصدِيْقَتَيَّ واعتمدت إقفال هاتفي إلى حين،

اخترت أن أشهد احتضار قلبي على فراقك وأتوشح السواد، فربما أنهض بأكثر قوة غابت عني مذ عرفتك.

ندى كانت تُلح عليّ كثيراً، تجبرني على الخروج وتزورني كثيراً لكن دون جدوى، فأنا غارقة ببحرك الميت!

سفانة كان غريباً أمرها بالنسبة إليّ، هي الأخرى اختارت أن تعانق ألمي بصمت وعن بعد، أعرفها جيداً فأنا شقيقة روحها، شعرت بأنها تكتم أمراً ما، لا أدري ماذا يكون، خصوصاً حينما التقيتها بعد أسبوع، فقالت لي بهدوء: أَتحبينه!؟

أجبتها دون تـــردد: ولـــن أنـســاه..

أغرقت عينيها بملح مائها وهمست لي: لكنه لا يستحق، أنتِ أعظم من أن تُسخري نفسك لحب رجل لم ولن يستحقك أبداً..

أجبتها بهدوء: لا تظلميه مهما كان فقد يكون له عذر ما، فقط قولي: الحمد لله، «هكذا علمتني أمي».

يا حبيبتي، أعلم أنكِ تُحبينني جداً لكن ثقي بي ولا تخشي عليّ أبداً فأنا لاأزال أراقص اليأس بعناق الأمل.

اقتربت مني وهي تحتضن يدي جيداً وقالت: آه يا بيلسان، أنا لا أثق بالعشاق وأنتِ عاشقة، «عواطفك هي المتحكمة بك» **انسيه يا بيلسان انسيه أرجوك.**

قلت لها وأنا أتصنع الصمود: كيف..، كيف لي أن أنساه؟

أجابتني: سيكون بإذن الله سيكون..، نحن لك العون بعد الله..

ولم أُجِد التحكم بنفسي وعواطفي أمامها، ولم يكن لي سوى الانهيار.. احتضنتها وبكيت، بكيت بشدة وكأنني أستقبل خبر وفاتك!

سفانة أقرب إليّ من أيٍّ كان، صديقة فكر وروح، نتشابه رغم اختلافنا الكبير، لا أحد يُماثلنا، هي الصديقة التي أحرص جيداً كيف أُخفيها عن أعين الحاسدين، لم تكن لي يوماً غير أخت وصديقة أعتمد عليها في أشد الظروف، سرُّنا واحد، وهمنا بالتناصف، وتعاطينا مع بعضنا هو الذي يفوق كل منا على حِدةٍ، عاهدتها على أن أعيش لنفسي ولأجل أحبة من حولي.

أدرك قلق سفانة الشديد عليّ.

حبيبتي تصارع بين توقيت تحليقها نحو طموحها وبيني وبين أوجاعي به.

ربي لا تجعلني به أنسى كل من يشتد لأتفه أوجاعي..

فيّاض لِم تحاول تشويه صورتك في داخلي؟

لِم تفجعني بغيرك!؟

حدثتني تماماً مثلهم، أهنتني كثيراً وكأنني يوماً لمْ أعنِك!

ألهذا الحد كنت تكرهني؟

بت تشبههم رغم إصراري على أنك مختلف تماماً عنهم.

أنا طاهرة يا رجل، لِمَ لوثتني، وبنهايتك تلك جعلتني وكأنني حقيرة، وجداً..؟!

أولم يكفِك بأنك جعلتني أشعر بأن لا فرق بيني وبين فتيات العلاقات..؟!

أتظنني معك كنت أتسلى!؟

لِم ألحقتني بتيار العلاقات العابرة؟!

وليتك كنت كأي عابر وطأتْ قدماه قلبي.

أكثر ما يُعذبني هو أنني لأجلك فعلت ما لم أفعله، كنت صادقة والله..، صادقة جداً، لم أكذب في كل ما عشته وأعيشه بك.

أتعلم برغم ما فعلته لأكرهك لم أستطع بأن أتعايش مع ما رغبته مني؛ هذا لأنني بالحب لم أخْتَرْك، فمن الصعب جداً أن أكرهك ولو باختيارك أنت.

قل لي أحقاً هو أنت من أحببته؟!

موقنة أنا بأن إحساسي لا يخيب أبداً، ذاك الأخير لا يمُتُّ بصلة إليك بتاتاً..

خاب أملي بك لأنك اخترت قناعاً شوهك كثيراً، وكأنني لا أعرفك!

عرفتك نزيهاً، فكيف لك تحاول بأن تكون بغيره وبحال يحتقره كل إنسان نبيل!

كان من الممكن أن ننتهي بطريقة أجمل، ابتعد وأنت بالجمال ذاته..

آه يا فيّاض لاأزال أبكي، لأن كل شيء عالق بك.

أَتعرف بأنني عدت كما الطفل الذي لا يهنأ بنومه إلّا بعناق أمه، بت مكسورة الجناح، كل شيء يُخيفني ويجرحني، أسألك بربك أَسعيد أنت بكل هذا!؟

تعلم، بات يُثير شفقتي ويُمزقني الألم على حال أنثى أصبحتُ عليها من بعدك، أنثى تصحو في الأسحار تدعو: يا رب رجوتك لا تُحرمه عليّ، فلا رغبة لي بصغارٍ هو ليس والدهم، وكأننا بالحب نقتص أجنحة أحلامنا حتى لا تحلق في سماء غيرها!

قل لي أي حال صنعت مني!

تخيل أنني ذات يوم كنت أتكئ على أوجاعي بك خلسة عن أنظار الكثير، فرمقت أمي اصفراري وبريق دموعي.

همست لي بضيق: أي همٍّ احتواك يا صغيرتي!؟

تفاقم الوجع في داخلي وامتهنت الكذب علَّي أخفي ما أستطيع إخفاءه منك: لا يا أمي أنا بخير، لا تقلقي عليّ أبداً.

فمن منا يتحمل ذنب وجع أمي!؟

أمي التي لا أحد يعرف من هي غيرك.

أمي التي لم تكن إلّا بمثل ما أحببت وتمنيت يوماً..

أمي التي ائتمنتك على فلذة كبدها يوم جعلت منك الرجل الوحيد الذي يقتحم أسوار صغارٍ لم تكن لهم إلّا كل شيء.

أمي التي لا أدري من تظنها يا فياض.. هي أم وأعظم أب وأنقى صديقة.

آآآه يا عزيزي بيني وبين أوجاعي رتلت ترانيم عذابك.

وموقنة بأن أمي باتت تدرك كل شيء، كل شيء كنا به معاً.

أمي حبيبتي، لا تقلقي عليّ أبداً.

أنا فقط مُصابة بخيبة رجل علقت بأطراف قلبه، رجل كان لي حياة وأعمق من وطن، رجل نسجت أحلامي به قمصاناً ظننته سيرتديها لي ذات مساء واقع!

رجل بسببه وهبت أمنياتي عدد أطفالي، صغاراً أنجبتهم في ذات حلم جمعني به، أطفالاً يتمهم القدر قبل أن يولدوا!

فما الذنب الذي اقترفوه حتى يلفظهم ويتركني بهم أماً بلا والٍ؟!

حسبت أنه من الممكن أن أمضي في قوقعتي أتجرع ذنب وفائي،

وهدر عواطفي على ذكر شرس نهش روحي برحيله عن سمائي، لكنني لم أستطع قطّ، بتُّ صغيرة جداً.

صدقت أمي فأنا لاأزال طفلة، صغيرة بلا مأوى وتائهة كما لو أنني في الغابة، فبدون أمي لا يمكنني أن أعيش.

عادت إليّ مخاوف أنت جيداً تعرفها (لازمتني من جديد عقدة الظلام ومخاوف الفقد الذي شكوتك الحال الذي أعانيه منه، ولم تتأخر أنت بإلحاقي بصدمة جديدة منه) بت في حال هزيل جداً.

بعدك هجرت النوم طوعاً، فعدما يحين وقته، أبدو أكثر اشتياقاً إليك، وأنا سئمت أشواقاً لن تُجدي بي إلّا عذاباً لن ينتهي.

وفي كل ليلة أتسلل إلى فراش أمي باكية، تخيل أنني أبكيك لأمي وأشكو حالي من بعدك، تبكي هي الأخرى وتنصت بحال يُخيفني جداً، في كل ليلة أنتظرها تنهرني، تعاتبني على علاقتي تلك معك، لكنها تنصت وتحتضني بعمق لن تتخيله أبداً.

أبكيك بشدة، أحكي لها عن شعور فقدي العظيم بك، أقول لها: أمي أحببته بكل ما أملك من قوة ولم أعد أحتمل هذا الكون بدونه.

تضمني إليها وتهمس لي بإذني: أنا معك أَلا أكفيك؟

يا عمري فقط رددي معي الحمدلله، الحمد لله على كل حال يا صغيرتي، هي الخيرة والله أعلم بما هو أنسب إلينا، أنتِ مؤمنة وقوية يا بيلسان لا تضعفي لأجله أو لغيره.

صرخت باكية فجأة: أمي لا أريد أن أسامحه أبداً « أكرهه يا أمي أكرهه جداً».

أجابتني بأكثر حناناً: سامحيه يا أمي وأكرهيه كما تشائين، سامحي حتى لا تبقى أوجاعه عالقة إلى ما لا نهاية.

رددت عليها بقوة: أنا موجوعة يا أمي موجوعة جداً، ووجعي به لن ينتهي، فلا تظني إن سامحته حقاً ستخمد أوجاعٌ هو سببها لي.

وسامحتك..، سامحتك من أعماق قلبي، ولم يعترني أي تغيير يجعلك لا تعرفني أبداً.

لاأزال أخاف عليك جداً كطفل شقي لا يكترث لأي شيء سوى أنه يُغامر، بقيت على عهدك بي عاشقة حالمة، أتخيلك في كل حين.

وككل شيء جميل أحبك كالمطر في شحيح هطله، وفي كل شيء بخيل أفتقدك كأنت في أشد الحاجة إليك.

لاأزال أحن إليك وأشتاقك جداً، وليتني أنفض روحي من كل شيء علق بها.

أحتاج رحمة تفقدني الذاكرة بأدق تفاصيل عشتها معك «عناقي لحرفك، أنفاس عطرك وإدماني لصوتك»، كل شيء علق بي منك يطغى على أبسط تفاصيلي، ذبلت حياتي من بعدك فأنت الروح لحياتي، ولاأزال أخاف من حبك كثيراً، فكم فارساً يجب أن أعشق، وكم حكاية حب يجب أن أعيشها كي أنساك!؟

ورطتني بالحب، علمتني كيف أن للجنون فنوناً، فغرستك عشقاً على طرقات حياتي وجعلتك كنزاً في خريطة كوني.

تخيل أنـي في كل يـوم أنـوي نسيانك
وفـي كـل لحظة أنـسـى بـأن أنسـاك.

لكنك في الحقيقة تبدو سعيداً جداً من دوني ولا كأنك يوماً تعايشت معي ولو في حكاية رمادية اللون!

حبيبي، أعلم بأنك لاتزال تُجاري القوة ولو في أضعف الحالات، لكن أحتاجك تعرف أن أنثاك لم تملك من الخيار سوى أمرّه وأصعبه، كتبت لك في يومنا ذاك وداعية بحضور شكواي لأمي أتذكرها؟

كانت في مساء أول أيام عامنا الميلادي الجديد 2/ 1/ 2012م، فأنا وأنت انتهينا بشهر ديسمبر في يوم 2/ 12/ 2011م بالضبط، نهاية قاسية في أجواء باردة «**لم نرحم بعضنا أبداً**»، فلا الأجواء تساعد ولا نحن نُناضل في البقاء، تساهلك بها «**جعلني أستسلم وأمضي كما أردت بالضبط نهايتك تلك**»؛ أشعلت بي بداية بك متجددة، رغم خيبتي ورغم وجعي إلّا أنني لاأزال أحب البداية، وتصور أنني لست نادمة عليها أبداً، ودعتك ببوح أسرفت فيه في تعاطي القوة إلى حين انتهيت وبجوار أمي كتبت لها عنك، في إحدى الليالي التي حكيت لك عنها ولأجلها احتميت بقوة ولو مزيفة، كتبت أصعب قرار اتخذته في حياتي: **آمنت يا أمي أن الحُبّ مُجرد حكايات تُكتب كما كتبها هو وقرأتها أنا،**

رحل يا أمي من دون أن يدرك بأني أحببته جداً، رحل كما لو أنه انتزع روحي، ولا أدري يا أمي أأحببت لي رجلاً من فولاذ؟!

رجلاً لا يفقه سوى أنه وحده الإنسان دون أن يدرك ماهية الإنسانية في كل شيء، ثقافة الحياة تنادي بالأخذ والعطاء، فكيف له أن يتفنن بأنانية لم أعهدها في إنسان آسى من أوجاع كثيرة، وكيف للموجوع أن يوجع! لا أعلم صدقاً أكان من الواجب منه أن يُذيقني ما ذاقه!؟

لو إنكِ تعلمين يا أمي كم كنتُ أخاف الحُبّ جداً كما لو أنني به سأموت ومُتُّ فيه منذ أخبرته لأول مرة أنني أُحبه، ليس هناك من يستحق أن أهبه هذا الحب بعد الآن لأنني أحببته جداً فخذلني جداً، لمْ يفهم أن الحُبّ أفقدني روحي منذ ورطني به، وليته يدرك أو يُقدّر على الأقل أنه كان لي أنفاس حياة، أماتني يا أمي برحيله عني، كان هو الوطن والفرح الذي به كل الأمل..، يا أمي أيقنت بأن طريق النهاية أصعب مما نتخيله كشأن البداية، ننسى أن الشجاعة تختلف جداً عن الجُبن والاستكانة لنهايات تُسقطنا مُجبرين وكأننا غير مسؤولين.

فكل منّا يظن بنفسه طمأنينة بحال المساكين وبؤس المظلومين، هذا لأننا أغبياء جداً، وكل منّا له حق في الظلم والتظلم، كل منا كان سنداً للآخر إلى حين أتقنّا لعبة هتك الأرواح فمتنا وجعاً ولأنفاسنا بقية تنفث سموماً كانت!

راحلة أنا يا أمي، سأنزع قلبي مني وأمضي وحدي فقط، لست

بحاجة إلى حُبّ يغمرني بأي وجع، فكل شيء كان وهماً، كذباً، ربما هو حلم وانتهى.

وبقيت في كل مرة أبكي وتصطادني أمي تحتضنني وتقول: إنسيه، وما يُدريك فمنْ عند رَبّي عوضاً بأخير، أصرخ باكية: لا يا أمي لا أريد سواه، فقط أريده هو.

فإلى أي حد جعلتني أكفر بجميع الرجال سواك؟

بربك قل لي ما الحل برغم ما حصل إلا أنني لاأزال أدعو ربي يجمعني بك عاجلاً غير آجلٍ، أيقنت بأن أكثر الأشياء العالقة هي التي تشكلنا حسب ارتباطها وتعلقنا بها؛ فبعض المخزون يورث مشاعر يخونها البوح فتبقى دافئة إلى حين لحظات باردة، وأصدق كذبة عشتها هو أنت، في كل زاوية لي معك حكاية بين أمواج الذكريات ثوران لقصاصات حبنا، وهل من يوم كان أن يعود!؟

تركتني أصارع البعد وأتحايل على أدق تفاصيلي، أهرب من كل ذاك وأجدني نحوك!

يغمرني شعور ينخر فؤادي بك، فشعوري بك لا يهدأ أبداً، وروحي لا تتمايل إلّا لك، لاتزال تزور أحلامي وتفيض أيامي بك، أقسم لك، حاولت أن أكرهك ولو لأجلك لكنني لم أستطع قطّ، لاأزال أحبك جداً وبت أشعر بأنه أكثر مما مضى، ولست أستطيع تجاوز الكثير منك، فلا سفانة ولا أمي ولا أحد سينزعك من فؤادي غير الذي حطَّك فيه، **فيا رب رجوتك انزع حبه من قلبي.**

أنا الأخرى بات يلزمني هدوءٌ لغضبي وزهايمر لكل شعوري، يا رب إغفر لي وله كل هفوات سقطت منا دونما أن نتقن الثبات.

أحتاجك أن تعلم بأنه:

«من الممكن أن أتخلى عنك كأي أنثى عاشقة خابت ظنونها

لكن من الصعب جداً أن أتخلى عنك كأمٍ في يوم احتوتك كصغيرٍ لها...

أقسم لك، بت أشعر وبقوة أنني أنجبتك ذات مساء!».

..(28)..

..سفانة..

حان رحيل سفانة، آن الأوان لعناق الأحلام، باتت عقارب الساعة أكثر استعجالاً وكأنها تكيد لروح الصداقة.

غادرت سفانتي وهي تُسمعنا صدى روحها تُغني فراقاً لا أتمناه يطول وكأنها تُغَنِي (بودعكم يا أحبابي.. غصب ولا أنا ما بي).

سفانة قبل رحيلها عانقتني بقصيدة أعلم يقيناً لو شَهِدتُها كحال أجمل الخلق ستغضب، لكنني أحتاجها لواقع عشناه معاً، لحياة كنا بها بذاك الفيّاض.

فيا صديقة روحي أنا في كل حين أقرأ رسالتك تلك، وأوقن بأنني ورطت الكثير معي بذاك الحب العابس.

(إرفاق على لسان مُحِبّة تُدعى بيلسان)(*)

قــدْ أضـحـى فــؤادي عليل   وقـلـبـي لا يـقـوى الـفـراق
كـطـفـل ضـائـع ضـلـيـل   عـيـنـايَ تـدمـعُ فـي سباق
ما هـذا الـدّاء؟مـا هـذا الغليل   أتـرانـي فــرداً مـن العشّاق

(*) أبيات سفانة، حرف ناطق باسم شيماء بالعلا.

قـدْ أضـحـى فــؤادي عليل   وقـلـبـي لا يـقـوى الـفـراق
كـطـفـل ضـائـع ضـلـيـل   عـيـنـايَ تـدمـعُ فـي سباق
واويلتا مـن السّيف السليل   ويـا ويـل حالي من الإشفاق
فيا صبري على الدّرب الطويل   ويـا عـونـي عـلـى الإرهـاق
إرهـاقـي مـن نـأي الخليل   ولهفي ولوعتي وحرِّ الاشتياق
أُهديكَ يا سندي ورداً وأكليلاً   وحـبـاً ووداً وبـاقـة الأشـواق
كمدِّ نهرٍ وعطاء نخلٍ ظليل   وبهاء زهـر من حبي الدّفاق
يا أميري لا أطلبُ منكَ البديل   غير أني أناجيكَ يا سيدي الرفاق
يا إلهي ويا رب الكون الجليل   هب لي من لدنك صبراً وإعتاق

سفانة يا حبيبة كيف للصدى أن يرهق مسامع قلب يبكي حاله، لا أدري بحق أي تعايش أهديتك إياه، يا ليتني فعلت بك كل شيء جميل، **جميل فقط.**

أسألك بربك يا رفيقة بالهُون على قلبك الرقيق، ودعكِ من مناداة قلبي المجنون فهو يعيش حباً أظنه مبتوراً.

كنت أتحايل على الكثير من تفاصيلنا المميتة لكنه لَزِم عليّ أن أجد حلاً يُريحنا ولو لوهلة، اشتريت لها دفتراً ذا غلاف أخضر وصفحات صفراء، كتبت في أول صفحة فيه نصيحة: **اعتمدي الكتابة وأنشئي لك مملكة خاصة، أخلقي لك رجلاً يُعد الأفضل من ذاك الفواز، ارسميه يا سفانة.**

فلنجرب قول مُستغانمي: (لتشفي من حالة عشقية يلزمك رفاة

حب على ذاك البريق الذي انخطفت به يوماً، يلزمك قبر ورخام وشجاعة لدفن من كان أقرب الناس إليك).

شيدي له قبراً من الورق، وارسمي له رجلاً جديداً، ارسميه جيداً واكتبيه بكل ما أوتيتِ به من جنون!

وصدقيني سأعمل بأشد مما أتمناه لك، أدركت بأن للحياة دوراناً لا يقف أبداً، لذا دعينا نسلك دوراناً ولو بشكل معاكس، المهم هو أن نمضي، دعينا نمتهن الجنون إلى حين.

فللتو فقط أيقنت بما حفظته من دروس النسيان للبروفيسورة «**مُستغانمي**» حينما قالت: «**الحبّ الكبير يُخيف رجلاً ما عرف امرأة من قبلك، إنه ينسحب ليحمي رجولته من إغداق أنوثتك وليتداوى من تلاشيه فيك، لكنني لا أعرف رجلاً شُفي من سرطان الروح بتناوله «أسبرين» الكذب على الذات، لا أحد تعافى من حب كبير، هكذا تقول التقارير العاطفية**».

وفيّاض عهد نساء كُثر لكن يُحال عليه أن يجد نسخة مكررة مني، فلا امرأة قبلي ولا بعدي.

وفي المدرسة ذاتها تعلمت: «إن أحببته كما لم تحب امرأة فلو تبكي ولا تحزني ليسعد به، سعادتك أنك قصاصه المستقبليّ كلما تقدم به العمر كبرت بذكراك خسارته، ربما وجد امرأة تهديه نسيانك لكن لن يعثر على امرأة تهديه حُبك!».

فكيف بي يا سيدة أحلام وأنا أعظم مُنتسبة لصفوف العشق!

..(29)..

..فرط جنون..

بعدما اجتزت القليل من كثير مضى، تمكنت وأخيراً من أن أحقق حلم والدي بأن يكون لنا بيت يحويني أنا وعائلتي دونما إعانات من أحد، فالحمد لله اشتريت البيت الذي وليت أمر بحثه منذ البداية إلى ندى، التي باتت أكثر حناناً عليّ بعد أن غادرتنا سفانة؛ أهدتني بمناسبة انتقالنا إلى بيتنا الجديد لوحة أحببتها منذ شهدت عيني واقعها، تقول لي: بيلسان كان لي مجرد حلم، لكنني بت أراه حقيقة، تخطّيتِ ولو البعض من كثير فيّاض وهذا إنجاز، ولتعلمي أنَّهم جميعهم يُتْخِموننا بوعود فنشتد تعلقاً ونحلق إلى أبعد أفق حتى نقع، وآخر المطاف تلتصق بنا خيبات وخيمة تثور بنا إلى أهازيج رتيبة بأنغام حزينة، جميعهم راحلون، لا أحد باقٍ إلّا وجهه سبحانه.

حبيبتي لأنكِ نقية قلب صافية بيضاء تماماً كما الحمام في صفوة السماء يُحلق، رسمت لكِ لوحة أتمنى أن أجد لها حيزاً بين أغلى أشيائك.



(مجرد حلم للثمينة دانة العواد)

كنت كثيراً ما أنصح بالكتابة كحل أمثل للنهوض بحياة جديدة إلّا أنني لم أُجد بعد فنّ ذاك التعايش مع نفسي؛ أصعب شعور يمضي به الكاتب هو أنه في كل مرة يكتب وكأنها الأخيرة، يُفرط بالبوح ويقسو على الورق وكأنه يحارب الحروف!

لا أدري لكن شدني الجنون نفسه وأحببته كلما اقترحته كأحد الحلول لأي كان.

مؤمنة أنا بأن أجمل الحلول النفسية وأدقّها هي الكتابة خصوصاً حينما أستشعر عمق الكتابة في كونها تجرّداً من كل شيء، لا أقنعة نواري خلفها وجعَ ما نُمضي عيشه في حياتنا، فأكثر ما أعنيه بأن **لسحر الكتابة راحة قاطنة فقط في الورق.**

فاخترت أن أكتب وأكتب إلى حين..

عادة، في الإحساس واعتناق الحرف، أنا لا أخسر أبداً، لأني أتقن التعايش والعيش به، أما الذوات في كل حين نجد لخيباتنا رغد عيش يفتفت بقية أرواحنا؛ لذا امتهنت الجنون بإفراط وخلقت لي أنثى برجل آخر لا تمت بأي صلة لسابق عهدي مع ذاك.

وامتزجت سطور عديدة في دفتري ذاك، دونت فيه تفاصيل كثيرة إلى أن كاد يصرخ لعقد اشتباك حروف أبت أن تُغنى بغير صوته، اخترت أن بدايته من الإهداء إليك فيّاضي.

«الطير الذي يغنّي كثيراً لا يبني عشّاً. وأنا غنّيتُ كثيراً أكثر ممّا تتصوّر.

ولا زِلتُ، لَم يُبنَ لِيَ عُش.. وأُدركُ أنني لَن أعرِف الاستقرار..»(*).

لا أدري إن كان من الممكن أن تغني معي ولو لمرة واحدة فقط وترقص معي على حكاية زمن عشته بدونك، صدقني سأستمع إليك وكأنني لا أتقن إلّا فن الإنصات.

غَنِّ..، فأنا لا أملك إلّا حزناً، لذا أخشى البوح بتفاصيل سوداء قد تلون سماواتنا بدخان يكتم أرجاء كوني بك.

حبيبي قلت لك بأن حكايات الحزن لا تفيض إلّا بمثله، لذا لا نتحدث كثيراً عنها وما بي ليس إلّا مواطأة حال مع الأقدار، ما عنائي سوى قليل من كدر، لست كئيبة والحمد لله ولست بائسة أو حتى

(*) أنيس منصور.

يائسة، أنا فقط عاجزة يا حبيبي بين تفاصيل تُسوّر حياتي بالكثير.. **فقط غَنِّ..**

كنت أتعمد في مذكراتي تلك إليك أن تكون كأشد انتقام كما لو كانت تعذيباً، أود أن تقرأها إلى أن تعلق بأحشائها فتموت حسرة على أنثى أصبحت لك **كالوميض**.

ولأنني لا أستطيع أن أحب غيرك ولا يمكنني أن أعيش شعوراً قد يؤذيك في أعماقي، **سأختار رجلاً آخر أكتب عنه وله**، سأطلب من حروفي أن تنسج لي رجلاً من ضباب يضاهيك بشفافيته، رجلاً يحبني أكثر مما أحبه، يُبحرني في قارب عشقه وهو الذي يغرق، يُداهمني بعذب كلامه وهو من يختنق حباً، رجلاً دوماً وأبداً يُحبني لكياني بكل ما فيني، «**يجن بتناقضاتي، يحتضن أوجاعي ويتلذذ بكوني أنثى تملك الكثير من أصل قليل**». آه من حلم لطالما تمنيته حقيقة، خيال نسجته تضجراً منك في واقع مذكرات أسميتها «**إلى سيد الحب**»، كلما أغضبتني لجأت إليه، أكتب له وأستند إلى خيالات جننت بها معه، لأنه بحبه جعلني أشتمّ رائحة عشقه وكأنما عطرك من دون رائحة، أنساني طيباً ألزمته ذاكرتي كما لو كان برائحته روحاً لا تموت!

عاشقي ذاك (**هو سيد سطوري إلى حين..**) أكتب له يومياتي، ما يسعدني وما يحزنني منها بالطريقة التي واكبتني زماناً ومكاناً إلى أن وصل بي الحد أنني كنت أتقن وصف خبزي لكعك فشلت في صنعه ذات مرة، أحيطه بُجل حياتي، أُعلِمه بأمنياتي وكم لي وأنا أتجرع من

حولي خيبات كادت أن تقصم ظهري، أخبرته كثيراً عنك يا فياض ولطالما احتضنني منصتاً.

«**حنون ذاك الرجل**» يستمع إلى الآه بصدري قبل أن أُغنيها، وسرعان ما يكتمها بصدره وأتنفس أنا فرحاً ينتشلني مما بي إليَّه فقط.

فياض رَجُلي ذاك لم يكن شرساً أبداً، يغمرني أنا وأحلامي، يُهدهد ليلي ويحتضن نجم أمنياتي على صدره، يبتهل معي دعاءً ويدفعني معه إلى التحليق حيث سماء الصفاء هناك بين عوالم لا تحوي سواداً، سماوي بلونه ذاك العالم، لم يكن مثلك يوصيني بالضحك أبداً، كان هو من يتعمد إضحاكي.

«**يُذيقني طعم الراحة إلى أن أتقيأ السعادة**».

ربما أنا لم أكن أتقن الضحك مع رجل لم أشهد معه إلّا جُرم الغياب.. فاعذرني.

كان يقول: لو كان لي حق الخَيار لأسميتك «**فاطمة**» يا فاطمتي عنْ جُلّ النِساء.

فيّاض لو أنك تعلم أنه كان يُغَنِي لي كل يوم بصوته الحنون «**أحبك**» يُراقص عقلي قبل قلبي، كاد يجن بي هواه إلّا إني لاأزال أذكر يوم رجوت منك ذات الكلمة «**أحبك**»... كنت أستحثك بأني أعدك بأن أخلق من جفاء صوتي أغنية تكون نشيداً لموطن العشاق، وأراقصك بها على أنغام لن تكون إلّا لك.

الويل لي ظننت بنفسي معك أنثى ليست كأي أحد.

فهل استوعبت الفرق..!؟
كتبت له حكايتي معك بالصفحة الأولى وأنصفني بحبه العظيم.
قلت له أنا لست بامرأة غبية أو حتى أُميّة.
أنا فقط أدمنت رجلاً لم يؤلمه أو يمزقه فراقي.
وصدقني لست برخيصة أيضاً.
فالأمر لا يتعلق برجولته في التعامل مع المرأة التي وثقت به أبداً.
أنا فقط أحببت رجلاً بما فوق الحب.

حب هان عليه جداً.
والحب هو الكفاية، ومع هذا لم أكن أكفيه ولن أكفيه،
الخطأ أظنه في يوم كان ولايزال هو من يكفيني!
لا أدري أأصبحت خطيئته ويستغفر منها!؟

وأنا أدرك أنه ليس من العار أن نتألم من الحب، فمشكلتنا العظمى أننا نشكي الحُبّ ونبحث عنه ولا أدري حقاً ما الذي نريده بعد.. قد نرتضي الموت في الحب لكن بشرف.

لكن قل لي: أنثاه التي تسكنني بربك أليس من حقها أن تحظى بنهاية كريمة؟

هو تركني حبلى بحكايات كثيرة مذ كنت معه ولكنه يجهل

محاولاتي التي سعيت بها لإجهاضها وشاءت الأقدار أن تولد على أثر وطأته بقلبي والتصاقه بجلدي، وليته يعلم كيف أنني من بعده بتّ أخاف من يوم أكون فيه أماً فقيرة العطاء لطفل كان يركل أسفل بطني.

لست على ثقة بأنه سيقرأ أي ولادة لحكاية كانت به وله، وبرغم أنني أحببته بها أكثر من أي شيء، وهبته إياها قبل أن تولد وجلبتها إليه وهي تحبو نحو القمم وأول قمة كانت لها «**هو**».

أعترف بأنه وهبني بها بما لا يستوعبه أو يدركه.. فشكراً له، فربما يُحبني ولو قليلاً كبطلة تصارع السطور في قلب رواية ما اسمها «**بيلسان**».

كان لدفتر عاشقي هذا أثر كبير في تجدد نفسيتي إذ لطالما شعرت بين حناياه بقوة أفتقدها كثيراً لديّ، تُبعثرني آلامي اللصيقة جداً بواقعي إلّا أنني حينما أشتم رائحة الورق الأصفر المرصوص جيداً داخل غلاف أسود اللون اعتمدت سطوره كما يُخال لي نزفها بالقلم الأحمر، صفحاته الكثيرة جالت بكل شيء عني وعنه إلّا أنني لم أنسَكَ حقاً.

تركت لك رسائل مبطنة كثيرة وبين صفحات عديدة إلى أن وصلت الخاتمة في الصفحات الأخيرة، كتبت لك قصيدة تقذفني إليك من جديد فأي جنون أعيشه بك!؟

ولأنك أنت..(*)

كنت سأنجب منك قبيلة

(*) أحلام مستغانمي.

يا ولدي.. ووالدي.. وأبَ أولادي
يا كبدي وكيدي ومكابدتي
يا سندي وسندياني وسيدي
قل ((يا بُنيتي)) كي تكون لي قرابة بقدميك
عندما تقفان طويلاً للصلاة
فأدلّكهما مساءً بشفتي
كما كنتُ بالقُبل أغسل قدمي أبي
يا زهو عمري.. كُن ابني
كي أُباهي بك واختبر الأنوثة بوسامتك

عساها تطاردك رائحتي ويحتجزك حضني
وتخذلك النساء جميعهن فتعود مُنكسراً إلي
إنجبني.. كي تُنادي بين الرجال باسمي
كي أحمل جيناتك في دمي
واسمك على جواز سفري وأنتسب إلى مسقط قلبك
ما كان لي قبلك من أحد.

كهذا كنت أستنزف كل مشاعري المدسوسة بين لحظات حياتي، أَئِدُ روحاً عاشت يوماً لك، آمل كثيراً أن أتجرع قوة تجدد بي كل شي، قوة كما لو كانت النهاية الحاسمة لداء لزمني أعواماً عديدة، فهل لي بروح جديدة نقية من كل ما مضى أقبل بها على الحياة من جديد!؟

أخاف الحب ولا أجيد غير أنني أدفن نفسي في صور التحليق

في فضاء معدوم، وما بلواي غير أنني أحببتك بصدق،معك كنت بغير صورة عرفتها عني!

ولم أعلم أنني أتخمت نفسي في حب بائس، بتعايشي المتعب تناديت بنسيانك لكنني أخاف الفقد وكثيراً، سئمت التناقض الذي يمثل تفاصيل حكايتي معك..

أَتدري، أُحبك وكأني لك بالحُبّ أمٌّ، أَتراني أنجبتك من رحم الحُبّ حبيباً!؟

أظن بأن هناك شيئاً ما ينتشلني فيهديني إليك، أَهو الحب فقط؟

فبدونك تطوقني السعادة وكأنني ألفظها أحياناً، أَتعرف في كل مرة أفصح فيها عن فكرة يمكن أن تنسيني إياك وإلى الأبد، أستغرب كثيراً كيف لذاك الهراء أن يكون!؟

رغم أنني في حاجة ماسة إلى امتحان حياتي من دونك إلّا أنني أتساءل بغباء يا فياض: كم لي حق من المرات أن أعيش!

عمري يمضي ولاأزال عالقة بين أطراف قلبك فأي حياة عشتها بك!؟

أتعجب من كوني أجيب بلا تردد، إن تساءلت نفسي: ماذا لو خُلقت من جديد ويكون لي حق في الاختيار في الحب!؟

تظنني سأختار غيرك!

لا والله، هناك شعور يلزمني بك إلى ما لا نهاية وكأنني أحبك إلى ما وراء الأبد!

أيها المجنون سأحبك مرة ومرات عديدة، وفي كل مرة سأحبك كأول مرة، أنا هي تلك التي في كل دقيقة أحبتك مئة عام!

بربك أعطني مقياساً لحبي معك إلى أي درجة جعلتني أستحق منك لا شيء، لست أعلم بعد أن كنت أدركت أنني أغرق أو حقاً غرقت بك ونقطة.

بك أشعر أن لبدايتي نهاية بلا بداية أبداً.

يا الله.. هل سأمضي بالدرب نفسه أم ماذا؟

يُخال لي بك أنني أكون حلماً أو واقعاً لكن كل ما أعلمه حقاً أنك لي الحياة..

مهما مضت بي الدروب شمالاً وجنوباً، ستظلّ أنت نقطة وسطية تعتري طريقي أينما سلكت.

ثمة رسائل كثيرة تدور في خلدي لك وعلى رأس كل سؤال: لِمَ؟

أنا لا أدري ما أُسميك حُباً أم وهماً، هماً أو فصلاً كان لا بد أن يشق طريقه نحوي بوجع ضمن الحكاية.

يا رجلاً أثقل بي الوجع، ويا حلماً أراه سراباً، قل لي أَكنت حقاً أعنيك!؟

أم أنني لعبة بعيدة عن مواضع التسلية، لذا تركتني في وضع أكون فيه وحيدة كما لو أنني يتيمة للمرة الأولى!

يا هذا.. الحب لم يكن باختياري،لكن قلبي كان يقودني إلى الهلاك.

تعلم، كُنت لي أعظم من فرح، كنت شيئاً أو حلماً من نور أو حتى رسم طفل أدرك بعده معنى الحياة في وهم، ولو أنك تعرف أنني لم أتقن الحب إلا بك ولمْ أدرك يوماً معنى الخذلان إلّا معك.

أتذكر أمي يا سيداً حسبته فرحاً، هي أيضاً منك لمْ تنجُ من صفعة خيبة كانت أشد من تأهبها لوخز القدر، لأني طفلتها البائسة في حب رجل قذف بي معها حيث الوجع ذنبها لأنها بك تظن «ما من سوء يصدر من ابن أنجبته لها المصادفات!»

لا عيب عليك سوى أنني جننت بك كأي أُنثى تعتنق الحُبّ دون احتساب لأي طريق يذهب بها إلى الجنة دونما أي عبور نحو النار!

أَكنت ذنباً أم حقاً، أم أنك حلم به أمل، وأُنس حب وكلّ الفرح؟!

أَتدري، تمضي بي الأيام وما من نسيان يعبرك كأن الذاكرة بك تمتحن عشقاً اعتنقته وهماً!

حينما قررت أن أكتب لشخص جديد اختلقته من نسج أحلامي، فهذا لأنني لأول مرة أؤمن بقدرتي على الخيال والتعايش، ولأول مرة أيضاً أدرك فيها أنني كاتبة أستطيع تجاوز كل المحرمات في واقعي واستباحتها لبحر خيالي، فلأنني أخشى الاصطدام بجدران الخذلان وأموت وجعاً، كان يجب أن يكون «سيد الحب» فقط في عالمي الوردي!

أما أنت فصبرٌ جميلٌ أيها الثمين، باقٍ من الحب الكثير والكثير.. لاأزال أحبك إلى حد فاق وجع غيابك.. فاعطني الحب وخذني

إليك...

فأنا أيقنت تماماً بحالي، «وما أنا إلّا عاشقة مجنونة، بي روحٌ تُحلق نحو سماء حمراء لا تمطر إلّا حُباً».

فكيف لي أن أعيش من دون حب، هذه هي حياتي إلى حين!

(30)
والحبُّ وفاءٌ لا ينقطع..

أتدري يا فياض، لمْ أكن غبية حينما خِلتُكَ رجلاً ولمْ أكن ضعيفة حينما خانني قلبي وأحَبَّك، هو الحُبّ الذي قادني إليك أو ربما حظِّي العاثر هو من وضعك في طريقي، وبدلاً من أن أعبرك وأمضي كما لو أنك حائط قصير، ورطني الحب بك حتى بنيت أحلامي قصوراً باسمك، لكنك كنت أقل رجولة من أن تحترم قدسية الحُبِّ أو حتى تدرك معنى أن أنثى تهبك روحها وكأن الموت في سبيل حبك حياة، أتعرف هو الحب من يجعلنا أغبياء، وأغبياء جداً حينما نهب الحب من لا يستحق كأنت.

وتدركُ أيضاً بأنني لمْ أكن تلك التي تدَّعي الحب لك، ككثيراتٍ يَحمْنَ حولك،فالحبُّ الصادقُ لا يعتريه كُرْهٌ، ولا يُمكن أن يُحيط به سوءُ البغضاء،والحبُّ الصادقُ يدوم.

كما قلتُ لك سابقاً، إنَّك تعلم مَن هي أمي عندي وأقول لك الآن إنني أعلم من هي أمك عندك، لذلك كانت أمنيتي أن أقدم لك ولأمك التي أحببتها هدية الأبد، التي لا تخطر على بالك.

تدرك، كم هي مؤسِفةٌ حياتنا، كم هي سيئة على الكثيرين، بات الناسُ اليوم بلا مأوى وبات آخرون بلا طعام وبات الأكثرون من الأطفال بلا آباء، انعدمت معاني الإنسانية في كثيرٍ من الناس.

لذلك، حيث أؤمن بأن خدمة الإنسان هي جمال الوجود، كما أن الحب جمال الحياة، خطَوتُ خطوةً لأمك، هدية من تلك التي أحبت ابنها حباً كبيراً ولم يفهم هو ذلك الحب.

آهٍ يا فياض، ليتك تُدرك ما في السطور القادمة، عندها ستذكر كلامي عن حبي لك وستعرف مَن هي بيلسانك، بيلسانك سابقاً وهي اليوم بيلسان دون انتسابٍ إليك.

كفلت يتيماً وأهديت ثوابَ كفالته لأمك، لتكون مع رسول الحب، مع رسول الإنسانية، مع رسول الجمال، كإصبعيه، السبابة والوسطى، لأنني أحبك أحببتها.

أشتهي بأن أقول لك وداعاً فياض فأنتَ أعطيتني ظهرك، ولن أُقبِلَ عليك بوجهي، فلست إلّا بنت كرامٍ لا تركضُ وراءَ المُدبرين، فهذه هديتي لك لأمك مقابلَ ذلك، وكل إنسان ابن أفعاله.

..آخر وقفة..

هناك أبجديات مثيرة تُغرس في سطور كثيرة تسكن جوف كتاب تقودها مشاعر وأحاسيس تُشكل في النهاية إما هدفاً وإما قضية وإما حكاية، ويا للحكايات قد لا تنبض إلّا حُباً يُغلفه ألمٌ لأرواحٍ هلكت!

وبين هذا وذاك سؤال أصبح يراودني كثيراً، ما الذي نبحث عنه عندما نقرأ؟!

تفيض الرفوف بانسكاب لعدة عناوين، وتختلف الأذواق، ومن المحُال أن يُخلق سطر لغير قارئ يبحث عنه!

أظننا أصبحنا واعين لما نقرأ وأكثر نُضجاً لكل ما يُكتب، لكن أيضاً أي حياة نعيشها حينما نقرأ، وأي واقع يُختزن في دواخلنا بعد أن نقرأ!؟

أَفعلاً نحن نمتهن الهرب من واقع إلى واقع قد يكون أصعب!

الكُتب لم تعد بلون الزهر كسابق ما عرفناه عنها، فهي تنسج أوجاعاً جالت بين الكثير من تفاصيل آلاف الأشخاص، وبالطبع منها ما يصدق ومنها ما يفوق!

قد نتكهن حياة من خلال عنوان نتخيله اختصر ما كان في الداخل

أو أننا نبحث عن حياة من نوع ما، وحينما نبدأ في تعايش أول أسطره نُصاب بالخذلان، فلا حياة كانت إلّا بشأن كُتابها.

لست أقول إننا حينما نكتب نتقصَّد حياة لا تعني سوانا، لا، فليس بالضرورة أن يكون كل ما كُتب مختصاً بمؤلفه لأننا نواجه عالماً آخر قادنا إلى نسج سلسلة حياة في واقع مختلف جداً!

عندما نقرأ ـ ما الذي نبحث عنه!؟

إما لنهرب من واقع عشناه وإما لأننا بالطبع نبحث عن حلم حياة تمنيناها في يوم ما واقعاً نعيشه، لكن أيضاً تُرى لمَ نكتب!؟ أمن المحتمل لأجل أن نقرأ فقط!؟

لا أظن، لأن في الكتابة رسالة، والفطين هو من يقرأ ليفهم؛ ففي القراءة حقائق كامنة في جوانب عديدة [فالصورة قد تكون مرآة واقع والحياة هي نسج خيال أصابه الكاتب في مجموعة إنسان قوة بانكسار ضعف، وأخيراً حياة كانت لنا أو لهم في حقيقة خيال على بساط مُحلق إلى المدى البعيد يُبحر بين أمواج غاضبة وزوارق متهالكة تارة، وبين جموح رغبات وطموح وصمود تارة أخرى، وكأننا في النهاية بين تزاحم حياة!].

وأنا علمت يقيناً أنّ مقاييس الحب مختلفة بين عوالم كثيرة، فبالحب مجمل حياة لا يتخيلها إلّا من عاشها، هناك حب يغريك إلى الموت مهما كانت الممكنات من بين المستحيلات، وأحياناً تشيب بنا بعض مرامي الحياة فمن الطبيعي أن نتقن الإدراك ولو لبعض الأمور.

«ونحن بالعاطفة لا نضمن العقل، غالباً عواطفنا تخدر عقولنا»، فبعضنا بالحب ينسى أبسط حقوقه كإنسان، «**فهدر الكرامة لا تجعلك عظيماً بالحب أبداً**».

أيقنت بأن الحب يحتاج إتقاناً وإدراكاً بأن الحياة باتت مختلفة، فكل شيء له طعم، فمذاق الحب يفوق كل حلو ومُر، «**لأنه خليط منهما!**».

بات الحب الآن مُرعباً تماماً كالوطن المُغتصب، وفي أي حال يقصف ويبتلع الأرواح، «**لذا تلزمنا دروس مكثفة تُهذب أرواحنا على الفقد والخذلان**».

فليت البعض يدرك بأن ثمة إعانات للحب الذي نمضي به كاجتياح الحنين الذي يُكرس الماضي بأشد من الحاضر.

من المؤسف جداً أننا نفتقر إلى الرجال في الحب حتى باتت كل أنثى منا قبيلة.

فنحن في حياة تلزمنا رجولة في كل شيء، هذا إن كان البعض يعتقد أنه رجل، تلزمه مراجعة الآتي في امتهان حياته «**الصدق، الإنسانية**».

فأغلب النساء رجال**!**

والعكس كثير ومشين.

فأكثر ما تتمناه الأنثى فيما لو كان الحب رجلاً أن تقتله، وتُعفى من اعتناقه دونما عقل يضمن سير الحياة وفق طبيعتها!

وبيلسان لم تكن إلّا مجموعة إناث، هي أنثى اعتادت أن تخيط أحلامها ليلاً على أن تكتسي بها صباحاً، ولايزال الواقع يمتهن خرق الأمنيات فتمسي بأيامها عارية..!

تمت..

10:43 صباحاً
4/ 11/ 1433هـ :: 20/ 9/ 2012م
العيادة..

فاطمة فهد العواد

في نص رسالة كدت أُخبرك بها..
عُدّ وَأَعِدّنَي مَعَكَ.
فيا سيداً لقلبي الحزين بك عمري مات كما الغريق..
ويا أمنية تاهت بين قلب عليل وواقع مرير، وحدها الأحلام
تمضي بيننا كعابر ضرير!
أن أحبك كانت تكفي لأدرك الوجع العظيم والخذلان
المرير.
ووحدك يدرك بأني لمْ أكن بحال جيد لأفرط بك
كحزن عميق لكنك حد فاق به كل الوجع..
لكن أتعرف ما المشكلة.. هي بأنه لمْ يبقَ عهد نسيان
إلا ونقضته.
فالبلاء العظيم هو بأني أحبك دائماً وكأني أقسم إلى ما
وراء الأبد سأحبك.

فاطمة فهد العواد، سعودية مقيمة في الظهران.
صدر لها: *أمل بيأس (رواية)*، دار فراديس، *البحرين*، 2011.

ISBN 978-9953-71-966-5
9 789953 719665